

مذكرات بطونيسي

في اليمن

ج. انكارين



80

مكتبة بطونيسي

ترجمته د. قائد محمد طربوش
محمد اسماعيل سليمان

Bibliotheca Alexandrina
0017454

ج . انكارين

مذكرات دبلوماسي في اليمن

ترجمة : د. قائد محمد طربوش
محمد اسماعيل سليمان

مكتبة مدبولي

الطبعة الأولى ١٩٩٣

الناشر
مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

الإهداء

إلى المهندس منصور علي بن عبد الله الذي غاب
قبل الأوان . .

قائد

تقديم

هذا المؤلف الذي نقدمه للقراء الكرام يصدر في الاتحاد السوفيتي السابق عن اليمن . ككتبه ج . استاخوف باسم مستعار « انكارين » .

وكان استاخوف رئيس الجانب السوفيتي في المحادثات اليمنية السوفيتية بصنعاء ، التي تكلت بتوقيع اتفاقية صنعاء بين اليمن والاتحاد السوفيتي في أول نوفمبر عام ١٩٢٨ ، وكانت أول اتفاقية بين دولة عربية وبين الاتحاد السوفيتي تم بموجبها التبادل الدبلوماسي بينهما (١) .

لهذا الكتاب أهمية تكمن في أن مؤلفه كان شاهداً عياناً للأحداث الساخنة التي حدثت في صنعاء في صيف وخريف ذلك العام .. المتمثل بالتهديد الانجليزي للجزء المستقل عن اليمن من أجل أن يتخلى عن بعض المناطق المحاذية لمستعمرته عدن وسلطته ، لحج أنذاك من جهة ، واحتدام الصراع بين الدول الأوربية على شبه جزيرة العرب عموماً ، واليمن على وجه الخصوص من جهة ثانية .

يشير المؤلف إلى محاولة الحكومة والجزء المستقل من اليمن استعادة الأراضي المختلة آنذاك وبداية المشاكل اليمنية - السعودية حول عسير وانتفاضة الزرائق وتداخل العلاقات اليمنية الإيطالية والانجليزية اليمنية . لقد وصف هذا الديليزكي انطباعاته عن اليمن وحكى عن لقاءاته بالمسؤولين اليمنيين ومشاهداته لأحوال الناس وتوقعاته للأوضاع آنذاك منها تلك التي ثبت صحتها ومنها التي لم تثبت . ورغم أن المؤلف قد أشاد بالامام يحيى لكنه قد تطرق إلى العزلة التي فرضها على الجزء المستقل من اليمن وتمركز السلطات كلها بيد الامام نفسه .

لقد كتب المؤلف كتابه هذا وأصدره في وقت كان فيه كثير من اليمنيين والعرب والأجانب يعتقدون الآمال على أن يقوم الامام يحيى بالإصلاح في المجالات المختلفة. غير أن الامام يحيى قد خيب آمال الجميع في ذلك لقد كتب هذه المؤلف في وقت لم تكن فيه قد تكونت حركة المعارضة

(١) والاتفاقية التي وقعت بين اليمن والاتحاد السوفيتي في أول نوفمبر ١٩٢٨ .. اعترف الاتحاد السوفيتي بموجبها باستقلال اليمن .. والتزم الطرفان الساميان بتبادل البضائع التجارية . وعلى أساس هذه الاتفاقية فتحت معثتان تجاريتان للاتحاد السوفيتي في صنعاء والحديدة

وكانت هذه الاتفاقية أول إتفاقية تعقدها حكومة الاتحاد السوفيتي مع دولة عربية ، وإن كان قد سبق أن كان للاتحاد السوفيتي قنصلية في جدة منذ عام ١٩٢٤ غير أن تلك القنصلية قد قامت على أساس تبادل المذكرات ذات الاعتراف المتبادل بين حكومتى الاتحاد السوفيتي ونجد والحجاز دون التوقيع على إقامة علاقات دبلوماسية بينهما

المحتويات

- الباب الأول : - هرج ما قبل الرحيل - أوديسا - اسطنبول في المنظار . ٩
- الباب الثاني : - على أمواج بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط - رجال التفتيش - بور سعيد . ١٩
- الباب الثالث : - الاختناق في البحر الأحمر - الشعب - الحيطان - البوابة إلى مكة - المضاربة بالحج - وهابيو نجد في التصال ضد الامبريالية . ٢٩
- الباب الرابع : - من « نيته » إلى « توبولسك » أول سنوات اليمن - على رصيف الحديدية - ها هي اليمن . ٣٩
- الباب الخامس : يجع على حاجز الأمواج - الزخرفة العربية والجمارك - سيف الإسلام والبلاشسفة الرافسون - الجاسوس المفضوح - رحلة سعيدة « توبولسك » . ٤٩
- الباب السادس : - في الأزقة الخائقة بالحديدية - السوق - الهنود - السفن القديمة - الصناعة - رأس المال الأجنبي . ٥٩
- الباب السابع : ليلة ضائعة في تهامة - على سيارة إلى باجل - القنران الطائرة - الرهينة - جيكوب . ٦٩
- الباب الثامن : - نحو الاقطاعية - بقايا الأحباش - قوقاز في « العربية » - البغال والخيول . ٨٣
- الباب التاسع : - جبال شبه جزيرة العرب - البن - المدرجات - الحصون - المشايخ الاقطاعيون - مناخة - القات - الجواسيس . ٩٥
- الباب العاشر : - من مضيق إلى مضيق - محقق التركي الشاكي و« شخص » في الحديدية - الجراد والاعلام الحمراء - المنجم - نتائج الرحلة . ١٠٩
- الباب الحادي عشر : - « الامام مستاء » - في عهد الأتراك أم الآن ؟ - الطبقات ١٢١

المعارضة اليمنية لنظام حكم الامام يحيى من جهة . كما أن الكاتب قد وضع تحت تأثير المفهوم القائل بأن إستقلال شعوب الشرق أحد مقومات انهيار النظام الرأسمالى العالمى من جهة ثانية . الأمر الذى جعله يشيد بالإمام يحيى أحياناً بصفتة قائد الاستقلال .

وعلاوة على ما تقدم فإن الكتاب موجه إلى القارئ السوفىيىتى فى تلك الفترة من الزمن بما يوافق الوجه السائد فى الكتابة انذاك . وكان شأن هذا الكتاب شأن الكتب التى يؤلفها كتابها لقرائهم فى بلدانهم بالدرجة الأولى وهى الأغلبية الساحقة من المؤلفات التى يكتبها الرحالة والديپلوماسيون والمستشرقون عن البلدان الأجنبية .

ومن هذا المنطلق كتب هذا الكتاب للقارئ السوفىيىتى فى بداية الثلاثينات حتى هذا القرن بما يوافق توجه الكاتب السياسى والاتجاه الأيدلوجى لكاتبه . الأمر الذى جعله يسترسل فى الحديث بروح رومانسية وأحلام مفرطة أحياناً . زد على ذلك أن المؤلف عاش لفترة قصيرة فى اليمن وسط ضيق من المسؤولين الحكوميين كما أستسق معلوماته من مشاهدته فى رحلته من الحديدة إلى صنعاء والعكس . وحتى مترجميه الذين رافقوه فى مهمته الديپلوماسية . لذا فإنه قد كان يجانبه الصواب فى تقييمه لبعض الأحداث لم نشأ أن نعلق عليها ليسر معرفتها من قبل القارئ الفطن . وكان جهل الكثير من الرحالة والديپلوماسيين الأجانب بما فيهم مؤلف هذا الكتاب بجوهر الدين الإسلامى الحنيف قد جعله يخلط بين بعض الممارسات التى لا تنتمى إلى الدين فى اليمن وبين الدين الإسلامى نفسه . لقد كان هذا الخلط تقليد دأب عليه قصيرو النظر آنذاك . أثبتت الحياة خطر هذه الأفكار وسلطحتها .

بيد أن بعض النواقص الموجودة فى الكتاب لا تقلل من أهمية واستفادة الباحثين المتخصصين بالتاريخ اليمنى المعاصر منه وتحليل ما أورده من آراء وأنطباعات عن الأحداث وشخصيات ذلك الزمن .

لقد ترجمنا هذا الكتاب بعد أكثر من نصف قرن من صدوره باللغة الروسية . وفى وقت كانت اليمن مجزأة إلى جمهوريتين . واليوم وبعد أن تحققت الوحدة اليمنية أغلغى أحلام الشعب اليمنى فإننا نأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة إلى الكتب المترجمة عن اليمن خاصة وشبه جزيرة العرب عامة .

وفى الأخير لايد من الإشارة إلى أننا ترجمنا هذا الكتاب بتصريف وحذفنا منه فقرتين من صفحاتى ٢٠ ، ٢١ وعدلنا بعض الجمل لئلا يكون ذلك على حساب جوهر معانيها فى صفحات أخرى . لأنها فى نظرنا لا تليق بالنشر باللغة العربية .

والله ولي التوفيق .. قائد محمد طريوش .. ٢٩ / ٤ / ١٩٩٢ ..

- الاجتماعية فى اليمن - وادى صنعاء والخيمة البيضاء بصنعاء -
النسور فى القانورات .
- الباب الثانى عشر : الانطباعات الأولى عن صنعاء - شقشقة الآبار - « ابن
الامام » - القاضى راغب - الدعاية الإيطالية - بانتظار
الغارات الانكليزية - الاستقبال الرسمى للإمام ،
- الباب الثالث عشر : - جهاز الدولة اليمنى - القضاة ، المشائخ ، الديوان -
الأجهزة الإدارية والإرشادية : - الامام - الوزير الأول -
سيوف الاسلام - الزرائق المتمردة - محتفوا اليمن .
- الباب الرابع عشر : - فى أيام الغارات الانكليزية - العملاء - اضرب وأهرب -
ثلاث صيغ .
- الباب الخامس عشر : - محاولة فاشلة للاستفزاز الدبلوماسى - الإمام يستغيث
- النور والرشاوات - انهيار الحسابات الانكليزية
والصفعة الأمريكية .
- الباب السادس عشر : الأيام الأخيرة بصنعاء - أحجار على الطحلب ونساء
حجرية - اليهود - رحلة خطيرة .
- الباب السابع عشر : سمفونية العاصمة « الأبدية » - وتأثر العوالم الأخرى -
طريق العودة - وحي صحيفة الحائط - رائحة الوطن « فى
اسطنبول - الفئار الأوديسى .

الباب الأول

* إلى اليمن *

* هرج ما قبل الرحيل *

* اوديسا *

* اسطنبول من المنظار *

إلى اليمن

العاصفة تهب ، كلنا مأخوذين بسورتها ، تقذف بنا ، الى اينما شاء البصر . تعودنا على هذا ، وعجيب حين يخرج المرء من هذه الموجة محافظا على تماسكه النفسى بغير ادراك ، ان يقع فى بيئة غريبة ، وبعيدا من حيث طبيعة المسافة ، وان يجلس فى آلة الزمن ، فى قطار ، باخرة ، زورق شراعى ، او يركب بغلا ، سيارة او طائرة ، ويتعد آلاف الكيلومترات الى الامام ، ويرجع مئات القرون الى الخلف ، وينظر الى كل ما عاشه وتعود عليه وكأنه ينظر من خلال منظار زجاجى فى الميدان .

لقد حدث كل شيء من غير توقع وبسرعة ، وكانت أمسية ما فى النادي . اجتماع ، وأحاديث فى العنبر ، ويقال لك فجأة : " أنت ذاهب الى اليمن " ، ويكون الايضاح قصيرا ، وكل ما تعرفه ان ذلك سيتم قريبا ، يومان للاستعداد ، ويومان لرحلة ما قبل الرحيل ... وتبتعد كل الأمور الخاصة وغير الخاصة ، حيث لا ينبغى التفكير فيها .

كان محدثى الاول ، الذى اخبرته عن مجرى الامور مرتابا . " اليمن ، أى معنى يمتلك ذلك " قال مدمما . انا اعرف - انه ليس وحده مرتابا فقط ، وانما هناك آخرون كثيرون . " اليمن - قبائل متوحشة ... ربما مستعمرة لأحد ما ، يقول آخرون . المرتابون كثيرون أعرف أنهم كثيرون ، أعرف أنه ليس فى قضية اليمن فقط ، بل وحتى فى القضايا الإسلامية والحاسمة فى حياة وطننا وخط حزبنا ، وحين رحلت الى اليمن لم يكن مفهوم اليمن الانتهازى واضحا كما هو الآن ، لكن هذه الانتهازية قد بدأت تعبر عن نفسها فى قضية وحيدة حتى فى قضية الرحلة الى اليمن .

- اليمن ... أى معنى يمتلك ذلك ... اخرج الى الشارع . لبست موسكو قبل عيد اول مايو حلة بهيجة من الأضواء الكهربائية . وبدأت أشعر كيف تبتعد قليلا قليلا ، وفى البعد ترسم أشكال مجهولة وغامضة عن بلدان جديدة .

تلف الحشود بالاعلام واللافقات ، والصفوف المنتظمة فى الأزقة ، تنورنى مكانها لكى تجد نفسها بعد بضع ساعات هن التجول فى نقطة الانطلاق كى تندمج فى صفوف جديدة وتقترب مع الجانب الآخر .

أتحدث مع رفيق يعرف التيبب ، ماذا هناك ؟

.. بلد جبلى ، وحشة وقسوة . بقايا نظام الأقامة ، والرهبان هم الطبقة السائدة ، ومالكو الأراضي ، والتجار والمحاربون فى نفس الوقت ، والانجليز عندهم الخارجى الآن .

أخمن ، يعنى ، مرحلة ما فى غياهب العصور الوسطى . بلد تجمد فى المرحلة الاقطاعية ، محروم من أي امكانية للتطور بحكم سوء أوضاعها الداخلية والضغط الخارجى .

وهناك فى اليمن ! يبدو كأنه يشبه ذلك ! الملك هو الامام البابا الإسلامى بالمقياس المحلى - اضطهد الترك اليمن سابقاً (واضطهد الصينيون التيبتي) والآن الضغط الانجليزى - والحقيقة إنه لا يوجد فى البلدان المسلمة لا رهبان ولا كنائس ، إنما النضال ضد الامبريالية معثلة ببريطانيا هنا (فى التيبتي) وهناك فى اليمن - نضال أيضاً . كما سنرى .

لماذا يبدو وجهها موسلينى وتشميران عابسين ، وقد ملأت فزاعتها الضخمة ؟ . ولماذا يبعث على الغثيان سماع الأحاديث التى تبتث من الراديو ومن سيارات النقل الدماعية المارة ؟ .

هل لأن الكلمات ليست كافية ، ولما لا يصنع صباغ اللوحات ، التى يمكن أن تعكس عظمة عصرنا ولو بغير ضئيل ، عظمة تلك الظاهرة التى يعبر عنها بكلمة واحدة « الثورة » .

الا أنه ، حين تكون موجودا هنا فى داخلها وتشكل جزءاً لا يتجزأ منها لن تشعر ولن تفهم هذه العظمة بكل كمالها ، وعندما تكون طائراً فى منطاد غالباً ما تشعر بالغثيان ، أو ترى غبار الحجرة ، تنسى أثناء الطيران أحياناً أننا نحن والمنطاد فى الفضاء الواسع النقى ونطير فى الفضاء المزوق بثبات . ومن المفيد أحياناً أن تبتعد مؤقتاً ، وتنتظر لما حولك من بعيد لكى تشعر بالقوة كلها وتحيط بشمولية ، وجبروت وعظمة وطنك وحكمك .

... نمر فى الساحة الحمراء ... يبتث مكبر الصوت التحية من المنصة .

اتحدث مع الرفيق المسؤول عن سفرى ، مستوضحاً بعض الإجراءات العملية التى يجب إجرائها قبل السفر ، أين أنهب ، ومع من أتحدث ، وما هى القضايا الأكثر أهمية التى يجب استيضاحها وفجأة ومن غير توقع يضيف محشئ بسخرية

.. على كل جميع هذه الأشياء التافهة ، الشيء الرئيسى ، أن تراحم وتراحم وتراحم (كان يقصد إجراء آلاف الشكليات البيروقراطية الصغيرة المتعلقة بالسفر) - هذا أصعب شئ ، لأنه بدون ذلك سيكون الرحيل مستحيلاً ، مهما كانت أهمية هذه الرحلة .

وقد زاحمت . وخلال يومين أو ثلاثة أيام مررت على كل ما يخطر على البال من أقسام وفروع الأقسام ومكاتب وإدارات ... الخ ... الخ . وفى اليوم الأخير فقط وعلى عجل ، وبغير

انتظام تبادلنا الآراء مع البعض حول بعض الأشياء - هذا ليس مهماً ، وهل يستحق الآن أن يتذكر المرء صفات العيوب النواقص هذه بعد مرور بعض السنوات ، سأقول فقط ، انى لم أتمكن من بحث كثير من القضايا الهامة ، كان كل ذلك محجوب بركام من المشاغل الأكثر أهمية ، التأشيرة ، التذكرة ، الجواز ، التقارير ، الأوراق - ويحرج بكامله من القضايا التي يفرق بها ، والشئ المهم الذي كان لابد من البدء به .

لكن « الأمور الجيدة ، تكون نهايتها جيدة » كما يقول المثل ، وإن لم يكن صائباً كلياً ، ولا يخل به بعض التعديل وإعادة النظر .

هريج ما قبل الرحيل

يوم الرحيل : يكون نصيب الأسد من الأعمال في هذا اليوم ، دائماً ، ننهي آخر الأعمال حتى قبل الركوب ، تمر على آخر مؤسسة فنصل إلى المحطة قبل خمس دقائق من تحرك القطار .

أوديسا الأم ... تستقبل بالمفاجآت دائماً ، وما أن وصل قطارنا إليها ، حتى أشعرنا بأن باخرتنا لم يبدأ يشحنها بعد وإنها ستتحرك بعد بضعة أيام فقط ، ولهذا نستطيع الراحة والتمتع بمناظر أوديسا .

لكن لا رغبة في التمتع ، تجول الأفكار بعيداً ، تبدو أوديسا محطة مؤقتة ليس إلا ، اضطررنا ببدء التوقف فيها من غير توقع ، وهنا كانت بداية تعرفنا على شبه جزيرة العرب ، على كل حال . وكان أول من قابلنا بهرج من سكان أوديسا هم أبناؤها قالوا لا شئ في ذهابنا إلى شبه جزيرة العرب ، لأن أوديسا مليئة بالعرب ، زد على ذلك ، يجب التفكير بوجود مضاربين ومهرب واحد مقابل كل أوديسي ، وعندما مررنا على وكيل المجلس الشعبي للشئون الخارجية ، اتضح إنه قد غادر إلى المدينة المنورة « لا أقل ولا أكثر .

هكذا كان الرد على سؤالنا المستغرب ، متى وطى أية باخرة سافر إلى « المدينة المنورة » (*) ، نعلم إنه غادر قبل نصف ساعة على الترامواي ، لأن المقصود « بالمدينة المنورة » (*) معهد الطب لا أكثر حيث يعمل فيه هذا الوكيل بجهد كبير ، ولكي تكتمل معلوماتنا عن شبه جزيرة العرب ، تعرفنا على قلعة ضخمة ذات طابع عربي في ضواحي المدينة أيضاً ، لقد حبست المئات من النساء اللواتي إختطفن بالقوة في هذه القلعة ثم تم بيعهن إلى تركيا

(*) لقد تلاعب المؤلف بالفاظ هنا حيث يقصد « بالمدينة المنورة » اختصار الكلمات المكونة لمعهد الطب .

السلطانية في الظلام ، لقد كن مادة نخل من الدرجة الثانية للتصدير الرأسمالي ، ومن القلعة تتراعى الاعلانات الصارخة ببشيتريست المدرجة في مقاطع اعلانات المسرحيات الكلاسيكية المعروضة ، يظهر أحد الصحفيين ذى الخصائص الأمريكية الحقة ، أثناء مناورات الجيش الأحمر وقد تسلسل إلى مقر القيادة العامة باحتيال غير مبال بالصعاب ، فارسل البرقيات إلى جريدته متفوقاً على زملاء مهنته في العاصمة ، لا تضطرنى الآن كل معالم ومشاهد أوديسا ، كما لا أضمن إطلاقاً صحة ما ذكرته أعلاه ، وربما كان ذلك في جزء كبير منه ثمرة ابداع الخيال الأوديسى .

وأخيراً ، تصبح الباخرة معدة للشحن ، ويوم التحرك محدد ، لكنه يتضح فجأة عشية ذلك اليوم أن (هذه حادثة عجيبة الوجود في واقعنا) ، يفترض أن تتحرك الباخرة بدون تأخر وحتى قبل الموعد المحدد بيوم وإيلة ، ثم تبدأ جلبة وحشية ، مهاترات وقذف شتائم ، وصراخ ، وبرقيات التهديد الخ... الخ . حتى وصل الأمر إلى الاستفائة بهيئات المركز ، ترفض الإدارة شحن البضائع الموجودة على الرصيف ، بشجاعة تستحق الاعجاب ، وبعد سلسلة من المهاترات ، ومن الرفض والأوامر وكومة من البرقيات فقط كان ممكن لوكلاء الأسطول التجارى السوفياتى أن ينهوا عملية الشحن كيفما اتفق بعد أن بحت أصواتهم وانهدت قواهم ، وقد احتلمت البضائع ببعضها البعض ، حتى إنه لم يتسنى شحن أكثر من خمسة وسبعين بالمائة من البضائع المعدة للشحن ، لماذا كل هذه الجلبة ؟ وصلت برقية من القسطنطينية في اليوم الأخير تطلب سرعة الوصول بحزم ، وذلك لأن ما يقارب ستمائة من الحجاج ينتظرون باخترنا هناك ، وفي حالة تأخرها سيستقلون بواخر أجنبية .

وبالطبع ، تنظف الباخرة حتى مطلع الفجر ، وتوقع الأوراق الأخيرة على عجل ، وأخيراً يرفع السلم ، تسكب الشمس أشعتها على ميناء أوديسا ، وتتحرك الباخرة ببطء وينصرف الجميع إلى حجرهم منهكى القوة ، ولا يختفى ذلك النورس الطائر وراء السفينة لمدة طويلة عن الخلفية الزرقاء لكرة الغرفة .

وهكذا ، نبحر فاتحين بلداً جديداً - اليمن للتجارة السوفياتية - حيث لم تمر ولا سفينة واحدة ، وحيث لم تطل أرضها قدم سوفياتية قط ، بل ولا قدم من روسيا القديمة (*) . لم تكن

(*) يظهر أن المؤلف لم يكن على علم برحلة سكالوفسكى في أعوام (١٨٦٩ - ١٨٧٢) وأبحاره في البحر الأحمر وزيارته لموانئه وجزيرة يريم وعين ورحالة روس آخرون في القرن التاسع عشر . (مزيد من الاطلاع راجع جيلوغرافيا اليمن في الاستشراق السوفياتى - د. قائد محمد طربوش - مطبعة دار السلام - دمشق - ١٩٨٥) .

حمولتنا كبيرة وبعد أبعاد ما لم يتسنى شحنه من البضائع ، تكوّنت حمولة الباخرة من سبعين طناً من الدقيق ، ستين طناً من السكر ، أربعة وخمسين صندوقاً من الصابون ، كبريت ، مواعين وأوانى ، وأشياء صغيرة أخرى ، كانت الحمولة الأساسية متجهة إلى الموانئ الجنوبية في فارس ، إلى جدة - الميناء الرئيسى للحجاز - نقلت الباخرة ما يقارب مائة حاج ، هم في الأساس من الإيرانيين المارين ترانزيت ، وثمانية من قنّار استراخان .

واسم الباخرة « تيوبور نيتفا » (وقد سميت باسم المراسل الديپلوماسى الذى استشهد فى لاتفيا) وقد كان اسمها سابقاً « تغير » ، لقد كانت الباخرة تقوم برحلات بين كامشاتكا وفلادى فاستوك . كانت الباخرة معدة للرحلات القطبية ، لهذا كانت التدفئة البخارية تعمل ألياً بدون توقف ، مدفئة بذلك جميع زوايا الباخرة بغض النظر عن درجة الحرارة خارجها ، ولا توجد فيها لا مراوح ولا حمامات مياه عذبة ، لقد كانت الباخرة على استعداد قطبى كامل ، وكانها ذاهبة لاكتشاف منطقة القطب المتجمد الشمالى ، فى حين أن الباخرة قد توجهت فى رحلة استوائية عبر البحر الأحمر والخليج الفارسى ، إلى أكثر المناطق حرارة ، وفى أكثر أوقات السنة قيظاً .

وعلى كل ، لم نشعر بالحر فى البحر الأسود ، إذ مازال الجو بارداً ، وقد كان مرأ الاضطجاع فى الحجرات المدفأة من الموقد دائماً ، ولا توجد ضرورة للحمام البارد أو المياه المعدنية ، وكنا ما نزال نأخذ راحتنا من ضجيج ما قبل السفر .

اما أولئك الحجاج ، فقد كانوا ممثلين بروح الإيمان القوى ، يصلون خمس مرات فى اليوم ، كانوا يقفون على السجاجيد يولون وجوههم نحو الجنوب ، صوب مكة ، يعدون أغذيتهم على قنور الفحم ، وكانصاف عميان يتسكعون على الباخرة ، وكان الكثيرون منهم يخرجون من محيط قراهم لأول مرة ، ولأول مرة يرون البحر .

ليلاً ، نصل إلى البوسفور ، تبدو باخرتنا كأنها مرسى بحكم وجود الحجاج على ظهرها ، والنزول إلى الشاطئ محرم على الجميع ، وليس للباخرة هناك من أعمال فى اسطنبول ، وكان من الممكن المضى قدما بدون تأخر ، لكنه من المفترض أن يكون هناك ستمائة من الحجاج الذين ذكرتهم البرقبة ، توقفنا فى بيوك ديريه وهو موقع حجر صمى فى مدخل البوسفور .

تضج سلسلة المرساة - ويصل الطبيب التركى إلى الميناء ، وإن كان ليس بمقدوره أن يقول شيئاً عما إذا كان هناك ركاب للباخرة - وكان من الواضح أن باخرتنا تبهث بعض الحيرة وعدم الفهم .

وقفنا حتى الصباح ، نسمع عبر المتاع الأنغام التركية ، التي حلت محل إذاعة موسكو الخافتة ، هذه الإذاعة تنبئنا بأننا ابتعدنا عن الوطن ، وبأننا خلفنا ورائنا الاعلام ، اللافئات ، المشعارات ، الأحاديث عن الاشتراكية لمئات الكيلو مترات ، وخلفنا المصانع التي تبني والصراعات التي تزحف في عموم الوطن ، لا نتحدث إذاعة اسطنبول عن الاشتراكية والثورة العالمية ، إنما نتحدث بالأنغام الحلقية ، بالأنغام الشعبية ، التي تختلط بأصوات موسيقى الفوكستر (*) ، تذكرنا بأن الامبراطورية العثمانية القديمة ، المجدة لله ، والمأمنة للفرح ، لم يعد لها وجود ، ان أصوات الأنغام الشعبية في اسطنبول تنبئ بأن حياة القرون الوسطى ، وتسلط الفقهاء ، والظلم باسم الدين ، صار من حكم الماضي وتقرض مع كل يوم .

أوديسا

ظهر ممثل الأسطول التجارى السوفياتى على ظهر الباخرة ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، مما يعنى عدم وجود حجاج هناك ، ولهذا فعلياً أن نبحر قدماً ، لقد سافر آخر الحجاج قبل ثلاثة أيام ، أى قبل ذلك الاستعجال والاضطراب بلا سبب في أوديسا .

لماذا إذن كل تلك العجلة والاضطراب ، ولماذا خلط البضائع وعدم شحن كل الحمولة ، ولماذا المهاترات والاتصالات و . . الخ - الخ . ولماذا بقينا هنا طول الليل ولم نمضى قدماً ، لم يلتزم أحد بالجواب على كل هذه الأسئلة في الباخرة ، اسمع فقط الرد العابس لأحد البحارة ، الذى كان يقرأ الجريدة الجديدة المثبوتة عبر الراديو ، ويعلن عن بداية عملية المنجم .

لا يزالون يتحدثون - المنجم . . .

نبدأ في التحرك ، يدفعنا تيار اليوسفور إلى الامام بقوة ، رغم هدوئه وزرقته الظاهرة ، نرى الروابي الخضراء ، هذه هي اسطنبول ، السور القديم ، المنارات ، أشجار السرو والمنسازل ، نرى ستائر النوافذ المفتوحة ، ومنها تطل وجوه النساء السمويات ، التي لا يغطيها الحجاب أو الخمائر الشراشف ، ترى على الساحل أشباح نساء في ثياب أوروبية ، ترى في المرفأ أصحاب القوارب بقبعاتهم بدلا من الطربوش التقليدى الأصمر ، نميز الكتابة باللاتينية على الياقطات ، ولا نجد أثرا للكتابة العربية المزخرفة والمنمقة .

(*) - الفوكستر : رقصة أمريكية ثنائية ظهرت في العشرينات وكانت مشهورة آنذاك

لكن ليس هناك وقت للامعان في النظر ، ومثل مصاب بالطاعون تمر باخرتنا تحت علم الحجر الصحي الأصفر مسرعة بقرب القرن الذهبي المتعرج ، وبسرعة نلمح الرصيف النصف الفارغ ، قصر السلطان وحديقته ، يذكرنا بأخر خليفة منقى ، ذلك السلطان الذى ظل فى منصبه عام الا اسبوع واحد ، وهو الآن يتسكع فى أحد مصاييف أوروبا ، تنتصب القباب الخرقاء لكنيسة « أيا صوفيا » المشوهة ، وترتفع مآذن مسجد سليمان بحدة إلى أعلى .

نحن نعرف أنه لا تنور فى أماكنها أفواج المعاقين واليائسين والحجاج قرب هذه المساجد كسالف الزمان ، أولئك الحجاج ، الذين يقومون بالتطهر تحت حنقيات المياه ، نحن نعرف أنه حتى أيام الأعياد تجتمع بالكاد تحت الأقبية المظلمة بضع عشرات قليلة من العجزة والهرمين أو بعض السياح الفارغين والمتعطلين ، الذين يتطلعون إلى حلقة مثبته فى عامود ، يزعم بأن حصان السلطان الذى فتح العاصمة البيزنطية المتفسخة فى عام ١٤٦٢ م قد كان مربوطاً بها ، تتفرج على المساجد الباهرة الألوان وندرك بوضوح بأنها مع قصور المرمر ليست سوى شظايا وبقايا السفينة العثمانية التى حطمتها عاصفة الثورة ، نحن ندرك بأن العاصفة لم تنتهى ، وقد هب أعصارها الأول ليس إلا ، هذا الأعصار الذى حطم أسس الاقطاعية والنظام الاستعماري فى آسيا الصغرى ، مخلياً بذلك المكان لقيام دولة قومية (لم تزل برجوازية بعد) مستقلة ، نحن ندرك بأن الأعصار التالى لن يكون خلف الجبال ، وما الثورة القومية السابقة سوى فاتحة انتصار عمالى مظفر ، ونعلم أيضاً أن الأعصار الهادر الأول قد كان صدى لأيام أكتوبر ، والتى بدونها كانت الامبريالية الروسية قد داستها بأعقابها . ولربما كان صليب الطمع منتصباً الآن على كنيسة « أياصوفيا » . ولهذا عندما تلقى نظرة خاطفة على تقاسيم ومعالم شواطئ تركيا الجديدة ، تتمثل لك بكل قوة ووضوح ، كيف أنه وأنت بعيد جسدياً عن أعماق قوهمة البركان الثورى ، تشعر وأنت على بعد أكثر من خمسمائة كيلو متر من شواطئ الوطن . ترى بصيص ولعان وهج ثورة أكتوبر ، التى اشعلها عمال بتروجراد (لينين جراد حالياً) وموسكو هذه الشعلة التى لم تبلغ ذروتها بعد ، وإن كانت قد أدركت أن تشتعل النار فى ركاب مخلفات الماضى ، مجددة للشرق محيطة ومفككة دعائم وأركان القنرة الامبريالية المهترئة ...

استنبول من المنظار

لكن لا وقت للتفكير ، أبحرت باخرتنا بعيداً وصارت فى الخلف قباب كنيسة « أيا صوفيا » وآخر ضواحي استنبول المترامية الأطراف يدى كولى « ، « سان شيفانو » ، أبحرت باخرتنا

على السطح الرخامى للبحر المنقوش قليلاً ، وبدأت تهب أشباح « جزر برنتس » على اليسار - مصيف برجوازية اسطنبول ، وهو المكان حطم الرئيس واسن أن يعقد فيه صلح وهدنة بين البلاشفة والدينيكين (*). وتحت غطاء هذا الصلح الخيالى يتم إعطاء فرصة للبيض بتجميع قواهم وجعل جنوب روسيا القديمة مستعمرة للأعبريالية ، ولتذهب أشباح تاريخ الماضى إلى الشيطان ، هيا إلى الامام .

يقترّب اليوم من نهايته . . .

للمرة الأولى نراقب غروب الشمس فى البحر ، ويبد مدخل الدردنيل بعيداً ، نظيفاً ، مكتملاً بقرص الشمس ، الذى يتحول تدريجياً إلى شكل معين ينقلطح وكأنه تحت ضربات مطرقة خفية ، ويصير هذا المعين دقيقاً ويأخذ شكل قطعة مستطيلة ، مقلمة وحارة ، هناك يخترقه سلك صارية سوداء ، لباخرة حراسة بعيدة تتمايل على الأمواج ، ها هي قد صارت اسطوانة صغيرة متوهجة ، نقطة صغيرة من نار ، تغيب من السطح الأحمر المتلاشى فى البحر المتوهج .

نعبر الدردنيل فى الظلام ، ثم نستيقظ فى الصباح قرب جزر نيتيوس ، وفى الخليج الصغير تنتصب صوارى باخرة غارقة تحت الماء ، هي واحدة من شواهد الحرب ، المبعثرة فى كل البحار ، مثل هياكل الحيوانات الهالكة فى البرارى .

* * *

(*) الدينيكون : هم أحد القوي المناورة للثورة الروسية .

الباب الثاني

- * على اصواج بحر ايجه
- * والبحر الابيض المتوسط
- * رجال التختيش
- * بور سعيد

على أمواج بحر إيجه

يتغير الطقس ، والصيف يسرع ملاقياً ، مازلنا ننام في الحجرات ، وإذا كانت النوافذ مفتوحة دائماً ، يصير التفكير مفرغاً بما سيكون بعد يومين أو ثلاثة أيام ، ونتعود على حياة الجماعة المبحرة قليلاً قليلاً .

وحتى هنا لا مهرب من الشكوى من سوء الإدارة التسيير ، الأخطاء ، وعدم الاهتمام ، روح الاستهتار ، والمخالفات ، يشكو البحارة من تعقيد وتشوش عقد العمل الجماعى ، اللىء بالتلاعب والحيل التثمودية ، وعلى العكس من ذلك تشكو هيئة القيادة وتتذمر من عدم تخويلها السلطة ، من التعسف والجور الناتج من خلط الصلاحيات والاختصاصات للأقسام المختلفة « للمثث » . لكن الجميع يسب بصوت واحد مكتب أوديسا للأسطول التجارى السوفياتى بسبب البيروقراطية ، سوء الإدارة ، التشوش فى العمل ، والجهل بمعرفة العمل البحرى ، وما كان علينا إلا أن نشعر وأو بجزء من هذه الحقيقة ، وذلك لأننا قد أدركنا أن نجرب بأنفسنا مدى ثقل ويليلة وخلل أوديسا ، وبالكاد لم تفشل رحلتنا .

لكن أفكارنا كانت تسبح بعيداً ، نغمض أعيننا غريزيا ، نحاول أن لا نشغل بالنا ، بالثمالة المذكورة باليليلة الإدارية ، الأفكار بعيدة - هناك ، القضية فى اليمن ، حيث تعود مركبنا السوفياتى أمواج البحار والثورة لأول مرة - نeced نطالع قواعد اللغة العربية ، ونقرأ الكتب الأجنبية عن شبه جزيرة العرب ، ونشعر مسبقاً بذلك الارتياح المرتبط بذلك التصور الخالى ، الذى كونه عن طريق الكتب والأحاديث ، ونقارنه بذلك التصور المحدد والملموس عن ذلك البلد الذى ستأتى رؤيته .

تنزلق الباخرة بمحاذاة الجزر المخضرة فى بحر إيجه ، تلك الجزر التى كانت مراكز ثقافة قديمة من سالف الزمان ، وهذه الجزر الآن نصف منسية ، تخاطفتها مختلف القوى الكبيرة والصغيرة أجزاء ، وأقساماً ، نشاهد تضاريس الجزر الخضراء ميثينا ، هيويس ، رودس ، ومجموعة أخرى كانت مشهورة فى القدم ، تلك الجزر التى لا يعرف أسماؤها الآن حتى قبطان الباخرة ، وتقرأ أسماؤها بصعوبة على الخرائط البحرية القديمة .

لم يمض أسبوع بعد على أبحارنا ، الغذاء جيد (احتياطى أوديسا) والمياه العذبة متوفرة ، ولا يشعر المرء بقيظ الشمس إلا بجانب الموقد ، ينام الحجاج بهدوء فى عتبر

السفينة ، على أرضيات خشبية معدة خاصة لهذا الغرض ، وفي الصباح فقط يزحفون إلى الخارج ، وفي الفجر تحدث مشاهد مرعبة ، في أعماق العنبر عشرات الإيرانيين الوقورين ذوي اللحى القصية ، والعمائم البيضاء على رؤوسهم يستمعون إلى الامام بعيون مفرورقة ، يروي الامام بصوت متهدج باكي للمستمعين توار يخ معروفه حتى في أدق تفاصيلها عن تاريخ ومعاناة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وحول حياة صهر الرسول بشكل خاص ، ورغم أن الراوي قد كثر وأعاد تكرار هذا التاريخ مئات المرات ، ينصت إليه المستمعون مئات المرات ، ومع ذلك يرون أنه لزاماً عليهم ، البكاء والتشيع بصوت مرتفع ، أو يخرجون مناديلهم ويضعونها على عيونهم مصدرين أنات عميقة على الأقل .

والبحر الأبيض المتوسط

نخرج إلى البحر الأبيض المتوسط ، نترك في المراء خال رودس ، آخر جزر الأرخيل في هذا الطريق تحس نسمات سواحل أفريقيا ، يرتفع زئبق ميزان الحرارة إلى أعلى ، وقد بسط قماش، شراع السفينة الواسع فوق برج القبطان وفوق سطح السفينة ، يصف البحارة القدامى قيظ وحر البحر الأحمر .

نشعر بالملل في عرض البحر ، وبرامج الراديو الغنائية توقفت - تقريغ - يوضح عامل الراديو - ولنتأكد من صحة ما يقوله ، ويكفينا قناعة ، من أن البرقيات الموجهة إلى الاتحاد السوفياتي تصل بنفس التعريف الداخلية - سبعة كويكات على الكلمة الواحدة - (وهذا سعر رخيص مقارنة بمرتببات الخارج) .

تسير الأمور في مجاريها ، كل صباح - مثل موكب أسطوري - كأنه تبتون ، يظهر رئيس النووية نصف العارى ، والغليون بين شفثيه ، وطرف الخرطوم الضخم الذي ينف البخارة كلها بين يديه ، يتبعه خمسة أو ستة من مساعديه ، بمكانسهم يكتسبون الماء السائل على سطح السفينة ، يوجه رئيس النووية تيار الماء القوى في كل الاتجاهات ، وجهة رصينا باستمرار ، ويصير جامداً في تلك اللحظة ، التي يكون فيها سيل الماء ، وكانما صدفه ، قد غطى المسافر المذهول من رأسه حتى اخمص قدميه .

أجراس البخارة تقرر ، يتبدل المناويون ، يحاول القبطان ومعاونوه تحديد اتجاه الشمس بواسطة الآلة السدسية وينقبون في التقاويم والجداول ، محاولين تحديد وقوع البخارة ، يركض البحار المناوب بانتظام بين مؤخرة السفينة وبرج القبطان مخبراكم من الأميال سجل عداد سرعة السفينة ، يتعش مجلس السفينة والخلية الحزبية ، تبدأ الاجتماعات ، التقارير ،

الجلسات مع الإدارة ، تهتاج الجماعة بشكل جماعي أو كل حدة ، ساخطة على تشوش الانفاق الجماعي ، يتناقش البحارة حول ظروف الأبحار ، ويظلمون بالمشترقات من بورسعيد ، والحجاج قلقون ، هل سيصلون إلى جدة في ٢٤ مايو ، آخر فترة ، حتى لا يتأخرون عن بداية الحج في مكة ، تخفق الأبقار والدجاج تحت سكين الطباخ ، ويصبح أكثر بخلا وحسباناً ، متقصا جزاية الغذاء ، يصير النهار أقصر والليل أطول والشمس أكثر علواً وحرارة وتصير أنسام أفريقيا أقوى .

وبعد خمسة أيام في الطريق من اسطنبول ، ها هو يرتسم بعد الظهر من بعد خط الأرض الأكبر الخالي من الجمال ، تبدو العومات الحمراء المتمايلة على الأمواج والتي ترمز إلى مدخل قناة السويس ، يخالو الساحل الأفريقي من التأثير ، ففي حين أن سواحل آسيا الصغرى تبدو العين قبل أكثر من عشر ساعات من رمى السفينة مراسيها ، فإن سواحل شمال أفريقيا لا تبدو قبل بضع ساعات من المرفأ .

ومع هذا ، حين ترى الخط الأول المبهم ، تتوارد تصورات الصياء المستوحاة من روايات جول فيرن فنطازيا هاجارد وبينوا ، فتتصور الصحاري ، الواحات ، القوافل ، رياح السموم ، الأسود ، النيل ، الفراعنة ، أبا الهول ، الأهرام ، الموميا ، غابات النخيل ، البشر السمر الغامضين ، القرود بأنواعها اللامحدودة ، وهناك في مكان بعيد في الجنوب البارد عواصف الصراع البطولي ضد المارد الانجليزي (*) .

نحن نعلم بالتأكيد ، إنه لا يعقل الآن « القبطان ابن الخمسة عشر عاما » (**) ، الذي كان يمكن أن يذهب بمركبه إلى سواحل أفريقيا بدلا من أمريكا الجنوبية ، ويقود بدون إدراك طاقم السفينة والمسافرين ويعبر القارة ، إذ من المعروف أن طرق السيارات قد شقت في الصحراء ولا وجود في الأخيرة لبقايا أرض « أطلنطا » التي تسجها الخيال ، وقد نيشت ونهبت موميا الفراعنة ووزعت في مختلف أنحاء أوروبا ، وقد انقرت الأهرام وانتهدت واحاط بها خط الترام ، وقد احصيت الزرافات ، وجواميس النهر والغيلة وتحولت إلى بضاعة ، وتعيش آخر أيامها في الأدغال العميقة ، بينما أخذت البرجوازية هيبتها من الانجليزي المحتل ، سائرة في ركابه بخضوع ، وبمشاركته . نقيم للسكان معالم التحضير ، نعلم أن أفريقيا كلها محاطة

(*) هذا تصوير لبعض مواضع من روايات جول فيرن .

(**) بطل رواية خيالية بنفس الاسم للروائي الفرنسي الخيالي المشهور « جول فيرن » .

بعنكبوت ، الامبريالية ، التي تمتص عصيرها بدون رحمة ، وتعطيها بدلا عن ذلك السفلس والويسكى والكرباج ، نعرف بأنه قد بدأ النسيج العنكبوتى يتمزق في شمال أفريقيا ، في المغرب والجزائر وتونس وبرقة ، وفي مصر حيث نقف الان وليس في المقدمة لا أبو الهول ولا مومياء الفراعنة ، وإنما النضال الذى لا هوادة فيه ضد الامبريالية والانجليزية ، هذا النضال المربوط بعقدة حديدية ، مجسدة بمنايع النيل (العصب الاقتصادى الرئيسى) ، الذى يحكم الانجليز قبضتهم عليه ، يفرقون بالدم الوطن الذى هب منتفضا ، نعرف إنه ليس هناك رومانسية - وإنما هناك واقع النهب الامبريالى القاسى ، تزلف وخيانة البرجوازية المحلية وعجز الفلاح المسترق . كل هذا نحن نعرفه ، ومع ذلك (فإن طبيعة النفسية المغامرة) تأمل بأنه مازال هناك مكان ما يحتفظ برومانتيكية ، وإنه من المفترض أن تبدو أفريقيا هذه خاصة ومميزة ، التى نراها لأول مرة ، لكن فى عدسة المنظار الباردة والمنصفة يبدو الخط الأسود والحاجز لأمواج الحجرى وتحرق رؤوسه المادة سطح بعيد عن العوامات الحمراء ، تبدو أدخنة البواخر ، أشباح الجرافات ، وشواطئ السباحة ، تمثال نيلسبس باتى القتال ، اعلاتات الويسكى والكازينو الضخم ، بورسعيد إلى الآن هذا كل أفريقيا ، ويختفى سراى الرومانتيكية .

رجال التفتيش

نتبع التعليمات الدقيقة للمرشد البحرى الذى قدم إلينا فى الوقت المحدد إلى متن السفينة خاصة ، تقف الباخرة قريباً من المدينة ، وراء حاجز الأمواج الخشن ، وكودود العلق تحف بنا ، الزوارق البحرية المليئة بالمصريين بطرايبشهم الحمراء والشرايط المقصبة الخضراء ، هؤلاء هم المفتشون وكلاب الحراسة للشرطة الانجليزية ، لكن بقومية عربية ولياس مصرى (بينهم الماطليون ، الذين يكلفهم الانجليز بالانوار البنينة) ، تلف الزوارق البخارية ذهاباً وإياباً ، وكأنها خائفة من أن يتسلل راكب صدفة ، أو يسقط « منشور » ، يصعد بعض المفتشين إلى سطح السفينة وراء طبيب الحجر الصخى ، يفنشون المكان وينظرون حتى فى الحجرات ، يوزعون الانوار ، من يتابع من ، ورداً على احتجاجنا يلقى الطبيب الإنجليزى الرصين كسمة عنا بوقاحة ، معلنا ، بأنه لا علاقة لبريطانيا بكل هذا ، وأن الحكومة المصرية هى التى ابتدعت هذه الضرائب ، هم يرون فى هذا رمز « الاستقلال المصرى » - ستار التعسف الانجليزى - المنشقة التى يمسح بها عملاء اسكتلنديار القدرة والدماء من على أيديهم .

أتذكر كيف كانوا يلفون ذهاباً وإياباً هؤلاء الناس التافهون الجواهر بطرايبشهم الحمراء ، كيف كانت تصير نيرتهم لطيفة متزقة عندما يكونون وحيدين معنا ، بدون رقابة رقيب ، يقترب

من البآخرة صندل الفحم وصهريج الماء ، العمال المصريون - ناس سمر صافيون ، يهزون الثقالة الخشبية ، يركضون إلى ظهر السفينة ، يحملون على رؤوسهم سلال الفحم ، يتلقفون بأعجاب السجائر والخبز ، المقدم من بحارتنا رمزاً للصدقة والتضامن .

تظلم السماء الساطعة بسرعة ، وتشتعل المدينة بالآف الأضواء ، تكون بلمعانها القنال ، الساحل ، والقسم الأوربي بمستودعاته ومخازنه والصاخب بالعريضة البحرية ، الكازينو وبيوت الدمارة ، فى حين يهدم القسم العربى البعيد لبورسعيد ويختفى فى الظلام ، تنهال آخر سلال الفحم ، ويوصل الوسيط النشيط للبحارة الأشياء الموصى عليها ، مضاعفا السعر مرتين عن سعر السوق - تمنع من النزول إلى ميناء بورسعيد أو إلى أى ميناء مصرى آخر ، ولا يسمح للبحارة السوفييت أن يضعوا كشافاً فى مقدمة البآخرة ، حيث يصل مرشد بحرى خاص لإرشاد البآخرة وعبر كل القنال وفى هزيع الليل الأخير تتحرك .

تتهادى الفئارات الكهربائية الضخمة بهدوء فوق مياه القنال ، وتنزلق فى الظلام الأشباح المسودة للرافعات ، الجرافات ، البواخر ، الصنادل ، وبعدها يختفى كل هذا ، تسبح الأضواء بعيداً إلى الخلف ، نمر على السطح الضيق المرن ، وتنطبق بوابة البحار ، التى تغسل شواطئنا السوفياتية (ولو عبر المضائق) ، لم يسمح لنا بشراء الصحف ، لا يسمح البوليس بدخول الصحف ، ولا حتى بالصور إلى متن البآخرة ، وهكذا لم نعرف كيف انتهت الانتخابات الألمانية ، وهل احتلت بكين من قبل الجنوبيين وما هى قضية المناجم ، نحن لم نعرف عن هذا إلا بعد شهرين فقط ، عندما تصير هذه الأحداث من أحداث الماضى البعيد .

انفقلت النافذة من الخلف ، ندخل وكأنا فى فتحة موقد بحث فيه قيظ من جهنم .

القجر ، سطح البحر ضيق وكأنا ليس أوسع من شارع ، يتعرج من مروحة البآخرة ، يواصل تجدداته حتى الشاطئ ، وعلى جانبيه - مسافة صفراء لانهائية ، على الشاطئ الأيمن فقط تظهر نباتات قليلة محاطة بسور ضيق ، ينزلق تيار الماء كأنه زجاج بين الأصفر ، يتلأل الماء تحت الشمس يقيس بدقة أعمدة الكيلومترات المحددة وعلى الشاطئ الأفريقى تتعرج طريق السيارات وخلفها خط سكة الحديد ، بورسعيد - السويس ، وتظهر أدغال متفرقة بعيدة ، تتكشف منازل عمال القنال بشكل دورى وبشكل نظيف ومحاطة بالحدائق وملحقاتها ، الأعمدة الهوائية ، الأرصفة ، ومساحات كرة المضرب وأحياناً تيبو على الطريق سيارة مسرعة ، ونادراً يضح قطار ذى عربات كثيرة على خط سكة الحديد ، يظهر الموظفون المهمون فى الحدائق ، والأطفال يركضون يغنون الأغاني ، يندهش البحارة ، الذين كانوا هنا قبل الحرب ، من ظهور

المنازل ، الأدغال ، والجنائن في الصحراء القاحلة « هذا ليس الا نيكور - وواجهة للاستغلال الرأسمالي » .

وعلى اليسار - الساحل العربي - لا يوجد فيه خمار رخيص ، هناك الحقيقة القاسية العارية ، بحر الرمال القاحل الخالي من الحياة ، لا عشب فيه ولا شجر ، تبدو فيه نباتات حسكية هنا وهناك فقط ، لا توجد فيه منازل ، تظهر أكواخ سياج يزحف منها أناس سمر عراة في بعض الأماكن يقومون بالعمل ، هؤلاء هم عمال تنظيف وخدمة القنال كل يوم ، ولولا ذلك ستغطي القنال بالرمال .

أنصاف عراة في أسمال بالية يلتحقون جماعات ببعضهم ويبدأون العمل ، وعلى طول الساحل يطوف المشرقون الانجليز بأغطية الرأس القلينية التي لا تفارقهم ، يمتطون أسرجتهم بشكل تهديد ، يصرخون بشيء ما على السكان الأصليين ، نرى كيف يشنون على الكرايبيج في أيديهم ، ولا صورة للمنازل والحدائق هنا ، هذا شاطئ عمالي لا يرى هؤلاء « المنتحضرون » ضرورة للاهتمام به .

القتال مرىء الاقتصاد الاستعماري الأوربي ، تشق فيه السفن طريقها يوميا ، ليل ونهار ، في ضوء الشمس المحرقة والليل الرطب الخائق ، تمر عشرات السفن البخارية والمراكب الشراعية ويواخر الديزل ، سفن البضائع وسفن الركاب ، حاملة النفط ، تحت كل الأعلام ، ارتالا تشق طريقها وسط الزحام عبر هذه القوة ، صباية البضائع الصناعية من البلدان المستعمرة وبالعكس تأخذ المواد الخام إلى معامل التصنيع في أوربا .

شاي سيلاني ، أرز صيني ، قطن هندي ، لحوم وصوف استرالي ، مطاط وكاكاو أنثونيسيا ، نפט ايراني وبورنيو - كل هذه الخامات وأنصاف الخامات المنهوبة بالعنف ، بالخداع والتهديد من شعوب الشرق ، تجلب من كل البحار والمحيطات وتمر عبر مضيق باب المندب ، ومن هناك تمر عبر البحر الأحمر ، وتصب في فوسخ السويس الضيق ، ومنه تبحر إلى الجسم الصناعي في أوربا .

الهواء حار ، أكثر من ثلاثين درجة في الظل ، يبدو الهواء وكأنه مشبع بالمطور ، الكميات المضخمة من الثروات البحرية ، المنقصة من دم الملايين من الجماهير الكادحة ، كانتها ظلال وأشباح هؤلاء المعذبين المنهكين بما لا تتحملة طاقة أعمالهم ، أولئك الناس الموجهة إلى صندوق الرصاص ، المطعوتين في الصين ، والملايو وأنثونيسيا ، العبيد وأنصاف العبيد الصفر والسود والبيض ، تراهم يحومون حول ارتال السفن كسلسلة مستمرة في الشريط الضيق للقنال التي يستطيع الطفل سباحتها .

بيد أن هذه المليارات من الثروة السابحة عبر الأمواج اللزجة ، تشير وتهيج فقط ، بالاربع غير المألوف في كثافتها ، والصحراء المحرقة القاحلة ، التي تتراجع في عناد لا رغبة فيه أمام مقدمة السفينة . هذا البلد المحروق ينظر لهما بأعين الجياح والعراة والرعاة إلى الثروة السابحة (أكثر من مليونين ونصف شهرياً) لا تبقى لهم منها سوى نسبة تافهة بشكل راتب ضئيل لبضعة آلاف من عمال تنظيف القنال ، كل الضرائب التي تدفعها السفن من أجل عبور القنال (وكانت ضرائب باخرتنا المتواضعة « نيتا » خمسمائة جنيه استرليني) تذهب إلى جيوب المساهمين الانجليز والفرنسيين وغيرهم في شركة القنال ، والنخبة من الموظفين الأجانب الذين يعملون في القنال ، إما الذهب الذي يخرج من جيوب البحارة المتجولين على الرصيف فيتجه إلى خزائن الشركات الأجنبية وبنوك بورسعيد أو تمتصها حقائب الداعرات من مختلف القوميات ، الوافدات من جميع أنحاء المعمورة إلى ميناء (الدعارة) وتظل الصحراء قاحلة محروقة والرعاة جياح عراة .

تتأثر الصحراء برمالها فتغطي بسرعة محسومة قاع القنال الدقيق ، وتلتزم عشرات السفن الحفارة كل يوم ويستمرار بأن تصد هجوم الصحراء ، لا يهدأ هذا الصراع العنيد الشرس ولو ليوم واحد ، الطبيعة لا تستسلم ، ويسعى جانباً الشاطئين المفضولين إلى التلاقى بعناد من أجل أن يعم النهب الرئيسي في جسم العلو البعيد اللامنطور .

وعلى خلفية الرمال الجديدة ، يبدأ بحارتنا يعون قليلاً قليلاً مقدار قوة وثروة الوطن البعيد ، ا هـ ، كم نحن أغنياء ، ولا نفهم ذلك ، يتفلسف أحدهم ، ماراً بنظره على الصحراء المفروشة على الجانبين .

هل لدينا مثل هذه الرمال في أوكرانيا ، أنها ليست موجودة حتى في الخيال ، ولا يوجد لديهم مكان لبذر الزرع ورعى الماشية .

- لا دعك من ذلك ، يمكن رعى الجمال ، لا تقلق هنا من الحسك ما يكفي - يفترض أحدهم .

- اتحسب الجمال من الماشية ، والبقر والحصان وما شابهه ؟ ؟ وأين نذرى القمح وحداثق الكرز التي عندنا .

تتلاق باخرتنا ، وهي ليست سوى حلقة من سلسلة تلك السفن ، التي تندفع أمام الباخرة وورائها وتتقطع أحياناً هذه السلسلة ، يمر القنال عبر بحيرتين كبيرتين ، تستخدم البحيرتان

كطرق تفرق وتوزع البواخر المقابلة ، حيث لا يمكن أن يمر عبر القنال سوى باخرة واحدة ، ولا يمكن أن تفترق باخرتان إلا إذا أُرست أحدهما على الشاطئ ، تستخدم هاتان اليخبرتان كنقطة مرور حيث تنتظر القافلة قافلة مقابلة لها وتدعها تمر إلى الأمام ،

وفي مكان بعيد ، تلوح المدن العربية الصغيرة بمناراتها البيضاء ، هناك بناء ضخمة لم ينتهى بناؤه كتب عليه : « فى ذكرى الدفاع عن قناة السويس عام ١٩١٤ - ١٩١٨ » ، إنه فى حقيقة الأمر قد حسمت الحرب هنا بالذات وليس فى مارتى أو فى قبلى ، إذ لو تمكن الألمان بمساعدة الأتراك من الاستيلاء والسيطرة على القنال ، لكان هذا يساوى انقطاع الصلات بين إنجلترا وفرنسا من جهة وبين مستعمراتها من جهة أخرى ، أى أن ذلك يعنى متاخمة تحطيم حلف دول الائتلاف ، غير أن هذا لم يحدث ، لقد صد هجوم الأتراك ، وأُنقذت مصر بريطانيا ، وظلت العلاقة مع الهند ، والشرق الأقصى ، والعراق وكسبت دول الائتلاف الحرب .

مرة أخرى تصير البحيرة قتال ، ويصب القنال أبعد فى بحيرة أكبر ، وأخيراً نتخلص من أبخرة المستنعات الخائفة ، وتصل الباخرة إلى الفتحة الضيقة بين جبال الرمال الذهبية اللفحة ثم تسير على سطح خليج السويس .

ميناء توفيق ، وليس ميناء السويس هو آخر نقطة فى القنال ، ينفث الهواء بالجفاف المصرى ، نشاهد الكورنيش ، وتمثال تقيدي على شرف حدث ما أو أحد ما ، وتبدو السويس فى البعيد ، أشباح المنازل البيضاء ، أسطوانات تقطير النفط ، ويبدو مخيم غريب الشكل فى البعيد ، تتعرج سكة الحديد ويظهر قطار عربات مسرع ، ويعيداً من السفن المقابلة المنتظر خروجها من القنال ، يسترعى النظر صندوقان حديديان محصوران منذ أمد بعيد ، سفينتا الملك المنحوس الشريف حسين ملك الحجاز ، الذى أطلق على نفسه لقب ملك شبه جزيرة العرب بفضل الانجليز ، وبفضل الانجليز أيضاً وقوة المنتفضين التابعين لابن سعود دحر الشريف إلى قبرص البعيدة ، وكعادة كل الملوك لم يخجل من أن يسرق سفن بلاده قبل الهروب ، ويسلمها إلى غريبة .

وقفة قصيرة ، يترك البواليس ، المرشد البحري باخرتنا ، تصفر الباخرة وخلال نصف ساعة تبدو أسطوانات تقطير النفط البيضاء كأنها نقاط بيضاء مضيئة منعكسة من الهالة الدموية للغروب الاستوائى .

الباب الثالث

* الاختناق في البحر الأحمر

* الشعب

* الحيتان

* جدة البوابة إلى مكة

* المضاربة بالحج

* وهايبو نجد في النضال ضد الاستبريالية

الاختناق فى البحر الأحمر

البحر الاحمر - أكثر بحار الكرة الارضية حرارة ، وأكثرها بعثا على الاختناق ، وأكثرها خبثا - يمتصنا من جوفه النافث نارا ورطوية .

البحر الأحمر - طقس إستوائى أى بما معناه ، أكثر مناطق الارض حرارة ، محمى بحرارة الصحراء العربية ، وقيظ المرتفعات الجبلية لافريقيا ، يصير البحر مشبع بالرطوبة الخائفة ترتفع درجة حرارته الى خمسة وثلاثين درجة [فى الظل] ، تعصر الجسم كاسفنجة - وكل حركة ، واتفة مجهود يتحول الى تعذيب ، أما النزول من على سطح السفينة الى أسفل ، الى الحجرة التى هى بالاضافة الى كل ذلك مدفأة بأنابيب التدفئة باجتهاد ، تصبح تجربة لا تحتمل على الاطلاق ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولنا الى هذا البحر ، يتغطى الجسم بطفح جلدى آكل ، وذلك نتيجة لافراز العرق المستمر تنعدم الشهية ، تقف المعدة والكلى عن تأدية مهامها ، تنسى بذلك تقريبا عن التذكير بوجودها ، ويتحول الجسم بأكمله الى جهاز تقطير يكرر كؤوس وأكواز وإدلاء الماء المشروب إلى سيل من العرق . ولا يساعد الاغتسال على ذلك لان جميع الحمامات فى باخرتنا من ماء البحر المالح ، إنه لا يخفف فى شىء بل على العكس تحول طفح العرق الى قروح دموية ، يضاف الى ذلك أن الماء فى البحر الاحمر خبيثة ، حادة شديدة اللوحة ، كثيرة الفوسفور ، حتى العرب المحليين ، لا يغتسلون بهذه الماء كقاعدة ، وكان هذا نصيب البحارة السوفييت ، الذين يعزرون عياب البحر الاحمر على متن باخرة قطبية ، يغتسلون بالماء المالح ، وما يكانون يلبسون ثيابهم حتى تصير مبلولة تماما بالعرق .

حين نشعر نحن المسافرين بالاختناق ، فاننا نمتلك امكانية أن نضطجع بلا حراك نشرب المياه المعدنية ونستلقى على الاسرة المتنتقة تحت السقيفة فى اتجاه هبوب الريح ، لكن من الصعب التخيل ، ماذا يعتمل فى غرفة موقدة ، حيث بالمعونة اللطيفة التى تقدمها الاجهزة القطبية ، تصل درجة الحرارة الى خمسين درجة [تقارب نقطة الغليان] ، خاطر بعضنا بالدخول الى غرفة الموقد ، لكنه يرجع بعد خمس دقائق مندفعا منها كالمسلوق ترافقه قهقهة الجميع ، وبعد ذلك لم يصمم أحد على النزول ، لكن لما الحديث عنه ، اذا كان حتى المتعودون والمصقولون فى النخان عمال الايقاد المتمرنين قد سقطوا أكثر من مرة مغمى عليهم ، وسحبوا فاقدى الشعور الى مستوصف البأخرة .

لا يأتى الليل بسهولة ، يهبط الزنبق فى ميزان الحرارة درجة أو درجتين ، غير أن الهواء يتشبع بمقدار أكثر من الرطوبة المنثرة بالسوء ، وعند الفجر تكون البأخرة كما لو أنها غسلت

بالماء لا يمكن النوم بدون مظلة ، إذ أن بدونها يمكن الإصابة بالروماتيزم ، أو ما شابه ذلك ، الحجرات مغلقة ، العنابر ، المطعم ، الراديو ، وجناح الراحة كلها مهجورة ، الجميع يعيش ويتكلم على السطح ، فقط جماعة من المعذبين مجبرة أن تظل متأوية في غرفة الايقاد وقسم الآلات .

الشعاب

شرس هو البحر الأحمر ، قيظ ورطوبة ، شعاب وسمك القرش ، الشعاب تتراعى هنا وهناك ، كثير منها ليست محددة حتى على الخارطة ، وذلك لأنها تظهر فجأة ، مثل الآلهة القديمة ، متوالدة من زبد البحر نتيجة لنمو الطليقات المرجانية ، لا ترى ليلا هذه الشعاب ، يمكن ملاحظتها برواة البحر الضارب لونه للبياض في الظهر فقط لأنها بلون الماء الاحمر المائل للاخضرار ، تهدد الشعاب دائما بالكارثة ، ويمكن القول بصورة عامة ، أن حصول حادثة في البحر ليس مخيفا الى ذلك القدر ، لان المياه مشبعة بالملح أكثر من أى مكان آخر ، والسباحة فيه سهلة ، الامواج ضعيفة والشاطئ ليس بعيدا اذا قارناه بالشواطىء الاخرى ، لكن الحيتان ، التي تطرطش قطعانها بدون تخلف قرب الباخرة ، فان أى حادثة تهدد تكاد أن تصبح كارثة . لان الانسان الذي يسقط في الماء ، وخاصة اذا كان أبيض [القضية تكمن في أنه حسب تأكيدات السكان المحليين ، بأن الحيتان الحقة ، خلافا للحيتان الاميريالية الموجودة هنا ، تفضل اقتراس البيض ، فانها تراطف به لسبب ما] فانها تقترسه لتوها .

الحيتان

وفي مثل هذه الظروف يكون ذلك الهلع الذي أصاب طاقم السفينة مفهوما ، حين قرر أحد الركاب بسبب الفراغ أن يعزح ، حيث حول عجلة تلجراف الباخرة من السرعة الكاملة الى « قف » أثناء غياب القبطان ، وبهذا فإنه كان قد أعطى إشارة الى « الكارثة » المحدقة. وبعد بضع دقائق من اشارة الانذار فقط ، اتضح أن هذا سخافة صبيانية من قبل انسان راشد . وقد ظل بدون عقاب للاسف .

يتبخر الحماس الدينى للحجاج نتيجة القيظ ، فينسون نوياتهم ونشيجهم ، يتجولون بلا حول يلوحون بالمرآوح اليدوية ، ويضطجعون بعجز على السجاجيد وينكبون على أباريق الماء ، وعند صفير الباخرة فقط ، وقد استخدم هذا الصفير كإشارة محجوزة مسبقا من قبل الحجاج ، يقوم الاخيريون بأداء فريضة الصلاة ، ومع ذلك نصاب بخيبة أمل نحن الذين ننتظر

رؤية نشوة الصلاة وتويتها ، ينهض الحجاج أنصاف نيام [كان هذا في هزيع الليل] يهيمون بخفوت وراء الامام في الصلاة ، وما أن تصفر الباخرة للمرة الثانية ، بعد برهة خمس أو ست دقائق ، يرتمون منهارين على سجاجيدهم .

صار خليج السويس في الخلف ، اختفى مشهد جبل سيناء ، المنعكس في مرآة الرمال المتلألئة ، وقد مرقت الفنارات الصغيرة الواقفة في جزيرة ديد الا وجزيرة الاخوين ، عبرنا المنطقة الاستوائية ، تميل النجمة القطبية أكثر فأكثر نحو الافق ، تصير الليالي أكثر طولاً ، والنهار أكثر قصراً ، ويصير حلول الليل أكثر سرعة وجدية ، يكاد الغسق أن ينعدم ، بينما يرتفع زئيق ميزان الحرارة الى أعلى ، وتصير وجوه طاقم السفينة أكثر حنقا ومتعبة أكثر .

- اليوم العاشر في الطريق -

- قبيل المغيب ، وتحت لمعان الشمس الساطعة والحارة ، تبدو الاشباح المظلمة للجبال ، والخط الحاد الابيض للمدينة المتماوجة في الهواء المتلون ، مآذن المساجد البيضاء الناصعة ، تعرجات البيوت البيضاء الغربية الشكل ، الاكواخ المنشورية الشكل المعتمة خارج المدينة ، كل هذا على خلفية البحر المزخرف بكل الالوان السبعة ، بالوان المرجان تحت المياه الزرقاء - الحمراء - الخضراء - الازوردية ، كل هذا ينبىء باننا وصلنا الى مدينة جدة الخائفة والجميلة - الخادعة - الميناء الرئيسي لمملكة نجد والحجاز ، والبوابة الى مكة .

يحزم الحجاج أمتعتهم على عجل ، يجتمعون عند مقدمة السفينة ، منارا بين الشعب بمساعدة المرشد البحرى ، تدخل الباخرة الرصيف ، حيث قد تجمعت اثنا عشر أو ثلاثة عشر باخرة من مختلف الجنسيات ألمان ، انجليز ، فرنسيون ، هولنديون ، أتراك وحتى سفينة روسية قديمة تحت العلم الفرنسى لكنها باسمها القديم « اورشليم » . نقلت كل هذه السفن أفواجا كبيرة من الحجاج ، تنتظر نهاية الحج ، لترحل من حيث أتت .

جدة البوابة إلى مكة

من الصعب تصور لوحة واضحة للمعنى البضاعي والدينى أكثر من صورة الحج ، فى كل عام ومن كل أطراف المعمورة وقبل يوم الحج يأتى ما يقارب مائتى ألف من الشيوخ ، نساء ورجال فى الغالب ، يتركون أعمالهم المعتادة ، يجتمعون ما انخروه طوال أعوام كثيرة ، يحزمون فى حزمتين ما يلزم من المتاع ، وينطلقون الى الحج فى بلد القبط ، الجذب ، الغبار ، والابينة ،

يأتون من سفوح الهمالايا ، من الهند ، من جزر أرخبيل الملايو المزهرة ومن البلدان المجاورة بالطبع : إيران ، تركيا ، شبه جزيرة العرب ، ومن أفريقيا ، وإذا كان الحجاج مسافرين عن طريق البر على القوافل أو مشيا على الاقدام ، تنهبهم القبائل الرحل ، وتنتزع منهم آخر الاغذية ، أما اذا سافروا على ظهور السفن فان عملاء شركات السفن يبتزونهم بشكل قانوني « منظم » يسلبون منهم نقودا كثيرة قيمة تذاكر سفر في ظروف لا تحسد عليهم عليها حتى البهائم ، يأخذون منهم في جدة رسوم تأشيرة الدخول ورسوم الحجر الصحي ، وبعد ذلك يرافق كل مجموعة صغيرة مطوف ، يطوف بهم في الاماكن المقدسة ، يعلمهم « مناسك الحج » ، ينهب رعاياه مستغلا كل فرصة ، يأخذ منهم نقودا كثيرة للسكن ، الاغذاء ، للماء ، والماء خاصة ، التي يصل ثمنها بوزن الذهب ، هكذا كان في عهد الشريف حسين الذي قام بتدابير غربية ، وصلت الى حد تخريب أنابيب المياه ، من أجل رفع سعرها ، الى جنيه ذهب للكأس الواحد .

ينتقل الحجاج بين الاماكن المقدسة ، من جبل الى جبل ، ومن مدينة الى مدينة ، في محيط مليء بالقذورات ، بدون ماء ولا غذاء ولا رعاية طبية تقريبا ، ينفق الحجاج آخر نقودهم وأخر ما تبقى من الصحة ، فيتعرضون للأمراض والانهك والتعب بكل بساطة ، يقعون بين براثن مضاربي الحجاز ، المطوفون ، المرافقون ، ملاك الجمال والسيارات وما شابه ذلك من الزمر يتحصلون على ما يقارب ثمانية ملايين جنيه استرليني من الربح ، علاوة على خمسة عشر ألف ميت تحتجز جثثهم رمال الحجاز من بين مائتي ألف حاج (كأنها فراشات على النار) تتواعد كل عام تحت شمس الصحراء العربية اللافحة .

الحج الديني موجود في كل البلدان . يذهب الصينيون الى جبل تايسان ، أينما عاش وعلم كونفوشيوس ، ويصعد اليابانيون لا يسين ثياب بيضاء الى قمة جبل فودزه ، يذهبون الى معابد نيكو ، ويتوافد الكاثوليك الى روما ، لكن يوجد في جميع هذه الأشكال عامل جمالي ، يتمتع الناس برؤية محاسن الطبيعة ، والاعمال الفنية ، ويتنقلون في ظروف محتملة بل وأحيانا مريحة ، لكن لا يوجد جزء يتجازاه المسلمون الاتقياء المنهكون ، الذين يعبدون الى مكة والمدينة - سوى المشاعر الدينية الخالصة - بعض الاحجار من قبر الرسول محمد ، وقوارير من ماء « زمزم » إنه لم يرى أية محاسن ، ما عدا رمال الصحراء ، والجبال العارية الجذباء والوجوه الجشعة للمرافقين .

المضاربة بالبحر

من المستفيد من هذا الابتزاز الممنهج للحجاج ؟ يأتيء ذى بدء التجار ، المضاربون ملاك الجمال والسيارات وبالطبع سلطة الحجاز ، إن أدنى انخفاض فى الحجاج يمكن أن يكون ضربة قاسية لهذه الفئات ولا نعكس ذلك على مجمل دخل البلاد (١) .

تسيل أشعة الشمس على الاف الفراسخ فى الصحارى العربية والافريقية ، فى الوقت الذى يكون فيه عزيز كل شعاع من الشمس فى سيبيريا ، وكما يتمنى المرء أن يخترع زجاج مكبر يمكن الانسان من تركيز وارسال مليارات الكيلواطات من الطاقة الشمسية الى التوندرا وجليد القطب المتجمد الشمالى (٢) .

الناس الطقيليون عادة ما يصبحون عبيدا أو خدما وانصاف عبيد ، والحجازيون ممثلون بالطبقات المالكة يصبحون أذبالاً وأعواناً للانجليز ، تمسك الانجليز فى قبضتها مداخل البحر الاحمر : بوابتا الحجاز وقناة السويس ومضيق باب المندب ، إن جرة قلم خفيفة ، ضغط ضئيل لوحتى القيام ببعض أعمال الحجر الصحى الشكلية ، يمكن أن تؤدى الى افشال الحج ويقضى على سكان الحجاز بالافلاس والجوع ، تمسك أصابع الامبريالية الانجليزية على هذا البلد الخائر القوى .

فى وقت الحرب ، دفعت انجلترا الشريف حسين إلى الانتفاضة ضد الاتراك عن طريق ايقاف الحجاج ، الامر الذى حتم سلفا الاخفاق التركى فى الهجوم على قناة السويس ، والانهيار النهائى لتركيا فى الحرب العالمية ، وفى عام ١٩٢٥ كان ابن سعود ملك نجد ، الذى خلف الشريف حسين بعد الانتصار على الأخير ، كان زعيم الوهابيين شديد الشكينة ، لكنه بعد أن شعر بالاصابع الفولانية قابضة على خنائة ، اضطر إلى كبح حملته الشرسة مستخدماً أسلوب المناورة الشاقة والمؤلة ، فلم يحزم فى خوض المعركة ، وإن لم يرغب فى التراجع إلى ما لا نهاية .

لقد وجد ابن سعود نجد والحجاز بشكل وهابى نصف متوحش ، وكان يهدد طرق المواصلات الانجليزية إلى الهند ، من فلسطين عبر العراق وايران ، وقد قررت انجلترا بصلابة

(١) لم تترجم بقية هذه الفقرة من صفحة ٢٢ لانها غير صالحة للنشر .

(٢) لم تترجم بقية هذه الفقرة من صفحة ٢٢ لانها غير صالحة للنشر .

الباب السادس

* فى الازقه الخانقه بالحديده

* السوق

* الهنود

* السفن القديمه

* الصناعه

* راس المال الاجنبى

من " نيته " إلى " تابولسك "

تلتقى في جدة بباخرة سوفياتية أخرى هي " تابولسك " وهي مثل باخرتنا " نيته " بسعتها وتجهيزاتها القطبية (واسمها يتحدث عن نفسه) ، فيها نفس أنابيب التدفئة ، والحمامات المالحة ، وانعدام الماء البارد ، وقد وصلت قبلنا بأسبوع وبحمولة ناقصة ، اتضح انه لا توجد ضرورة لايحار اليأخرتين أكثر (عن ماذا كانوا يفكرون في اوديسا ؟) ، وذلك لأن كل الحمولة كان يمكن شحنها في باخرة واحدة ، وتحمل الاخرى الحجاج عائدة يهدوء إلى ميناء بلادها ، تبدأ المناقشات الصاخبة والاجتماعات : لا يرغب احد في الرحلة القطبية - الطقس جهنمي ، ولا توجد موانئ مشوقة يمكن فيها التجول والراحة : كاد أن يكون قبطان الباخرة في معركة ، حجج مع وحجج ضد ، كل يثبت أنه ليس هو المفترض في متابعة الابحار ، وفي الاخير يتنازل قبطان " تابولسك " الحزبي بعد اسبوعين من الجدل (والعمل متوقف) يوافق هذا القبطان وسط تدمير جماعي من قبل طاقم سفينته بسبب أخذ حمولة الباخرة " نيته " والابحار إلى اليمن ومن ثم إلى الخليج الفارسي .

تنزل " نيته " في جدة .

وفي البداية يقوم العمال العرب بالشحن ، يعملون بضمول ، يمزقون الاكياس بالخطاطيف ، يسجل المتعهد اجرة ضعف عدد العمال العامين ، ويأخذ الفرق لنفسه ، وبالإضافة إلى ذلك يتوقف هؤلاء العمال عن العمل بضعة أيام بحجة ابتداء الحج .

تقرر تنفيذ الشحن بالقوى الخاصة ، صعد البحارة عراة إلى عتبر السفينة ، وبدأت المعتلات تقرقع ، امتازت الرافعة اليدوية امتازا شديداً ، ويرمون اكياس السكر ورزم المنسوجات بالانزع من باخرة إلى باخرة . وفي اعماق العنابر تزحف اشباح الناس المتصبية عرقا . وينادرا ما يصعدون كالمسلوقين إلى سطح السفينة من اجل تدخين سيجارة ، ونفسا من الهواء النقي ، ثم يغوصون من جديد في الحفرة الخائقة يسحبون الاكياس إلى الخطاطيف القايسة للرافعة .

استغرق العمل ثلاث ليال (لانه لا عمل في النهار) . انجزنا خلال هذه الليالي الثلاث ما كان يمكن أن ينجزه العمال المحليون في أكثر من عشرة أيام وتحت عصا المتعهد المستقل .

وأخيراً انتهى الشحن ، واستمد البحارة أجرتهم ، تلك الأجرة التي لم يكتسبوها
بغرق الجبين فقط ، وإنما بغرق الجسد كله . استثموا أجرتهم في نفس اليوم فافترغوا مقاصف
البواخر الأجنبية التي على الرصيف واشتروا تقريباً كل المشروبات المنسوجة وغير المنسوجة
وهكذا أصبحت عنابر نيتة هارثة ، وعنابر نابوست مشحونة حتى سطحها ، تنتقل
إلى " نابولسك " أو بالأصح إلى برج القيادة ، الهبوط إلى الحجرات مستحيل ، هناك تبقى
الاشياء فقط ، وفي الصباح يتحرك تلوح مناديل المدوعين من على الزوارق ، وها هي باخرتنا
تتأور بين الشعاب تخرج إلى الماء العريض للبحر الأحمر ، أخذت اتجاهها إلى الجنوب ، ولأول
مرة تبحر باخرة سوفياتية حول شبه جزيرة العرب ، ولأول مرة سيعرض العلم الأحمر ،
والبضائع السوفياتية في اليمن وموانئ جنوب فارس

أول سنونوات اليمن

اشعرنا اليمن بوجوده في جدة ، هناك ظهر احد التجار مع رسالة توصية من السلطات
اليمنية ، مقدماً لنا خدماته كمرافق وسمسار في الحديدية ، مؤكداً أنه بدون صحبته سيكون
الفشل مصيرنا ، لكننا استغنياً عن خدماته ، هذه كانت السنونوة الاولى من اليمن ، ومنها
يتضح ان اليمنيين يضعون آمالاً على التجارة معنا ، وان لديهم امكانيات من نوع ما ، وعن
هذا ، وعلى أية حال تحدثت الرسائل الموجهة إلى فرع " اللجنة الشعبية للعلاقات الخارجية " ،
وذلك من شخصيتين يمنيتين بارزتين

الرسالة الاولى متهورة بختم الامير محمد ، أمير الحديدية ، والموجهة إلى إحدى
الشخصيات الموثوقة في جدة ، لكنها مخصصة لان يستلمها الوكيل السوفيتي ، يقول نصها :
" بسم الله الرحمن الرحيم ، المتواضع محمد ، ابن أمير المؤمنين (ومحمد هذا هو
الابن الثاني للإمام) لقد شغل فكرنا مسألة واحدة ، وقد نوقشت أكثر من مرة ، ان
حكومتنا لا ترفض أبداً مصافحة اليد الممدودة لها ، لقد صرحت بهذا في صحيفة " الايمان " ،
وهي تطمح إلى الصداقة مع شعوب الشرق ، وحكومتنا في الوقت الراهن تصرح بعزم عن
طموحها في إقامة طموح متبادل مع شعوب الشرق وخاصة مع من يضمم فكراً تقديمياً وبناضل
ضد الاضطهاد الامبريالي ، ان حكومة روسيا العظمى تقف بقظة لحراسة مصالح شعوب
الشرق ، وضد هذه الحكومة تصارع الامبريالية ، موجهة لهذا وسائل مالية ضخمة ، قوى
حربية وسياسية ، طامحة إلى اعاققة تنور شعوب الشرق بروح الحرية ، هذه الحكومة تحوز على
تعاطف الشعوب المضطهدة ، اننا نأمل في إقامة علاقة طيبة بين حكومتنا "

واختتم الرسالة بادعية دينية وتمجيدية لله .

والرسالة الثانية مكتوبة بلهجة اكثر عملية وتحفظ وضعتها السكرتير الاول للامام ، القاضي راغب ، موجهة إلى القنصل السوفييتى فى جدة ، يقول فيها : " اننا نحافظ على الحب فى القلب لروسيا ، لقد قررنا وضع بداية علاقات تجارية بين الدولتين المستقلتين روسيا واليمن ، وحين كنت سكرتيرا أولا للسفارة العثمانية فى بتروجراد ، كنت موثوقا بروابط صداقة وطيدة بالشعب الروسى ، لقد وجدت انه من الملائم التوجه إليكم بهذا الموضوع بواسطة صديقى ، نرجوا منكم القيام بالخطوات المناسبة وتعريفنا بهذا " .

لقد اهتمت هذه الرسالة فى جدة قراب عام (وقد ذكرت محدثى فى موسكو : " اليمن واى معنى لذلك ") وكانت بهذا الشكل اول وثيقة تضع بداية الاتفاق السوفييتى اليمنى ، الذى سيوقع عليه فيما بعد فى صنعاء ، لكن باخترتنا ما زالت تتحرك فى الطريق من جدة الى الحديدية ، ويظهر ان كل هذا ليس مقنعا بما فيه الكفاية ، لم توجد ثقة كاملة عما ينتظرنا ، وهناك شائعات تطفو عن بداية غارات الطيران الانجليزى ، وعن انتفاضة القبائل قرب الحديدية .

بيعت فىنا بعض الانتعاش شيخ عربى يركب باخترتنا من القسطنطينية الى اليمن ، عمره اكثر من سبعين سنة ، وهو ضابط قديم فى الخدمة التركية ، ويحلم ان يعيش آخر ايامه فى صنعاء بهدوء يتحدث عن صنعاء ويبجلها بصوت اجش .

- جميل جدا ، جميل جدا ... كل شىء طيب ، كل شىء موجود هناك : هواء ، ماء ، فواكه ، قوارير ماء من صنعاء ، يمكن ان تحملها الى اخر الدنيا ، لن تلقى اشهى منها ، الهواء - كالعسل ... حدائق فى كل مكان - المشمش ، الخوخ ، التين ، الليمون ، العنب - خمسة وثلاثين صنف من العنب .

لكن صنعاء بعيدة ، اقرب مرحلة - الحديدية - الحديدية حرها اكثر ارتفاعا من حر جده ، ماذا ننتظر ، نحن فى الباخرة ، نتعرض للرياح البحرية ، ومع ذلك ليس باستطاعتنا التحرك ، نبتلع لقمة الغذاء بصعوبة بالغة وتتبعها بقوارير الماء .

فى اليوم الثالث فى وقت الظهيرة بعد سفرنا من جدة نمر على مجموعة جزر تسمى " جبل الطير " ، تستخدم هذه الجزر كمكان لاستراحة الطيور العابرة ، هذه الجزر المقفرة العارية ، بصخورها الحمراء ، القنار الذى يلمع فى الليل فقط ، يحى قفرتها .

وبعد بضع ساعات - وفى العتمة الدهماء تترأى مجموعة جزر ، يطلق عليها فى الخرائط

الأوربية " جزائر " ، التي تعنى " جزر " باللغة العربية ببساطة ، لم يطلق اسم محدد لهذه الجزر - وهي خمس أو ست جزر - عبارة عن صخور كبيرة ، وعلى واحدة منها قنار ، من الصعب تصور مكان أكثر قساوة منها كمنفى للمجرمين .

وبعد هذه الجزر ، ننعطف نحو الغرب بشدة ، ونطلق إلى الحديدية مباشرة .

ليلة ظلام غير مقمرة ، يقرر القبطان أنه حسب آلة تحديد الاتجاه ، يفترض أن نكون قرييين من الشاطئ ، لا ضوء في الأفق ، وتحت طرق الرقاص المنتظم ، يرمى المناوب بالمرجاس (١) ويقدم تقريراً عن عمق البحر .

- سبعة عشر ... ستة عشر ... أربعة عشر ...

وعندما يصل العمل إلى اثني عشر متراً ويحول القبطان ذراع " التلجراف " إلى إشارة " قف " ، تفرغ سلسلة " التلجراف " بحدة ، معطية إشارة إلى عمق قسم الماكينات ، تسير الباخرة إلى الأمام لبعض الوقت بحكم قوة الاستمرار ، نتوقف بعد ذلك ، ننتظر الفجر ، وإمامنا ظلام دامس .

نضطجع على الأسرة ، من دون رغبة في النوم ، هذا الشاطئ الغير مرئي ، لكنه القريب الإدراك وإن يشد الأعصاب ويطرده النوم ، في ظل القنار الخافت أقلب صفحات مرجع بحري صدر قبل الحرب وأقرأ التعريف التالي تحت كلمة الحديدية :

" الحديدية - مدينة يبلغ تعداد سكانها من ثلاثين إلى أربعين ألف نسمة ، فيها عيني عظيمة وماء طيب ... "

وبعد ذلك تأتي معلومات بحرية متخصصة .

افتتح ديوان لشعار بير يوسف : لقد ذكر اليمن فيها ، وإن كانت بمعاني ومسمات مستعارة مجهولة : " هكذا في صحارى شبه جزيرة العرب المهيبة الجليلة .

أيضا سارت ملكة سبأ لتلاطف سليمان " .

هذا يعني أنه في اليمن ، لأن مملكة سبأ قد وجدت في اليمن ، وقد ذكرها الانجيل ، حيث حكمت الملكة الأسطورية بلقيس ، برجليها ذات الشعر الذهبي الجاف ...

(١) المرجاس - جهاز لقياس عمق البحر .

ويضيف الشاعر بير يوسف :

" نظرة باردة من قمة الرأس إلى اخمص القدم وأوفير الغنية ...

وأوفير - هذه الكلمة المتكبرة تعنى اليمن المتواضعة التي لا تقبل الادعاء .

هذا هو كل ما أتذكره عن اليمن من الكتابات الموجودة لدينا ، يوجد امامى كتابان أيضاً ، أحدهما الفه الصحفى النمساوى فيسل وقد سمي هذا الكتاب اليمن " بلداً شيطانياً " ، أكثر بلدان شبه جزيرة العرب تخلفاً وأقلها جاذبية ، وعلى النقيض منه - وصف أحد الايطاليين اليمن وكان قد سافر اليها ضمن بعثة رسمية ، واستقبل بحفاوة وايهة كبيرة .

تعرف اليمن فى هذا الكتاب بانها " وطن الاريح أو الشذى " . وأتذكر ان اليمن قد اشتهر أيضاً منذ زمن سحيق " بالعربية السعيدة " . ويؤكد هذا مرافقتنا الشيخ العربى ، الذى لا يفتأ يمدم حول اصناف العنب الخمسة والثلاثين وماء صنعاء العجيب ، بهذا ينقطع جبل التصورات المستقاة اثناء الطريق الى اليمن ، وكيف هذه اليمن فى حقيقة الامر ، هذا البلد القريب جداً منا الان ، والذى لا يفصلنا عنه سوى خط الماء أو دخان الضباب الصباحى ؟

... من خلال المنظار وفى ضوء الفجر الشاحب ارى خط الشاطئ الاخير ، الذى يمتد بضعة اميال من باخرتنا ، وهو أكثر اتيساطاً وخال من الجمال عنه فى جدة .

اشاهد التتومات الصخرية لحواجز الامواج ، بعض مبانى بيضاء ، صفت بشكل مساحة صغيرة ، والاشباح الرمادية لنانزل الضواحي الواطئة .

اهذه هى يا ترى " المهمات العظيمة " التى قيل عنها ؟

على رصيف الحديدية

ترفع الباخرة مرساتها مقترية من الشاطئ خبط غشواد ، تتوقف مرة اخرى على مسافة ميلين أو ثلاثة اميال من اليابسة : والوقوف ابعد من ذلك يهددها ، الاماكن الضحلة ، والقبطان لا يخاطر بالتحرك على رصيف يجهله ، تضحج سلسلة المرساة من جديد ، وتتطلق عدة صفارات نداء تاريخى من مدخنة الباخرة ، ويرتفع شريط اعلام الاشارة المبرقشة على المسارية ، لا شك فى اننا قد وصلنا ، هذه هى اليمن .

ها هي اليمن

ها هو ، هذا الوطن ، الذي يبدو من على ظهر الباخرة قاحلا ، صحراء كثيه ... هذه هي الحديدية ، المدينة النصف مغمورة بالرمال ، بيوت مهدمة ، كأنها كومة عظام نصف رميمة ، مبيضة على بساط سهلي اغبر قاحل .

تمر عشرون دقيقة و نشاهد سراما ايضا بيتعد عن الشاطئ ، يناور مع الريح يقترب من باخرتنا ووصل بعد نصف ساعة .

تتماسك انفسنا ظاهريا بحزم ، وان كانت الثقة منعدمة في الداخل .

- ماذا سيقولون لنا ؟ " اهلا وسهلا " او " فلترحلوا " ...

يصعد على سلم الباخرة ايطالي كهل محنى الظهر ، اصلع الرأس ، انه وكيل الشركة المحلية التي اخذت على عاتقها ، وخدمة باخرتنا ، حسب اتفاق تجرافي ، وبصحبتة عربي عاري القدمين في سترة عسكرية مهلهلة هو مساعد رئيس الشرطة ، وعندما سأل هذا الاخير من نحن ولماذا وصلنا ، توجه مسرعا الى الشاطئ ليقدم تقريرا .

يمتنص الايطالي الماء المعدني بشراهة ، يجيب على اسئلتنا عن الحديدية ، ملوحا بيديه بكآية ، - لا شيء يوجد هنا ... لا شيء - لا ماء ، ولا خضرة ولا غذاء ، كل شيء يجب جلبه من الخارج ، كل شيء ... ايسمح لي القبطان بتعبئة قنينتين من الماء البارد ؟

- الاخبار ؟ نسأل نحن ، - كيف انتهت الانتخابات الإيطالية ؟

- نحن هنا لا نعرف شيئا - يجيب مبتسما بمرارة ومؤشرا بيديه اشارة بائسة هادئة ... الانتخابات ... نحن لا نعرف حتى أنها يفترض ان تجرى ، ربما ستحكون لنا كيف انتهت الانتخابات الفرنسية ؟

ثم نحكى له ، لان هذه الانتخابات قد جرت قبل اسبوعين من رحلتنا من اوديسا ، وقد استمرت رحلتنا اكثر من شهر .

- وهنا كيف ؟

مرة اخرى اشارة تهكمية هادئة .

- هنا ... سترون بانفسكم ، ما يشبه الحرب ، ننتظر الطائرات ، فلدى الامام شيء ما غير حسن مع الانجليز ...

- كيف تعيشون ؟

- لا تسألوا ... عن كل شيء ، كائننا في سجن أو في منفى ان لم يكن أسوأ .

نحن نرى ذلك من المنهكين والمتعبين ، على كل ربما كان هذا استقبال مقصود :
لتخويفنا ، نحن الذين خاطرتنا بمجيئنا إلى هنا ، إلى البلد الذي تمد إليه إيطاليا اصابعها
الاحتطبوطية بشراهة ، تحيط القوارب ببأخرتنا من جميع الجوانب . يستشعر مالكو القوارب
والعتالون الرزق - اجرة افراغ البضائع ونقلها الى الشاطئ ، يتقافز الناس السمر العراة من
القوارب الى الماء ويسبحون مقتربين الى جوانب السفينة " تايواسك " يسبحون حبال الريط
باسنانهم ، يلتصقون ويتشبثون به ، وما قد انفتحت ابواب الحجرات ، وطقطقت الرفاعات ،
وتطايرت اكياس الكياس الدقيق والسكر من سطح السفينة الى قعر القوارب .

الشمس بعد ان ارتفعت ، تلهب سطح السفينة بسيل اشعتها ، كما تلهب ظهور الناس
العارية والمكشوفة .

ها هو يظهر قارب كبير وانيق ، على صاريته علم احمر مرسوم عليه سيف وتحيط
بالسيف خمسة نجوم انه علم اليمن ، في القارب سلطات الحديد تراقفها حراسة ، تتألف مما
يقارب خمسة عشر جنديا وعلى ما يبدو أنه قد رتب لنا حفل استقبال بما فيه الكفاية .

الوجهاء - في برانس بيضاء يتمنطقون بالجنابى ، يلبسون لوشحة من الخيش الخفيف -
وعلى رأس كل واحد منهم عمامة بيضاء ، وعلى أرجلهم احذية اوربية ، وهذه هي العلامة
الخارجية الوحيدة للتأثير الاوروبى .

يسمى الجنود كما في تركيا عسكريا ايضا ، يلبسون الوردية ، وان كان من القماش
المحلى الخشن ، هذه الوردية هي نوع ما من الملابس الشبيهة بالقوطة مع بلوزة معتمة ، يربط
الجنود خصورهم باحزمة ، احزمة الذخيرة عبر الكتف ، والبندق في الايدى والجنابى خلف
الاحزمة .

الاقدام حافية والعيون ملتهبة وحشية كأنها عيون الصقور ، هؤلاء من الجبال ، وصلوا إلى
البحر منذ فترة قصيرة ، وقد كانوا لأول مرة في حياتهم على الباخرة .

تميز بينهم الامير الشخصية المهيبة ، وكامل لقبه امير الجيش ، يتحرك بقربه المترجم فؤاد
في لباس اوربى وطربوش ، وهذا المترجم مصرى ، وهو الشخص الوحيد الذى يعرف لغات
اوربية ويطلق على نفسه لقب مترجم المحافظ .

وجهت اليها أسئلة . بما أتيتم ، وما هي حمواتكم ، وهل تنوون الذهاب الى صنعاء لمقابلة الامام ، واستفسارات عن الصحة وظروف الرحلة ، اجبنا بدورنا نحن نستفسر عن صحة الامام وأولاده وعن الوضع في صنعاء ، لكنهم لا يخفون بأن ليس كل شيء على مايرام وأنهم ينتظرون الطائرات الانجليزية وان كانوا لا يخافون منها .

... سستغلب عليها ...

تعب عامل مقصف سفينتنا من كثرة العمل : يخرج صناديق الماء المعدني ، او مياه عادية باردة ، فهنا يعتبر هذا أفضل ضيافة ، وبعد الضيافة يلقي امير الجيش كلمة اخفائية بواسطة المترجم . .

– نحن انتظرنا الروس منذ فترة بعيدة ، لقد توقعنا رؤيتكم هنا في العام الماضي ، نأمل بعون الله ان تتولد العلاقة بيننا ونطور التجارة ، نحى بأشخاصكم اول روس يصلون الى الارض اليمنية ، وبينما نحن نتبادل التحيات ، كان الجميع عساكر ووجهاء يمعنون النظر بشراهة في كل جزء من اجزاء الباخرة ، ويتراكمون بعد ذلك يراحمون بعضهم بعضا لفحصها و يعرون بكل الزوايا ، غرفة القبطان ، عجلة القيادة ، اليوصلة ، المنظار ، المستوصف ، كل شيء يثير اهتمام الناس ، هؤلاء الناس الذين حرموا من التقنية الى الحد الذي يجعل من سفينتنا الرثة بما فيه الكفاية تبدو لهم كأنها مارد أسطوري على طول الطريق ، والسبب انه لم تمر حتى الآن سوى البواخر الاجنبية الصغيرة القديمة ، أما البواخر الكبيرة فإنها تبحر بالطريق الرئيسي للبحر الاحمر ، غير عابئة بالمرور في هذا الميناء اليمني المتواضع .

الباب الخامس

- * بجمع على حاجز الامواج
- * الزخرفة العربية والجمارك
- * سيف الاسلام والبلاشفة الواقدون
- * الجاسوس المغضوح
- * رحلة سعيدة
- * "تابولسك"

بجع على حاجز الامواج

بابتعادنا عن اخر قطعة من الارض السوفيتية بشكل السطح الياهت ل " تايباسك " . حينئذ فقط وجدنا انفسنا على البساط المفروش على مؤخرة القارب ، بداننا نتصور بوضوح ، الى اى زمان سحيق قد فانا ، اثنا نبتعد اكثر من ثلاثة الاف كيلو متر عن اقرب شاطئء سوفيتى عن طريق الخط الجوى ، تبقى الطريق الى الهند الجزء الاقل من الطريق التى قطعناها ، اثيوبيا الحارة تحت متناول اليد ، انها فى الجهة الاخرى للبحر الاحمر ولا تبعد سوى اربع أو خمس ساعات عبر البحر ، والمسافة الى خط الاستواء اقرب من المسافة بين موسكو واوديسا ، الشمس والنجوم والهواء الخائق - كل هذا يشعرا باننا قد جذبنا الى عالم اخر ، معلق بين افريقيا والهند ، واننا قد اقتلعنا الى ما لا نهاية عن الوطن السوفيتى - نشعر كيف يصل رذاذ البركان الثورى ولاول مرة ممثلا بنا وكيف يصب حممه على سابع ارض واصلا الى هذا الميناء الذابى الشديد الحرارة .

تدفع الامواج القارب الواسع بقوة ، هذا القارب الذى قعد فيه ما يقارب ثلاثين شخصا ، وها هى تتناول بوضوح عظمة حلقة الميناء البيضاء الغربية الشكل ، يرفرف العلم الاحمر فوق واحده منها ، ها هى المدينة تمتد كسلسلة من الصعب ان تحيط بها بنظرة واحدة : السهل ، البيوت البيضاء ، الصفوف الطويلة لاكواخ من الطين والقش ، اشعة الصنابيق على الامواج ، او على هياكل القوارب فى الاماكن الضحلة ، حاجز الامواج الحجرى المتناول الى الامام لحماية مرفأ القوارب الصغيرة ، والشمس تحرق ، ك معدن مصهور يتصبب على الجسم ، تضرب مؤخرة الراس كما لو انها بمسامير ، لم ندرك كيف نصحو من ركام الانطباعات حتى كان حاجز الامواج امامنا .

الانطباع الاول عن الحديدية - سلسلة طويلة من البجع على حاجز الامواج واقفة بابهه ووقار بصنور بارزة ، طيور بيضاء ، تنظف اجنحتها بمناقيرها ، وتتنظر برياطة جاشى الى القارب الذى تتلاطم عليه الامواج الى الحاجز ، يتراكم اناس انصاف عمارة يربطون القارب بالحبال ، ايد ما تجذبنا الى الارض الثابته .

- الحمد لله .

لا اثر لنسيم البحر ، الغبار الساخن يلف من كل مكان ، نتجول انصاف عميان مع

مرافقتنا ، ندخل ابوابا ما ثم نصعد الى سلم داخلي طويل نمر باهنية وساحات مختلفة ، نصل الطابق الاخير ، نقعد على الكراسي منهكين ، نتطلع فيما حولنا ، نحن في غرفة ضخمة ، يهب نسيم بحري عليل من النافذة .

الزخرفة العربية والجمارك

نتطلع الى السقف : نواتر ملونة ، منحنيات ، نجوم ، كل ما يمكن توليفة من الخطوط الملتوية والمباشرة ، اشكال متنوعة لا نهائية ، تتميز بانه لا يوجد هناك شكلان متشابهان بين هذه الاشكال ، والالوان مختلفة ايضا ومتعدده الالوان والتوليفات ، هذه هي ° الزخارف العربية ° . نتفحص الاثاث والمفروشات وهي نصف اوروبية ، اى الخلط القريب بين الاسلوب العربي القديم وعدم النوق الاوروبي : مقعد رث منثور ، منضدة للعب الورق في الزاوية ، بضعة كراسي ، وعلى الجدران لوحتان زيتيتان انجليزيتان ذات موضوع حربي كذكرى للاحتلال الانجليزي للحبيده بعد انتهاء الحرب ، وغرفة المغسل - ارض حجرية ، برميل يستخدم كمغسل - يؤكد لنا العسكري المكلف بخدمتنا ان المياه كثيرة ، يمكن صب الماء والاختسال ، في الوقت الذي كنا قد خشينا فيه حتى من غسل اليدين بفعل تأثير كلمات الايطالي ، واعتقدنا بان الماء هنا ثمين او عزيز للغاية لقد اطمئنتنا بان المياه في الحديده كثيرة ، حقا انها مالحة الطعم قليلا ، لكنها صالحة بما فيه الكفاية للاغتسال .

بدانا نشعر بان الشيطان ليس مخيفا كما يصفون .

ونصب بشرارة على اجسامنا اكواب الماء ، ونغير بدلاتنا المبللة بالعرق .

ومن النافذة - نحن على ارتفاع الطابق الرابع - يهبسط البحر باتساع : طيور النورس ، الاشرعة ، وبعيدا في الافق شبح باخرتنا ، وفي الاسفل علي الشارع تمتد ارتال الناس السمر انصاف عراة ، الذين ينقلون اكياس الدقيق والسكر الذي جلبناه ، ينقلون من الرصيف الى مخازن الجمارك . ونرى من النافذة الاخرى في الاسفل السقائف المبنية ، مخازن الجمارك ، الالفنية المفتوحة الى الداخل لا يخشى عليها من المطر ، فهو يسقط مرة او مرتين في السنة ، نرى كيف تنمو تحت السقائف اكياس اكياسنا ، التي دخلت الشواطئ اليمينية لأول مرة .

الاجرامات الجمركيه ليست معقدة هنا ، تؤخذ الضرائب حسب عدد الاماكن ولا تتعدى خمسة بالمائة من سعر البضاعة ، النولة اليمينية لا تزال حديثة العهد ، وقد امتدت من الجبال الى

البحر في عام ١٩٢٥ فقط ، وشملت بنقودها الحديدية ، وقبل هذا كانت الحديدية محتلة من قبل الانجليز وصنعتهم الادريس (امير دولة عسير المجاورة) ، لم تدرك الحكومة اليمنية بعد كل قضايا السياسة الاقتصادية ، والبرجوازية اليمنية الميسورة لا تهتم الا بشكل ضئيل للغاية بتطوير الصناعة الوطنية كي لا تطالب بضرائب حماية كبيرة . لانها تفضل العيش على الصفقات التجارية ، وهي ليست على استعداد للتنازل عن تلك الارياح للخزينة ، التي يمكن ان تجنيها من الضرائب التي يدفعها المستهلك لصالحها وبالاضالة الى ذلك ، لا يستورد الى اليمن سوى المواد الاولية الضرورية وبشكل اساسي الدقيق ، السكر ، الكرومين ، الالقمشة ، الصابون والكبريت ، ولهذا فان السياسة الاقتصادية لم تخرج عن اطار التجارة الحرة البدائية ، فليس هناك لا بنوك ، ولا جمعيات المساهمين ، ولا جمعيات المساهمين ، ولا سياسة تحمي وتشجع الرأسمالية الوطنية التي لا تزال بعيدة ، ان اسباب غياب البنوك وانخفاض مستوى الضرائب في اليمن هو ان الحكومة ليست مرتبطة بمعاهدات غير متكافئة شكليا فقط بل ولا حتى عمليا يمكن ان تكون هذه الضرائب مرتفعة . وليس ان القوان قد حرم ذلك كما يفكر البعض .

اليمن ليست الصين او الهند ، يتحدث بفخر احد الوجهاء الذين قابلناهم ، فهي تستطيع رفع الضرائب ، ولكنها لا ترى الان ضرورة لذلك .

لكننا ضيوف ، يشعرون ان وقت الغداء قد حان ، نذهب الى الغرفة المجاورة ، نجلس على مائدة مستديرة مغطاة بعشرات الصحون من مختلف انواع الطعام ، هناك قطع من لحم الخروف ، والدجاج ، البقول ، البيض المقلى ، الارز ، وترتفع قنينة خاصة كبيرة من المشروبات ، يتناول مضيفنا امير الجيش واثنان من صحبة المقربين الطعام باصابعهم ، ويشرحون لنا انه من المألوف حسب الطريقة العربية الاكل بالايدي ، يرى العرب ان تناول الطعام بالشوكه او السكين يفقد طعمة ويكتسب طعم المعدن ، ومن اجل تذوق الطعام جيدا يجب تناوله بالاصابع ، وعلى كل حال ، ويتسامح ، ونتيجة لعدم خبرتنا بالاكل بالاصابع ، يقدمون لنا الشوك والسكاكين ، وبعد فترة تعودنا على الاكل بالايدي وبدانا نشارك وجهة النظر العربية .

انتهى الغداء ، شربت المشروبات ، وبلعت اقداح القهوة الصغيرة ، بتركنا مضيفونا الوجهاء لراحة ما بعد الغداء ، وترتمى على الاسرة المنتقلة منهكين ، تلك الاسرة التي اشتريناها ببعد نظر بواسطة الوسطاء في بورسعيد .

تمضى فترة ما بعد الغداء ، ساعة ساعتين والبشر السمر لا يزالون يفتلون الاكياس في الاسفل ، وفي الجهة المقابلة للنافذة ينحس بلا حراك بعض الحراس الذين يحرسون بنايتنا ، وكانهم قد تجعدوا .

يصل سكرتير الامير ويخبرنا بان الامير مستعد لا ستقبالنا بعد ساعتين ، وحتى ما اردنا ، ويقول ان الحكومة تنوى شراء الدقيق لاغراضها وباسعار السوق ، ثم يستفسر عن امكانية استمرار وصول البضائع السوفيتية الى اليمن ، وهل يمكن ارسال مهندسين وخبراء زراعيين وآلات زراعية ، وعندما عرج الحديث عن المواضيع السياسية باغتتنا فجأة برجو توضيح جوهر الخلافات الداخليه فى حزبنا ، وقد اتضح انه قد سمع فى مكان ما ، او قراء شيئا ما عن التروتسكية ، الجدل الحزبى الداخلى ، وقد انعكس كل هذا لدية على شكل تصورات غامضة ، وحاول تصورها .

لقد شكى من الانجليز ، لانهم يطالبون بخروج قوات الامام من المناطق المحاذية لعدن ، الان ان الامام غير موافق على هذا ، هناك احتمال ان يتعقد الوضع ، وقد عاد العقيد الانجليزى جبكوب الى عدن من صنعاء قبل اسبوع صفر البيدين ، ويخرج الايطاليون من الثقليمة ، لقد وقعت اتفاقية معهم قبل عامين فى صنعاء ، وحينها كان اليعمنيون يأملون بان تاتى بضائع جيدة من ايطاليا ، وان يدافع الايطاليون عن اليمن ضد الانجليز ، لكن هذه الامال خابت ، اما الان فلا وجود للوهام .

وبعد قليل يخبرونا بانالامير محمد (ابن الامام ، وامير الحديدية) ينتظرنا فى القصر ، نعتلى البغال ، التى قربت الى البوابة ، ونحن لم نعتاد على مثل هذا الركوب ، ومثلنا ، ظلت الحيوانات فى مكانها ، غير فاهمة اوامرنا ، تحرك اذنيها بارتباك ، ياتى العسكر لمساعدتنا ، فيقودون البغال بمقاودها ، نتحول الى الزاوية حيث ينقلونا لسبب ما على الخيل ، يظهر ان هذا زيادة فى الاهمية . لكنه يتضح ان الخيل ايضا غير متعوده على الركاب الواصلين من وراء البحار ، اكثر من البغال ، فتسير ايضا منصاعة للعسكري الماسك بعنقها .

نتحرك ببطء الى الامام فى غبار الشوارع المعتمه بمبانيه الطينية ، تخترقنا النظرات الفضولية من قبل المواطنين انصاف العراة لابسى العمائم ، الذين يمثل وصولنا بالنسبه اليهم حدث كبير ، يحيينا اثنان من الاوروبيين مجاملة ، نعرف ان الاثنين عملاء شركات ايطالية محلية ، نمر قرب مقهى ، حيث يقعد ما يقارب عشرين شخصا تحت ظلال سقيفتها ، يجلسون على مقاعد مجنولة يمتصون دخان التبغ عبر قصب طوال شببيه بحبال غليظة متصلة باواتى زجاجية غريبة الشكل يفور الماء بداخلها ، هذا هو تخمين النارجيلة .

تنتهى ساعات ما بعد الغداء ، ساعات القات ، القات هو شجرة صغيرة لطيفة ، تحتوى اوراقها على بعض انواع المخدر على ماينبو ، ويعتبر القات المصدر الاساسى لمثقة جميع

السكان صغيرا وكبيرا ، دون التمييز فى الطبقة والسن ، وبعد ساعات القيلولة ، يشتري القات كل من يملك حتى بضعة قروش ، يضع قاته على السجادة او على سرير القش ، او ببساطة فى غبار الشارع ، يمضغ اوراق القات الخضراء المخزونة فى فمه مسبقا الموضوعة بعناية على شكل حزمة مربوطة .

ينتقل الناس فى هذه الساعة الى حالة ارتياح مخدر ، ينفسون عن انفسهم بشكل مصطنع تعب نصف النهار المعاش ...

نمرق بين السقائف المعتمه لسور المدينة ، نبتعد خارج حدود المدينة ، نخلف المقبرة ، الخلاء الرطب الذى تتناثر فيه الاحجار بدلا من مشاهد القبور ، وعلى الجهة اليمنى - اكواخ طينية نصف دائرية ذات قباب وجداحة من القش ، نشعر هنا بالاسلوب الاقريقي وبعيدا تتماوج مثلونه فى امواج الهواء المندفع جدران البناية الكبيرة ، النخيل على جوانبها ، والحرس انصاف المعراة عند بواباتها ، مشدوهون من اشعة الشمس المخدرة ، محترقون فى الغبار النارى ، نزل من فوق الخيول المقادة الى جناح القصر ، نصعد السلم انصاف نائمين باتجاه غرفة الامير ، ان غرفة الامير ليست مكتب عمل بل غرفة للراحة ، وعلى الاراتك المفروشه بالوسائد ، يجلس اشخاص انصاف مضطجعين يعتصون دخان النارجيلة بتلذذ ، ويرتابه يمضغون اوراق القات الخضراء ، وعند دخولنا نهض احدهم ، لا بسا عمامة خضراء وقميصا ابيض واسعا ، حيانا بالطريقة الاوروبية مادا يده ، هذا امير تهامة (الخط البحرى) الابن الثانى للامام ، الامير محمد ، وكان المحيطون به معروفين لنا لقد رحبوا بنا على ظهر الباخرة الامير - متوسط الطول ، اسود الشعر بلحية قليلة الكثافة . ملامح وجهه دقيقة ، ونظراته ذات تامل ، صوته هادى وذى جرس صادق يبتسم له كل الوجهاء ببشاشه وانسجام يلوحون بالمرآوح بانتظام ، يدعوننا الامير للجلوس ، ثم يقدمون لنا الشربات والقهوة التركية ، يبدأ الامير الحديث ، وللأسف اسمع حديثه عبر المترجم ، لم يكن بمقدورى النقاط خصوصية حديثه الاحتفالى ، ولهذا فانى ساكتفى بالنقل الوثوق لحتوى حديثه .

سيف الإسلام والبلاشعة الواقدون

قال الامير - نحن نعرف عن روسيا السوفيتيه ، وانه بفضلها نجحت تركيا فى التضال من اجل الاستقلال ، نعرف ان لديكم اهتمام باقامة علاقات حسنة مع شعوب الشرق .

ينظر كل منا للاخر باهتمام ، فلوضع فرادته : هو - ابن رأس السلطة الدينية -
الاقطاعية لليمن ، خلف اقدم السلالات الملكية في العالم ، التي تدعى نسبها الى النبي محمد
صلى الله عليه وسلم ، عليه عمامة ولباس حريري يتحدث بلغة القرآن الموزونة المنظمة ، المليئة
بذكر الله ومقتطفات من الكتب المقدسة - ونحن - الواصلين لتونا الى هذه الارض - ننتمى الى
الوطن الاشتراكي الشمالي البعيد ، البعيدون كل البعد ومن كل النواحي عن محدثنا ، نحن
مبعوثى سلطنة العمال والفلاحين ، ولاول مرة يلتقى وجهها لوجه بلاشفة روس وممثلاً
الارستقراطية اليمنية القديمة ، وبينما كان الامير يتحدث كنا نحن وجلسائنا نتبادل النظرات ،
وكانما لدى الجميع فكرة واحدة - عن الطريقة غير المألوفة ، التي التقى بها ممثلوا عالمين
مختلفين الى ذلك القدر من الاختلاف مظهراً ومسافة ، زمنا ومحتوى .

لكن الصيغ الدينية التي يتحدث بها الامير بدأت تتضاؤل قليلاً قليلاً وتحل محلها الصيغ
السياسية المألوفة لدينا تشق طريقها ، وشيئا فشيئا بدأنا ندرك ان اخبار واخلاق وطننا وصلت
حتى الى هنا الى اليمن المهجورة العائشة في مرحلة ما قبل التاريخ ، انعكست بغرابه عبر
النفسية الاقطاعية الاكبريكية الاصيله مكونه تصورات فريدة خاصة عن بلدنا ، وبدأ شعورنا انه
حتى الفة الحاكمة تميل الى اعتبارنا وكاننا معاريف وتنتظر لنا بقدر كبير من احتياطي الامل
والثقة ، وانه سيسوى مع الزمن كل الفرق الهائل بين الوجود التاريخي والاجتماعي لبلدنا .

وبعد ان تحدث الامير عن التجارة ، وبعد ان وعد باننا سيساعدنا على رواج بضائعنا ، بدأ
الامير يستفسرنا بالتفصيل عن الوضع العالمي ، أخذنا بلدا بعد بلد ، استعرض باهتمام الصور
الغوتوجرافية التي جلبناها ، وفي الاخير وجه مجموعة من الاسئلة عن الوضع في الاتحاد
السوفيتي ، ونضطر ان نعيد له رواية وجهة نظرنا حول الاحداث في الصين وجوهر الخلاف مع
التروتسكية (لم يعرف هذه الكلمة بالطبع ، ونحن لم نعرف بسرعة ما الذي كان يقصده) ،
يسأل حتى عن قضية المنجم ومصير المهندسين الالمان في الوقت الذي لم نعرف فيه نحن الا
في الباخرة عن طريق اذاعة التقطت الصدفة بان قضية المنجم قد بدأت .

وفي نهاية حديث سيف الاسلام - هذا هو اللقب الرسمي للامير - يقوم بمحاولة خطيرة لمد
جسر بين وجهتي نظرنا ، ويقرر قرابة الاسلام مع اليلشفية ، والقرآن مع برنامج الحزب
اليلشفي .

- ان تبيننا ايضا قد دعى لضرورة المساواة والاستخدام المشترك للارض وحرم الربا
وعاش فقيرا ... اما نحن فقد ابتعدنا عن الدخول في جدال عن المواضيع الدينية .

ثم تتبادل الآراء حول بعض القضايا الأخرى وينتهي الحديث ، يقول لنا بأن السفر الى صنعاء مرتبط برغبتنا فقط ، علينا تحديد يوم السفر وسيقدم لنا كل وسائل الحركة مع حراسة ومرافقين . نعود بالكاد واصلين الى البيت ، ومرة أخرى نرتدى منهنكين على الأرائك والأسرة بيدو اليوم طويل للغاية لفيض الانطباعات ، نجلس للعشاء على ضوء مصباح الكروسين الباهت

الجاسوس المفضوح

... كل شيء يبدو جيدا ، لولا هذا المترجم الذى لا يطاق ، فؤاد المصرى يقعد معنا بلجاجة ، لا يبتعد عنا حتى اثناء العشاء ، يلح بأسألته الوقحة بما فيه الكفاية يحاول ان يعرف كل ما تحدث به بعضنا البعض يعرض خدماته بالحاح فى البحث عن مقر دائم لشركتنا ، نحاول ان لا نعيده اهتمام ، لا نتحدث معه لكنه يظل جالسا بثبات ، وبإصرار حتى نبدأ بالتهيؤ للنوم .

ننام تحت هدير الامواج الذى لا يهدأ ، وتحت ملاطفة النسيم البحرى الذى يخفف انحباس الهواء الذى لا يطاق فى اليوم التالى ياتى امير الجيش قلقا ، يبلغنا نصيحة الامير بعدم التحدث مع احد حتى عن أصغر الأشياء الجدية ما خلاه ، الحديدية تعج بالناس المشبوهين ، فالمترجم فؤاد مثلا ليس مترجما للمحافظ على الاطلاق بل هو عامل جمرى ذى علاقات غامضة ، ماكاد ينهى كلامه ، حتى يدخل فؤاد الغربية مندفعاً متهللاً مختالاً ، وعلى فمه ابتسامه راضية وكأننا معاريف معه قدماء انهال علينا .

— آية ، ايها السادة ، بالنسبة للمقر ... فلقد وجدت لاجلكم مكان ...

يسقط نظرة على وجه امير الجيش القاسى الشبيه بالباشق ، فينكمش وينحنى ، يسمع الى كلمة ما قصيرة تجعله ينكمش اكثر ، ويظير غير مكمل عبارته التى بدأها .

نعلم بعد بضعة ايام انه سرح من الخدمة ونفى الى جزيرة كمران المحتلة من قبل الانجليز ، لم يبقى لنا سوى التحسر على علة الكافيار ، التى تقاسمتها مع من اختياطنا الضئيل ، وعلى فيضان المشاعر فى اليوم الاول ، وعلى كل حال فإن نفية لم ينقص سوى قطرة من بحر النساء الاجنبية التى تغمر اليمن الصغير ، وقد حدثنا بعض الشخصيات اليمنية فى صنعاء فى وقت متأخر :

فى الأذقة الخانقة بالحديده

يوم ، واخر تتجول فى شوارع الحديده ، نحاول التقاط نبرة وايقاع المدينة المجهوله .
شوارع ضيقه ، عتمه ، اختناق ورطوبه ، تحت السقائف القشيه والخشيبه فى السوق ،
بجانب الاكياس والسلاله ، يجلس ناس معمومون انصاف عراة يلوجون باعياء بما يشبه المراوح
اليديه ، وفى الاكياس بصل ويطاطا ، تمر جاف مغطى بالعفن ، قشر البن ، دخن ، ذرة ،
تجلب التمور من بلد الرافدين ، اما كل ما عداه فهو انتاج زراعى محلى .

فى صفوف الاقمشه ، - اقمشه هديه فخمة ، ديباج مخيط بالقضه ومطرز بالاحجار
الملونه ، والى جانبها تسقط المتاع ، اقمشه يابانيه رخيصه من صنع شانخاى وتشكيله من كل
انواع الاقمشه هنديه خفيفه والمانيه - ونمساويه وايطاليه وانجليزيه من صنع مانسستر ،
وبالطبع توجد مصنوعات يعنيه خالصه مثل السجاد الخشن من الخيش ، الحواشى ذات اللون
الابيض والاحمر اللون الخالص تصنع من القطن المحلى وتصبغ باصباغ نباتيه
محليه .

ومن البضائع الاجنبية التى تلفت النظر : الدقيق الهندى الابيض الذى يصنع منه خبزاً
شهيا بأرغفه النشاء ، بدون طعم يجف خلال بضعة ساعات السكر من يافا وتشيكوسلوفاكيا
، الكروسين من كل الشركات : " ستاندارت اول " ، " شل " وحتى " فيوميه " من ايطاليا ،
كلها تتنافس مع بعضها البعض فى ازقه الحديده الضيقه ، الكروسين الايطالى هو فى حقيقه
الامر من مدينة " باتومى " السوفييتية لكنه مخفف فهو لا يصلح لشمس .

السوق

بائعو الخضار ، القشامون ، بائعو البضائع الصغار - كلهم من العرب المحليين ، اما
الاقمشه بشكل عام البضائع الاجنبيه فتتصرف بها الهنود غالباً ، هؤلاء الهنود - وعددهم
يقارب المائتة كلهم تقريباً من مواليد سرات ، تلك المنطقه الهندية ، التى عرفت باندىء ذى بدء فى
تطور الصناعه الوطنيه الهندية انهم من المسلمين وكلاء شركات بومباى وهم على ارتباط بها
بواسطة فروع عدن ، لى كثيفه عريضه ، اطواق على الرأس تجعلهم يتشبهون باليهود ، لكن
هذا ليس سوى خداع للنظر ، تتركز التجاره الخارجيه فى الحديده بايدي الهنود ، اما التجار

تنهق الحمير وترغى الجمال ، المعدمون يمدون ايديهم يطلبون الصدقة ، يظهر المجانين والبلهاء المنفردون هنا وهناك يصرخون بعبارات غير مفهومة ، تدق مكانن الخياطة ، يخشخش البن على المناجل والمذارى ، يتصيب العتالون السود عرقا ، ينقلون الاكياس من المخازن على الشاطيء ويشحنونها على الصنابيق ، وينقل مالكو القوارب الحمولة الى ظهور البواخر الراسية بعيدا عن الشاطيء .

فى المساء تضىء مصابيح الكروسين تحت العقود الضيقة لسقائف السوق ، يبدأ تلالها بشكل اكثر غراية واثارة لزخارف الاقمشة الهندية ، والاكياس الشوهاة لقشارة البن ، والطباق الطويلة لاوراق التبغ الجاف المفروشه على المناضد القذرة فى الدكاكين ، فترة الغسق قصيرة وسريعا ما تحل ظلمة حالكة ، تغلق الحوانيت ، تصر بوابات السوق الرئيسية المتداعية عند اغلاقها ، يظل الناس جالسين فى المقهى ، فى الساحة على مقاعد وسخه من القش ، والباعة ، العساكر ، الموظفون يظلون حتى ساعة متأخرة من الليل يدخلون النارجيلة ويشربون القهوة القشر او الماء البارد براحة الكف .

الى الشمال والى الشرق من السوق ، وخارج جدرانه معزول بخط عريض ، ليس بشوارع وليس بارض خالية ، يمتد الحى " الصناعى " يسمى - سوق الهند ، هذا السوق الذى يتمير بانه لا يوجد على ما يبدو فيه ولا هندى واحد ، يشبه " مدينة الصين " السوفيتيه ، التى نادرا ما تلتقى فيها بصينى واحد ، هناك ايضا سوق صغير لكن حوانيته اكثر بؤسا ، وفى اكثر اطرافه الاكواخ الصغيره من الطين والزجاج المكسر المغطاه بالقش ، ومحاطة بحواجز مجبولة من القش ، وفى هذه الاكواخ - الخيم تتكدس الصناعة اليمينية الجينية بعمل النساجين البدائيين .

كلا ، ليست هذه معامل ؟ فراء الحواجز لا توجد اعمدة الدخان ، ولا تسمع حتى دقات المغازل ، لكن يمكن رؤية شخصين نصف عاريين قائمين على الارض يترامون بالتناوب بمكوك خشبى عبر صف من الخيوط المشدودة ، هكذا يتشكل النسيج الضمن بالتدريج ، ثم يصبغ فى المصابغ بطريقه يدوية باللونين الاحمر والازرق . ويسيت بضربيات قوية من مذاق خشبية غليظة غير منجرة ثم يفرش تحت الشمس . يمكن احصاء ما يقارب العشرين من هذه الاكواخ فى الحديدية ، وهذه هى جنين الصناعة الضعيفه لليمن ، اما الصناعه " الثقيله " فهى ، فى القسم البحرى للحي الموجود خارج المدينة حيث يوجد كوخان او ثلاثة . تتقد النيران على الارض ، وفى المجرمة ، ينفخ على الفحم من قرب عبر انبويتين (*) . يجلس شخص القرصاء يحاول

(*) - يقصد الكاتب كير العداة

مساعدة هذا " القرن " البسيط باصلاح المسامير القديمة ، اللوالب ، ترميم الاشياء المعدنية هكذا هي " المتالورجيا " المحلية .

السفن القديمة

وهناك ايضا - بناء السفن ، فى المكان القحل من البحر يقف هيكل قارب وحيد لم يكتمل بناؤه ، ويجانبه يتحرك مجموعه اشخاص يدفون الالواح ، يثبتون الدفة ، وبالقرب - عصى والواح واخشاب ، خمسة او ستة قوارب تتراقص على الامواج ، ويجانبها عشرة صيادين شبكة الصيد ، وعلى الرمل يجلس عجوز عارى يرمم شبكة قديمة ، هذه - صناعة السفن المحلية واستخراج السمك ايضا .

الساحل - هو افضل جزء فى المدينة ، مهواء بنسيم البحر ، هنا تقع افضل المنازل ، وان لم تكن فخمة فهو مع ذلك الاكثر اعتبارا ، بهجة تطل على البحر وهنا توزعت كل الشركات الاجنبية تقريبا : شركتان او ثلاث شركات ايطالية ، وشركة يونانية ، وشركة مصرية ، وشركة فرنسية يمثلها احد السوريين ، الذى حافظ غريزيا على اليافطة القديمة لشركة سفن فرنسية ، تلك الشركة ، التى لم تعبر الحديد ولا واحد من سفنها منذ زمن طويل ، يهدف نشاط هذه الشركات الى شراء البن وتصديره الى الخارج بشكل رئيسى ، وخدمة البواخر الاجنبية التى تمر فى الميناء ، هكذا ينمو رأس المال الاجنبى ، الذى لا يجد اصل فى اليمن ، لكن حتى هذه الشركات فانها على ما يبدو فى طريقها الى الاندثار ، نظرة سريعة واحده تقول لنا بان التصور القائم حول التأثير الايطالى القوى فى اليمن ، هو من صنع الايطاليين انفسهم بشكل رئيسى ، وقد تعزز هذا الانطباع بعد حصولنا على الاحصائيات الجمركية فى الحديدة .

رأس المال الأجنبي

واذا تحدثنا عن دور رأس المال الاجنبى فى اليمن ، فانه يجب وضع التجار الهنود الذين سبق ذكرهم فى المرتبة الاولى ، انهم حملة التوسع التجارى - الصناعى الهندى ، الذى لم يجد امكانية للتطور فى بلده المستعمر ، بسبب كبحته بالاضطهاد الامبريالى الانجليزى ، يقتنون بمثلهم الراسمال الصينى ، الذى يهرب من الصين الى جزر زوند ، وسيام والهند الصينية ، وهكذا فان الهنود يرحلون الى اليمن ، والمصريون الى الحجاز ، يزاحمون فى قاعدتهم

الوطنية ، من قبل الامبرياليين الاجانب ، فيسعون الى ان يعرضوا انفسهم على حساب الشعوب الاكثر ضعفا .

تبرز المحطة التجارية للبن ، بين المشاريع العربية التي ترمز الى نمو الراسماليه الوطنيه اليمينية ، تلك المحطة الواقعه على الرصيف ويملكها عمر المزجاجي اكبر مصدرى البن ، كما يشاهد " فندق " حكومى للضيوف الاقل الاكثر وجاهة .

اخيرا فان اجمل بيت و هو بيت المحافظ ، الذى اسكنونا فى احد طوابقه كعلامة تشرىف خاصة هذه المرة ، هذه البيوت ذات طراز واحد : ثلاثة او اربعة طوابق بيضاء ، تكميات مختلفه من النوافذ ، سقف غالبا ما يكون مقسما الى غرف تغطيها السماء بدلا من السقف ، التقسيم المعتاد للبيت - تكون الغرف المأهولة بالسكان فى الطوابق العليا ، والمخازن ومساكن الخدم والحرس والمكاتب فى الطوابق السفلى ، ولكل بيت فناء داخلى ، ويشكل سور البيت ، شرفات داخلية وسلالم متعرجة ، ومن ضمن المنازل الموجودة فى الساحل - بناية خشبية صغيرة والى جانبها مقهى - ادارة الميناء وفيها مركز نشاط مدير الشرطة ، الذى يقوم بالمحاكمة والقمع فى الحال ، هو الذى يستجوب المتهمين ويعاقبهم بيده ، اما بالسوط ، او بقبضته وذلك حسب الظروف ، بدون بيروقراطيه او مماطلة ، زد على ذلك يتم بوجود رقابه "رقابة جماهيرية " . كل شىء يتم امام اعين الجمهور المتجمع عند الرصيف .

وعلى جهتي الحديدية ، الى الشمال والجنوب منها قلاع صغيره مسقوفه ، وابراج وحاميتان : - هذه القلاع - للدفاع عن المدينة من القبائل الغير مأمونة المحيطة بها : يختفى النمط العسكرى فى الحديدية صباحا ، وذلك بانتعاش تجارة السوق ، اما فى المساء ، حين يهدأ السوق ويخرج العس الى الشوارع يحرسون مداخل ومخارج المدينة ، فان النظام العسكرى يلمس بكل اكتماله .

يسرع الساهرون الى بيوتهم تحت صرخات العسكر ، اما عابرى السبيل المتأخرين ، فلا يسمح لهم بدخول المدينة الا بعد مباحثات وتوضيحات مطولة .

وحتى الصباح يذكر العسكر بانفسهم ، باقامة السير النظامى فى الاعياد فى الساحة وبعد الصلاة فى المسجد وهذا تقليد باهت للاتراك ، وكذلك مرتين كل يوم بعد انتهاء ساعات القات وبعد غروب الشمس ، تنتظم جوفه نحاسية امام البيت الذى يسكن فيه الامير ، وفى تلك اللحظة تنوى باصوات حادة ثابتة بالمارشات العسكرية التركية ، خارقة بذلك السكنية الناعسة للارقة .

وعند الفجر فقط ، حين تغطس مجموعة من القامات العارية التي تستحم منفردة في مياه
الأمواج ، حين تغلق صناديق الصيادين من الشاطئ ويصبح برميل الماء الذي ينقله الجمل
في الشارع متوقفا عند كل بوابة - يذهب العسس وتبدأ الحياة الطبيعية في
الغليان

الباب السابع

* ليلة ضائعة في تهامة

* على سيارة إلى باجل

* الغتران الطائرة

* الرهينة

* جيكوب

ليلة ضائعة في تهامة

نتجهز ، نتفرق إلى مجموعتين ، اثنان بذهبان إلى صنعاء واثنان ببيقان في الحديدية .
الأشياء قد حزمت على الجمل - الذي سيسبقنا بتصرف نهار ، الجمال تسير ابطء من البغال
لكنها أكثر انتظاما تستعد للرحيل على البغال ، تفرد لنا حراسة بأمر من سيف الإسلام ما
يقارب درزينة من العسكر تحت امرة شامويش ، في المغرب تقوم بزيارة وداع للأمير ، ونستمع
منه إلى نصائح قصيرة حول كيف ومع من نتحدث في صنعاء ، نتحرك برفقة حرس المشاة
بينادقهم المعلقة على اكتافهم ، يخرج معنا رتل من المودعين إلى خارج حدود المدينة ، يطوّر
العسكر الواحد بعد الآخر ، يتعد المودعون ، ها هي البغال تسير بانتظام تتناوب أرجلها غير
المنعلة لتحملنا على السطح المظلم .

تبتعد واجهات البيوت البيضاء عميقا ، يخف لمعان البحر ، تترامى المساجد ومراكز
الحراسة ، واكواخ مشارف المدينة ، بضعة نخيل ، وما هو التبخر الخائق للسهل الرطب يلفنا .
لا شيء في الامام ما عدا اشباح التلال الرملية ، نشاهد اكمة الحسك على الجوانب ، وبالكداد
نلحظ خطوط الطريق الضائعة في الرمال ، ومن بعيد نسمع نباح كلاب البنو التي تحرس
قطعان الجمال المتجولة التي يلفها الظلام الدامس .

يرفع العسكر اصواتهم بأغنية ذات نغمة واحد وهم سائرون ، تلك الاغنية التي يبدو ان لا
احد يفهم كلماتها ، بل وليس معروف ان كانت هناك كلمات ، يمكن فهم كلمة " الله " فقط في
بليلة الاصوات الحجرية المبهمة ، الصحراء صامتة بحذر تضمنا في ممسакها الخائق الساخن ،
تبدو في السماء نجيمات اربع موزعة على شكل صليب صحيح قريبة من الافق الجنوبي ، تؤكد
مجموعة النجوم " الصليب الجنوبي " مرة اخرى اننا لسنا بعيدين عن خط الاستواء ، وعلى بعد
الاف الكيلومترات من الاراضي السوفيتية لسنا اول بلاشفة فقط ، بل واول روس يسيرون في
مجاهل هذا البلد الذي يبدو بشوشا مضيافا والذي لم يرائنا ولم نراه .

على سيارة إلى باجل

يبدأ نباح الكلاب البوية قليلا قليلا ، يلتحق " الصليب الجنوبي " بالسحب ، ثم تغطي كل
السماء بالسحب ، في هذه الظلمة ، حيث تسمع نبضات القلب وتحس بتوتر اعصاب الصدغ ،
ويحدة متميزة نشعر بأنفسنا شرارات الثورة العالمية التي تطايرت حتى إلى هنا ، إلى البعد
السحيق للصحارى العربية الجنوبية .

تسير ساعة ، ساعة أخرى وثالثة ، وفي الظلام تتراعى ملامح آبار الماء ، حفر كبيرة عليها حائط من الطين ، يعلو العسكر الزمزميات ، يشربون الماء بشراقة ويقترحون ان نعمل مثلهم ، تمتد الايدي بلا ارادة لعلبة الصفيح المغرية والمسدودة بكل تكرم ، لكن فكرة احتمال ان يكون هناك ، في قعر البئر هيكل عظمي لجمل ، (ومثل هذه الحادثة ليست نادرة) يمنع الشفاه الجافة من المياه الوسخة العكرة رغم اغرائها ، تتحرك ، تضيق المعرات وكأنها قد اختفت كلياً ، تبدأ البغال الخطو على الرمال اليابسة مخترقة الشجيرات الشوكية احياناً ، تبدأ التخوف من ان نكون قد اخطانا الطريق ، لكن هل يمكن الشك بـ " ابناء الصحراء " في معرفتهم طريق الحديدية - صنعاء ؟ نتذكر الحكايات عن مقدرة البئر على معرفة الاتجاه بواسطة الحشائش ، النجوم ، هبوب الرياح واثار الحوافز ، يبدو ان الشك في امانة قيادتهم نوع من التجديف ، يعنوننا بالتوقف بعد ساعتين ام ثلاثة ساعات ، في قرية تمنه الصغيرة ، التي تقع في منتصف الطريق بين الحديدية ومركز باجل الكبير ، يوجد في تمنه اسرة ، ماء ، قهوة القشر الساخنة ، هناك تنتظرنا فترة استراحة طالما اشتقنا لها ، وبالفعل سرعان ما ظهرت اضواء بعيدة .

تحت البغال الخطى سائرة خائفة في بعض الاحيان ، يوضح لنا العسكر بان تمنه ترى في الامام نشد على اسناننا بقوة لكبح الانهك اللامحسود من الارتجاجات والحر والعطش والكتمة والرشح نشعر بأنفسنا كبيض غسلت ضرباً بالعصا ، وان كانت قد سيطرت فكرة اننا قد قطعنا المرحلة الاولى من الطريق تقريباً (وبعد زمن عرفنا ماذا تعنى كلمة " تقريباً " في اليمن) ، تشد العضلات والاعصاب وكأنها صوملة فولاذية مخفية ، فالاضواء رغم انها بعيدة لكننا نراها في الامام ، يتبسط التموج المتحدب للسهل البعيد ولاجمعات الاشجار (كالكسك) والاماكن العارية الجدياء واحجار الملح المتبخرة تصير الاضواء اكثر لكثير اغراء ما هي الحزم الضوئية تتلألأ عن قرب وكأنها صادرة عن كشاف ضوئي احترقنا ، من اين مثل هذه الاضواء المساطعة في قرية بدوية نائية لا توجد في أية خريطة اوروبية .

الاضواء اكثر فاكثر سطوعا ، ولم يبقى للوصول إلى القرية سوى نصف ساعة من الطريق ، وفجأة يقطع العسكر اشارة التوقف للراحة ، سنستلقي على الأرض التي لم تبرد بعد من قيظ الشمس ، نعلم باننا سننام قريباً على اسرة من الحبال المفتولة ، وقرب الصباح سنكون قد وصلنا الى باجل التي تقع ورائها الجبال الباردة ، منابع الماء البارد وصنعاء المشتهة .

لكن العساكر يتهامون فيما بينهم طويلاً وبشكل مثير للريبة ، يقترب رفيق منهم ، يقولون له : امامنا الحديدية ... انذهب اليها ام نرجع مرة اخرى الى السهل ؟

يتضح فعلاً باننا قد اخطأنا الطريق ، وذلك لان العسكر فى بحثهم عن طريق مختزلة ، التمس عليهم الامر ، وبعد ان قطعنا خطاً منحنيًا فى الصحراء الى حيث انطلقنا ، ولم نفهم خطانا الا ونحن على مقربة من اسوار الحديدية ، حيث كنا قد رحلنا منها قبل اربع أو خمس ساعات ، نأثرون سدى فى قيظ تهامة المضى .

ان موجة الغضب التى اجتاحتنا امام هذه الحقيقة القاسية والواضحة غير قابلة للنقل او التعبير وما كان يمنعنا من ابداء مشاعرنا إلا ادركنا لهمتنا السامية ، وتخوفنا من أن تكون بعض الكلمات الروسية معروفة حتى لأبناء الصحراء ، فتسبب لسمعتنا .

لقد كان طلب توضيحات من العسكر أمر زائد عن اللزوم ، وعلى كل حال ، فإنهم كانوا قد ردوا على كل هذا بجواب مقحم : " هذه مشيئة الله " ، حتى أن مجرد التنفيس وافرغ ما فى النفس كان صعباً وكان العتاب واللوم ممنوعاً ، وذلك لأن دليلنا كان متحك القوى ومملوء بحالة احباط واستسلام نفسى ، كما أن ذخيرتى من اللغة لا تعدى كلمات " جيب ماء " ، " الحمد لله " ، وكذلك " السلام عليكم " و " بخشيش " . وكل هذه الكلمات لا تصلح لهذه اللحظة أو للغرض الان ، فالهاء قد انتهى عند العسكر ، وشكر الله أقل ما يناسب الطرف ، ولا يوجد أحد لنسلم عليه ، ويبقى فقط مناقبة العسكر بحرمانهم من " البخشيش " ، تعزية خفيفة لضياح أيام ، وإيلة ضاعت سدى بدون نوم .

- أمر جيد باننا رجعنا إلى الحديدية ، أما لو كان سيرنا يمينا إلى الجنوب ، لـ " وقعنا مباشرة فى يد الزرانيق " .

والزرانيق - هى قبيلة تقع على مسافة خمسة عشر أو عشرين كيلومتراً إلى الجنوب من الحديدية ، وقد انتفضت على الامام بتحريض من الخارج ، ولو وقعنا فى قبضتهم ، فإن عساكر الامام كانوا سيقتلون بلا شك ، أما نحن ضيوف الامام فكانوا سيحطمون عظامنا أو ربما شيء آخر ، ونضطر لأن يكون هذا عزافنا .

ندخل إلى شوارع الحديدية الخالية ببطء مرهقين ومشعثين ، ينادى علينا الحرس انصاف النائمين ، ويستمعون حائرين لشرح عسكرنا ، نصل إلى البيت نتهاك فى غرفنا (غضب رفاقنا الذين بقوا فى الحديدية يقتور وقد كانوا نائمين) وشرب كل واحد منا - وهذا اربعهم أكثر - سبع أو ثمان من قوارير المياه المعدنية ، ثم نرقد بعد ذلك ونحن فى غاية

الاعياء بعد أن حصلنا من الشاويش على وعد بان المحافظ سيسعى فى الصباح لتجهيزنا بسيارة ، تمام وملء اذاننا المثل القائل " ثق بنفسك فقط ، ولا تثق حتى بالعربى فى الصحراء " . (١)

نفذ سيف الاسلام وعده ، وتتخذ اجراءات ما بطولية لتجهيز السيارة ، وفى الساعة العاشرة تقريباً من اليوم التالى ، نرحل على سيارة غريبة الشكل تنهب الصحراء تحت شمس الظهيرة المنصر (إلى بأجل) ، ومع ذلك فى خلال ثلاث - أربع ساعات .

والسيارة التى أعطيت لنا هى عيارة عن سيارة نقل بسقف مركب ، ومثبت بداخلها مقاعد خشبية مليئة بصفائح الماء ، الذى يجب أن يصب على المحرك المكشوف الساخن كل خمسة عشر أو عشرين دقيقة .

وهذا العمل يشد الصوملة فتندفع سحب البخار ، الذى يفتح ، فيصب عليه الماء من الصفيحة فوراً السائق سودانى شأنه شأن أغلبية العمال التقنيين فى الحجاز واليمن . يتطلب الأمر الخروج من السيارة أكثر من مرة ودفعها بجهود مشتركة تنتشلها من الرمال الحارقة .

تكون الطريق فى البداية محاذاة لشاطئ البحر ، نشاهد فى البعيد تقاسيم شبه جزيرة ونخل متمایل ، لقد نوى الفرنسيون قبل الحرب مد سكة حديد من شبه جزيرة رأس الكتيب إلى صنعاء وقد بقيت فى الحديدة قاعدات عربات صندك مرمية هنا وهناك كذكرى لتلك الطريق ، وبعد نصف ساعة نلف إلى الشرق مباشرة ، قاصدين أشباح الجبال البعيدة البادية فى الأفق ، نقطع تهامة ، تاركين إلى اليسار الطريق الشمالى لليمن تلك الطريق التى تؤدى إلى مناجم الملح الحجرى فى الصليف وإلى ميناء اللحية والميدى .

تهامة - هكذا يسمى القسم البحرى من اليمن والممتد من الشمال حتى الجنوب من حدود البلاد وتفيض تهامة فهى الجبال ، ويضم القسم الجبلى من اليمن الجزء المركزى والأساسى فى

(١) هذا المثل غير صحيح ، حتى فى هذه الحالة ، فالقضية تكمن فى أن مرافقنا من العسكر كانوا من سكان الجبال ولهم فترة قليلة فى تهامة . وتحت تأثير الجهل الأوربى فقط يمكن احتساب كل العرب " أبناء الصحراء " وبدو الصحراء هم من البدو الرحل فقط ، اما ما يتعلق بالفرق بين الجبل وتهامة فيمكن أن يشهد على ذلك حتى تقسيم الجمال فى اليمن إلى جمال جبلية وجمال صحراوية والفرق يشير إلى كيف يكون الجمال فى الصحراء أو العكس . (المؤلف) .

البلاد . أما القسم الثالث - فهو ما وراء الجبال الذي يمر عبر الصحراء وهو قسم معزول نادرا ما يكون مأهولا بالسكان وأهميته ثانوية .

وتهامه في قسمها الملاصق للبحر مباشرة هي عبارة عن سهل فسيح ، من قعر البحر المتبخر يتلاله المتجمدة الشبيهة بالأمواج ، وأشجار الساكسول النادرة على قمم التلال ، ونادرا ما تخرق سيول المياه هذه الأرض القاحلة ، وواحات من بعض نخيل غير مثمر أو قطعان النعاج والجمال التي ترمى ، يصادف في الطريق بعض المسافرين المنفردين على بغال أو على الحمير ، قوافل من عشرين جمل تحمل أكياس البن ، وفي النادر يتراى شبح غزال رشيق أو أرنب يركض فزعاً من هدير السيارة ، وهكذا نمر على نمرة ، التي أتضح أنها قرية تتألف من أربعة أو خمسة أكواخ من القش ، متجمعة حول بئر صغيرة ، والمساء المشتبه لم يعد الآن ضرورياً ، لذا فنحن نسير بلا توقف ، وراء نمرة تبدأ المنطقة بالانتعاش تصير الجبال أكثر وضوحاً ، ولم تعد الرطوبة البحرية الخائفة ملموسة ، وتشاهد قرى كبيرة فيها من أربعين - إلى خمسين كوخ أو أكثر ، ويحيط الأطفال السمرة الصغار بسيارتنا جماعات حين نتوقف لصب الماء في المحرك ، نرى حقول الذرة والشعير ، بدأنا نصادف سيقان الاثل المعوجة ، كانت هذه الاشجار في البداية منفردة ، ثم أصبحت بأعداد كثيرة ، مبعثرة في السهل ، كالجنود في شتى الاتجاهات ، كنا نعبر أحياناً مجرى نهر قد جف وتحجر ، يجري فيه سيل صاخب في وقت نزول الامطار ، لكنه يجف مرة أخرى بعد بضع ساعات ، ها هي الجبال تصبح قريبة جداً ، نجتاز أول مجموعة منها ، تقترب من بأجل .

أصبح أصعب قسم من تهامة وأكثرها كثافة في الخلف .

الانطباعات عن هذا القسم ليست مسرة للغاية ، من الواضح أن هناك سكان حضر ، ولا يوجد هناك رحل تقريبا ، توجد هنا زراعة المحصولات - كل هذا يشكل عوامل تفوق على الخلفية العربية العامة الكثيرة ، ويميز هذا تفوق تهامة على الحجاز .

ومع هذا كله ، كم هو بعيد حتى عن مفهوم " العربية السعيدة " كما اعتبرها الرومان القدماء . ان كل ما نراه من المساحات ليس أكثر من سهل ذاو وشحيع تحرقه شمس حارة خانقة . يعتبر هذا القسم أكثر أقسام اليمن تخلفاً اجتماعياً ، فالتقسيم القبلي يلمس هنا بكل حدة ، تقبع الاقطاعية في أول مراحلها ، وبالكاد تقس قشرة العلاقات البطريركية - العسكرية والقبلية ، والشعور بالقومية العربية ضعيف هنا ليس بحكم الاسباب الاجتماعية المذكورة فقط ، بل وبحكم العوامل الاتنوجرافية أيضاً . يلاحظ على السكان اختلاطهم بالدم الافريقي .

ويلاحظ تأثير افريقيا على الشكل العرقى ، ويؤكد ذلك اللون الشديد السمرة للبشرة ، الوجوه العضلية بالشفاه الغليظة . أن الغزاة الأحباش ، قد كانوا أول من أيقظ الوعي القومي عند العرب ، كما قال ماركس في زمانه (بالأصح سكان جبال اليمن) ، لكن الأحباش كما هو واضح قد تركوا آثارهم الانتوجرافية على شكل المباني المهتمة في الجبال ، وعلى الجنس أو العرق التهامى في الساحل ، أن هذا التفرد الاجتماعى والانتوجرافى لتهامة يجد تعبيره فى الدين : كل القبائل سنية فى تهامة ، فى حين ينتمى سكان الجبال إلى المذهب نصف الشيعى – الزيدية فى نفس الوقت ، وكانت حصيلة هذه الخصائص بالإضافة إلى عوامل كثيرة أخرى ذات صفة اقتصادية (سنتحدث عنها فيما بعد) قد أدت إلى ثنائية معينة فى تركيب اليمن ، فقد لعبت تهامة دورا ملتبسا بما فيه الكفاية فى قضية توحيد اليمن ، لقد عملت الامبريالية كل ما فى وسعها لاقتطاع تهامة من اليمن ، وفى عام ١٩٢٥ انضمت تهامة تحت لواء الحكومة اليمنية فقط ، كانت تهامة خاضعة للانجليز فى أوائل اعوام ما بعد الحرب ، وبعدها خضعت للامير الادريس امير عسير ، لقد لعب الانجليز بمهارة على الاختلافات الدينية بين سكان تهامة وسكان الجبال ، وقد سعوا بكل الطرق لتأليبهم بعضا على بعض ، وهما فرعان لشعب واحد ، ضمت تهامة الى اليمن فى عام ١٩٢٥ فقط ، وقد تم هذا بمساعدة جيش الامام يحيى ، حيث لم يبقى للانجليز بعدها سوى مساندة ودعم التمردات الانفصالية لقبيلة الزانيق ، الذين كدنا أن نقع فى قبضتهم ليلا .

ندخل باجل ، على اليمين ، فوق المدينة ، يطل جبل مرتفع ، نرى على قمته لون أسود أسنان قلعة قديمة ، تتكون القرية من أكواخ كثيرة مخروطية الشكل مغطاة بالقش ، محاطة بسياج من الاضغان المجنولة موجات غبار جديدة تلفنا ، حين نقطع الازقة الضيقة التى تنعدم فيها الرياح ، نشاهد السياج ، الدجاج ، الصبية ، الجمال المحملة ، الحمير ، تخطىء النساء بعجلة وراء أبواب الاكواخ ، ندخل الساحة الرئيسية ، نتوقف أمام بوابات مبنى ضخم يشبه قلعة بفاء داخلى وأبراج فى الزوايا ، نشاهد بئرا فى الفناء وجمال تستريح ، هذا مقر عامل المنطقة ، وسرعان ما نسمع تحية شيخ ضخم أشيب اللحية ، إنه العامل ، نمر من غرفة الى غرفة حتى نصل الى غرفة الأكل ، حيث يجلسوننا على مائدة طعام أعدت سلفا ، نأكل شيئا ما ، إلا أنه بسبب الحر ، والتعب ، والارق لا يمر الطعام فى الفم إلا بصعوبة .

نتظر الكاد نهاية الغداء ، نودع مضيفينا ، الذين يذهبون لمضجج القات ، يقودوننا الى مسكن بجانب بيت العامل ، لكى نرتاح بينما يصل الجمل المتأخر مع العفش .

نتوزع على القسم المستوى ، المغطى قسم منه بسقيفة من القش المقتول والمعمول على شكل غرفة ، عملت الاسرة وكأئها [مضجج بروكروستومى] ، كلها بطول واحد بلا إستثناء ،

تنقص الدبع عن قاماتنا تقريبا ، نضطر الى الاضطجاع إما مطويين أو معلقين أقدامنا ، فنام
نوما ثقيلا كأهل الكهف .

الغتران الطائوة

نصحو خلال ثلاث ساعات ، يهب القبط المتناقص لليوم الاول من النافذة ، نسمع
صا أصاة فوق رؤوسنا بين العوارض الخشبية للسقف تصيح الغتران الطائرة ، تزحف صفار
الغتران على الفرمان الخشبية عاجزة أمام ضوء النهار الذي لم ينطفئ بعد ، بينما يوصوص
آخرون قابعين في أمشابههم ، أعشاشهم ، تقع الام المستتارة من أصوات الرعب من على
العارضة الخشبية مندفعة في الغرفة من زاوية إلى زاوية ، اندهشنا من عدم حب العرب للظافة
، والذين يسمحون للغتران بالتكاثر على سقف بيت العامل ، وتدهشنا انسانياتهم المتفردة ، في
عدم الرغبة في هدم العش وقتل الحيوانات ، ونسمع فيما بعد ان اليمينيين ، لا يحيون
الصيد ، رغم انهم رماة ماهرين ، بغض النظر عن توفر الطرائد في شعاب الجبال .

الوهينة

تسمع ضجيج ما في الشارع ، الشارع الواسع المترب على خلفية من المساجد
البعيدة ، والاكواخ المخروطية الشكل من القش تتحرك مجموعة من الصبية المراهقين ، تحت
حراسة مجموعة من العسكر الحاملين البنادق على اكتافهم ، تضع المجموعة بغير انتظام ،
وجوه متتعشة جذابة ، لا تعطى انطبعا بما أنهم مجرمون ، وأكثر من ذلك أنهم لابسون ملابس
بشكل لا بأس به ، يعبر عدم اكتراثهم النسبي ، عن أن وضعهم تحت المراقبة أمر اعتادوا
عليه وصار مسألة طبيعية بالنسبة لهم ، يوضحون لنا أن هؤلاء هم رهائن قبيلة الزرائيق
المجاورة ، وأنهم أولاد أو أقارب الشخصيات المؤثرة غير المضمونة من قبائل تهامة ، لقد
أخذ هؤلاء الرهائن من قبل الحكومة كضمانة بأن قبائلهم وعشائرتهم لن تقوم بعصيان ضد
الامام ، وعكس ذلك يعني أن تطير رؤوس هؤلاء الرهائن ، يعتبر نظام الرهائن هذا واحداً من
أحجار الزاوية لنظام الامام ، هكذا تسمى السلطة المركزية بفضله إلى اخضاع القبائل
التهامية غير المنساعة لها بشكل كامل ، هذا الشكل الفريد للرهاب ، تقوم به الدولة الاقطاعية
الفتية في اليمن ، ساعية لتوطيد كيانها ضد الانتفاضات الانقسامية وسيف التدخل الاجنبي
المسلط نوما .

تساق مجموعة الرهائن غير المنتظمة بالغناء والصراخ وكأنها قطع ذاهب إلى الحظيرة ،
تساق عبر البوابات المفتوحة للبنائية ، ثم إلى ملجأ المبيت .

تسمع أصوات المزمار الحادة ، والغناء غير المنتظم للأصوات المتعددة للمجموعة ، تتسلق
حاجز السقف فنرى ...

العامل الشائب اللحية في عمامة بيضاء ممتطيا جوادا رشيقا ، وحوله صف من الجنود
يرددون نشيدا دينيا ما ، يمدح الله ورسوله والامام ، ينتهي النشيد بعد بضعة دقائق ، ويتحرك
العامل بهيئته إلى الامام ، يحيط به جمهور مختلط ، يذهب للمبيت في الجبل في القلعة ، فهناك
أكثر برودة وأكثر أمان اقترح علينا الذهاب إلى هناك للمبيت ، لكننا عزمنا على التحرك قدما
ويدون أبطاء بعد وصول جملنا ، ولهذا اعتذرنا شاكرين .

من جديد تسدل الظلمة الوحشية الحالكة ، يهدأ نهيق الحمير المطوط ، ورغى الجمال
الغليظة ، تغاء وعمامة الشاة والماعز والمسافة إلى الحظيرة ، لا شيء يرى ، فقط اشباح تلوح
مبهمة بلونها الأسود من كل الجهات .

نتحدث مع اثنين - ثلاثة من الضباط ، الذين استقبلونا مع العامل ، يسألوننا عن
البضائع الروسية ، عن نوعيتها ، عن ميعاد وصول الدفعة الثانية منها ، يطلبون نماذج ، لكنه
بالطبع ليس لدينا منها شيء ، وذلك لأن مؤسساتنا التجارية لم تولي اهتماما لتجهيزنا بأى
نماذج دعائية ، ننتقل بعدها إلى المواضيع السياسية ، نعلم أنه وصل طبيب ايطالى من
الحديدة إلى صنعاء فى اليوم الأول ، ويعتبر هذا الطبيب عمليا ممثل ايطاليا فى اليمن ،
والطبيب على ما يبدو يسعى لاستباقنا ، وهذا ما سيتم له بالطبع ، وذلك لأنه قد وصل بالسيارة
إلى مسافة أبعد من المسافة التى توقفتنا فيها ، وفى الوقت الذى سنرحل فيه نحن من باجل
على الخيال ، وبعد ذلك يتذكر محدثنا :

- احتجزنا فى هذا المبنى فى الاسر بعثة جيكوب الانجليزية قبل تسعة أعوام .

جيكوب

- جيكوب - انجليزى متخصص باليمن ، وانجلترا لها دروس فى كل الدراما العربية ،
كانها ممثل متخصص ، يسمح له باقامة أية حوارات ممكنة ، حتى الخروج على حكومته ، ومع
ذلك لا تفقد العلاقة مع البلد العربى الذى يخدم فيها هذا الممثل فقط ، كان يوجد مثل هؤلاء

الخبراء الانجليز لدى كل الملوك العرب : هكذا كان لورانس في فترة الشريف حسين ، وفيلبي في حكم ابن سعود ، وكان جيكوب يحوم حول الامام يحيى ، كان تقدم وارتقاء الشريف حسين اثناء الحرب العالمية قد صنع شهرة عالمية للورانس ، وحين ازبح الشريف حسين وجد لورانس نفسه خارج الطلبة ، انتصر ابن سعود ، فاذا بفيلبي هو المطلع والنشيط ، ينام على اكاليل الغار ، نتيجة لنفوذه ، وسمعه التي توطلت ، جيكوب فقط لم يجد لنفسه مستقر ، لقد ذهب جيكوب في عام ١٩١٩ إلى رأس بعثة انجليزية كبيرة ليقوم بالمباحثات مع الامام يحيى ، لكنه في باجل يجد نفسه اسيرا عاجزا من قبل القبائل الناضجة التي قررت عدم السماح له بالدخول إلى العاصمة اليمنية ، في نفس هذا المبنى ، الذي نحن فيه ضيوفاً ، تتحدث بوثام مع نفس اولئك الضباط العرب الذين قاموا بحجز (جيكوب) الذين ظلوا اسرى عدة أشهر في ساحة السقف ، وكأتهم حيوانات متوحشة في اقفاس ، ظلوا يجولون ابناء أقوى دولة في العالم ، انهالت البرقيات المتوعدة من لندن إلى عدن ، وضغطت عين على الحديدية وصنعاء ملحة على أن يقوم الإمام بالتأثير على القبائل المتمردة ، تبرزت الجرائد العربية المصرية بالرسومات الكاريكاتورية عن " الطيور المصطادة " كما سعى الاسرى الانجليز ، حلقت الطائرات الانجليزية فوق باجل ، لكن الرجال حينها كانوا يلاصقون جيكوب واعضاء بعثته ، وقد اعطيت الأوامر إلى هؤلاء الرجال باطلاق النار على الاسرى إذا رمت الطائرات الانجليزية بقنابلها ، ولهذا لم ترم الطائرات الانجليزية بالقنابل ، وبعد مماطلات طويلة اطلق سراح جيكوب ، وعاد إلى عدن خائباً مهاتنا صفر اليمين .

مرت الايام ، نمت اليمن وتقوى ، وخرجت القوات الانجليزية من الحديدية ، بعد اقتناعها بأن الاحتفاظ بقطعة من تهامة ، معرضة في نفس الوقت لوخز الديابيس المستمر من قبل القبائل المتاخمة لها والدافعة عنها ، وأنه أمر يفوق طاقتها .

خرجوا ، واعطوا تهامة للدريس أمير عسير .

لكن الأخير خيب آمالهم ، حيث كان مضطراً تحت ضغط القبائل الجبلية المناصرة للامام ، إلى ترك باجل في البداية ثم الحديدية بعد ذلك ، واجتاح السيل العامر بالطاقة التي ايقظت بها المناطق الجبلية ، وانطلق رجال الجبال الرث المنهمكون من مكوثهم القانط في الجبال ، فضغطوا بالحصار نحو الشواطئ البحرية ، نحو العلاقة مع العالم عبر الحديدية نصف المحطمة ، والتي صارت نافذة اليمن إلى أوربا ، وسقطت سلطة أمير عسير بخزي ، واضطر إلى الاختباء عجلًا قرب حدود الحجاز وفي اطار امارته الصغيرة العازلة .

وهاهو الآن في عام ١٩٢٨ يصل جيكوب نفسه إلى اليمن الجديد ، الذي صار أقوى ، وصل جيكوب قيلنا بقليل ، وفي هذه المرة يمثل دوراً رسمياً متواضعاً ، وبرفته سكرتير - مترجم وحيداً ، وبعد أن مكث شهرين ، ولم يصل إلى أي اتفاق مع الامام ، رحل قافلاً ، قبل بضعة أيام من وصولنا فقط ، وخلال تواجده في صنعاء كان مقاطعاً منسياً ، بدأت الغارات الانجليزية من عدن ترمى بالقنابل على المناطق الحدودية الاهلة بالسكان ، تهدف بذلك إلى تعزيز هيبة مبعوثهم ، ولم يفد هذا بشيء مرة أخرى ، ويتحتم على جيكوب من جديد أن يرحل خالي الوفاض ، تحت اناشيد صبيان صنعاء الذين لا يطاقون ، يصرخون بهيجان واحتداد كل مرة يظهر فيها :

- الكلب يسير ، ابيض ، كلب نصراني !

لكننا نعرف كل هذا في وقت متأخر ، أما الآن فنحن متكئون على الاسرة المفقولة نرتشف الشاي ذي الطعم المالح ، نصغي إلى الحديث المنسق الهاديء من ندمائنا ، مرهقين السمع في نفس الوقت لسكون الليل ، حيث ننتظر الجمل المتأخر .

ها هو الجمل قد وصل ، نسرع في الظلمة الموحشة لما قبل الفجر للتحرك قدماً ، نستفيد من برودة الليل .

اضواء الفوانيس المتمايلة ، الايدي الممدودة المتزاحمة لاخذ " البخشيش " - ثم نبتعد راكبين لمواجهة اشباح الجبال تاركين ورائنا اكواخ باجل المخروطية الشكل ، نمضي في غيش الفجر ، نرى جنوع اشجار الابل المتناثرة بين حقول الذرة الشامية ، نبدأ بالاقتراب قليلاً قليلاً من سلسلة الجبال الضخمة ، التي تطبق على مساحة واسعة من السهل .

ينبلج ، يبرز امامنا سفق حجري يتألف من طابقين ، وعشرات الجمال ترتعى في القرية ، كانت هنا حامية تركية ، قلعة غير محصنة للحامية التركية التائهة في محيط عدائي في البيئة القبلية ، كان البلد يجيش ، يعيش حياته الخاصة ، لا يسمع لموظفي السلطان بالوصول ، ولا يدفع الاتاوة ، ولا يقدم مجندين للقسطنطينية البعيدة المعادية لفرق السلطان التي بقيت بمحاذاة شواطئ الحبيدة فقط ، والاكثر من ذلك ان تلك الفرق كانت معزولة في قلاع منفردة ، أو كانت موزعة على طول طريق صنعاء ، هذا فقط كل ما امكن تحقيقه في شبه جزيرة العرب الملونة على الخرائط بلون الامبراطورية العثمانية الواحدة .

أما الآن فقد انقرت قلع الحاميات العثمانية ، فلا يوجد فيها قوات ، وقد صارت مهجورة ، وملجأً لبيوت القوافل العابرة ، تحول بعض الضباط الاتراك الى الخدمة عند العرب ،

وإذا كانت ذكرى الانجليز متمثلة بمباني الحديدية " الفخمة " التي هدمها القصف ، فإن ذكرى الاتراك قد تمثل في هذه القلاع الكنيية المقفرة ، حيث كانت الحاميات السلطانية وحيدة ، عاجزة عن اخضاع منطقة صغيرة ، لكنها عنيدة .

ليس الان انجليز في اليمن ، بقى اترك وحييون يخدمون في جيش الامام ، أو بعض الاتراك الجذائين والخياطين القاعدين بكآبة في دكاكين الحديدية وصنعاء ، تهج موجة الحركة القومية العربية في كل مكان ، تلك الاماكن التي غمرت فيها بقايا القهر القديم .

تنتقل الطريق إلى واد " واسع ، والبغال تسرع الخطى ، تضرب الارض بحوافرها باتساق باتجاه قرية جديدة ، نرى ملامحها البيضاء من بعيد ، تخضر الحقول بطراوة ريانة ، وتصير سيقان الذرة والشعير أكثر صلابة ، وأغصان مائلة أكثر ، نتحرك قدما نستبق الجمال المنفردة نمرق من ارتال البغال والحمير المسرعة التي نقابلها ، والجبال من كل الجهات .

ها هو اليمن الجبلى يقترب .

الباب الثامن

* نحو الاقطاعية

* بقايا الاحباش قوقاز في " العربية "

* البغال والخيول

نحو الاقطاعية

اثنان من البلاشفة ، اثنان من الروس ، يمتطيا البغال ، يرافقهما عشرة جنود انصاف عراة مسودون ، يتمايلون بانتظام يصلحون البرادع من حين الى اخر ، نتحرك عبر مرضيق يتلوى بين الحقول ، قدما اكثر فاكثرا في اعماق اليمن المكونه ، ما زالت الجبال تحيط بنا من كل الجهات بمساحة واسعة ، واشعة الشمس لا تكل وتتصاعد بشدة ، كانها حزم مجمعة في عدسة مكبرة ضخمة ، تحرق الجلد ، كانها خارقة لثنايا الثياب .

نتحرك الى الامام - نحو الاقطاعية - للقاء بلد مجهول ، للقاء المستقبل المجهول ، وبالتدريج ينكشف امامنا هذا اليمن المنزمل المخفي اسراره البسيطة ، ينتصب امامنا بكل بساطته القنوعه للعصور الاقطاعية المبكرة ، لم نرى الاقطاعيه ، في القسم الذي قطعناه - تهامة ، والحقيقة بعد ، ان السكان الهزلاء ، المنهكون من القبط ، ما يزالون يعيشون بعد حياة قبلية ، بل وحتى حياة عشائرية - بطريكية ، لم يعرفوا بعد اساليب الملكية الخاصة الاقطاعية للارض ، ومع مجيء قوات الامام فقط ، اصحاب الجبال ، بدأت تهامة تربط بالاقطاعية .

لكن حتى تهامة ما قبل الاقطاعية تعتبر متقدمة اذا قايسناها بعائلات الحجاز المترحلة ونصف الوثنية فهناك ، في نجد والحجاز ، التي رأينا طرفها عبر الجدران الطينية البيضاء بجدة ، لا تعيش قبائل باستمرار ، واتما عشائر مشتتة ، وحتى اسر منفردة ، فالزراعة الثابتة التي وصلت الى تهامة تعتبر مثالا هناك ، وهي عمليا ليست "خطة خمسية" واحدة وانما عدة (خطط خمسية) التي يقوم ابن سعود بها بحذر ويون حزم ، المهمة الاساسية هناك هي : الرعى ، جمع التمر من اشجار النخيل القليلة مهمة ثانوية بصفة صرفة ، نهب القوافل العابرة لمجاميع الحجاج غير المنتظمة ، لقد فاقت تهامة اليمن نجد والحجاز بعصر كامل ، اللتان تحجرتا في مستوى القرن السابع الميلادي .

ها نحن نعبث اخر مراحل تهامة ، نبتعد عن شواطئ البحر نسير في منطقة يزيد ارتفاعها بالتدريج ، نستعد لنترك ورائنا المرحلة الثانية (بعد الحجاز) التي رأينا فيها مرحلة من تاريخ البشرية ، وانتهينا منها لنقبل على مرحلة جديدة ، الاقطاعية الخالصة ، يبدو كما لو ان حوافر البغال ترتفع وتقلب صفحة ثقيلة من كتاب التاريخ الذي وقفت صفحاته هنا في الجزيرة ، مصفرة باهتة ، في الباب الاول منه ... نقترّب من قرية بحبيح .

امامنا اسيجة من القش ، وخلف اسيجة مساكن ذات سقوف مخروطية الشكل ، تدخل الغناء ، يخبرنا العسكر انه يجب الانتظار هنا حتى حلول برودة المساء .

نشعر أن برودة ورطوبة المساء قد صارت اثرا بعد عين مباشرة ، وما كادت الشمس تبرز من وراء قمم الجبال المسننة البعيدة ، حتى كانت أشعتها الساخنة تخترق الجلد بسهامها الحادة ، لا يوجد هنا لا ظل ولا تدي ، مع أن هنا ليس الحديدية ، إنما تكون الشوارع مبللة في الصباح من الرطوبة البحرية اللزجة ، لكن لا يغير من الامر شيئا ، هنا يسود القئظ والجفاف .

نتنحى ، نوضع البغال في الظل ، دون نزع السرج عنها ، يخفف شد حزام السرج فقط ، يقولون أن نزع السرج مضر بالحيوان ، يقودوننا الى احد الاكواخ الدائرية المحفورة في الارض وينقلون اليه بعجلة مضاجع " بروكروستوس " .

نشعر بسطوة الليله المؤرقة خاصة تحت اشعة الشمس المحرقة .

محتويات الاكواخ - مقعدان ، رفوف في الاعلى فيها لوازم واثوات ، خفان من القش ، سلال على شكل قفاني ، كل هذه اللوازم للمظهر ، موضوعة بدون استعمال .

بحيحة - هي اول قرية يمنية ، اينما تحتم علينا التأخر فيها ، وهي قرية صغيرة تتألف من عشرين - ثلاثين فناء ، وفناء حجرى صغير للخفير بقرب الطريق ، الافنية محاطة ياسيجة من الاغصان المجنولة وفي كل فناء اثنان او ثلاثة اكواخ دائرية وحظيرة صغيرة للماشية ، والرخاء هنا اعلى مستوى منه في الصحراء الساحلية القاحلة العجفاء ، تركض الدجاج في الافنيه وتفتقر الماعز والخراف ، وهنا وهناك تتجول ابقار حدياء بنتوه على شكل حديبة عند الرقية .

وراء القرية (المكشوفة كانها على راحة كف) نشاهد الحقول المخضرة ، بيادر عامة ، تنطرح حزم القش ، نشاهد الماعز والخراف ، التي تركض وراء السياج في المراعى ، وفي البعيد عند سفوح الجبال تبدو اشباح كأنها بيوت مشبكة بها ، وابتعد من ذلك تبدو قمم الجبال الذاهية في السديم والضباب ، التي تعيش وراها حياة حقيقة ، كما يقولون .

ومع ذلك كله فليس هناك قرابة وغموض في الشرق خاصة ، الذي يحلم به محبو الجمال ، ربما قليلا من مسحة افريقية ، هذه البيوت الطينية الدائرية يسقفها المخروطية الشكل ، والاثوات المزخرفة من القش ، والناس السمر نوى العظام الوجنية البارزة ، وكثافة المواشى البيتية الصغيرة - هذه هي الخصائص ، التي متبعا وصف افريقيا بها ، والتي انعكست هنا في اليمن ، على الجهة المقابلة من ساحل البحر الاحمر ، او بالاصح المضيق الذي كان يفصل القارة الافريقية - عن شبه جزيرة العرب الحارة الواحدة .

بقايا الاحباش قوقاز فى " العربية "

من المحتمل ان هذا التشابه ليس محض صدفة فمئذ القدم تعرضت اليمن لنفوذ التأثيرات الافريقية ، وبعد طرد الاحباش ظلت العلاقات التجارية بين الحبشة واليمن مستمرة ، وما عدا ذلك ، فقد جلب الى اليمن عدد كبير من العبيد السود ، كما وصل كثير من السودانيين لممارسة الصنع وطلب الرزق ، هاهى بقايا سيطرة الاحباش ، فى نفس الفناء الذى توقفتنا فيه ، بضعة نساء حبشيات ، زوجات المالك السابق ووالان اصبحن " مالكات فندق " بطريقتهن الخاصة ، تحظى تلك النسوة بشهرة واسعة ذات مغزيين ، كما عرفنا فيما بعد ، فى اوساط الرحالة الذين خبروا يوماً ما هذا الطريق ، ان اصلهن الحبشى - الارثوذكسى يعطيهن بعض الحقوق او الامتياز لكثير من الانطلاق ، وعدم التكلف الذى لا يسمح به للنساء المسلمات التقليديات والفزعيات ، فلكل الرحالة الاوروبيين وحتى الاتراك الرصناء يتذكرون " ببسة لعوبة " فترة وصولهم الى هذا " الفندق " .

نحن للاسف لم نعرف هذا فعوقبنا بقساوة لسلكنا غير اللطيف ، لم يكن لدينا متسع او رغبة فى الحديث ، فبعد ان شربنا كاسا من لبن الضأن ذهبنا فى نوم عميق ، ومع ذلك استيقظنا بعد ساعتين او ثلاث نتيجة لانكثام النسيم ، الذى لا يطاق والهواء الخائق فى الكوخ الذى لا توجد به نوافذ ، لقد سخن تحت اشعة الشمس الافقية ، فطلبنا ونحن - قمة فى الجهالة - نقلنا الى مسكن اخر حيث يكون الهواء اكثر بروده فدعانا العسكر الى منزل حجرى ، حيث يسكن " القمندان " بهيئة ضابط قديم ، وقد كان وقتاً ما فى الخدمة التركية .

يقع المنزل خارج القرية ، على مرتفع بسيط وله نافذتين يهب عبرها النسيم ، يعنون لنا الطعام ، دجاجة مسلوقة مسلوخ جلدها عنها والقشرة الدهنية بعناية (وهى الطريقة المحلية المعتادة فى سلق وشوى الطعام) ، يشرب مضيفنا الماء المعدنى المقدم له بشراهة ويديخن سجائر " اسمرالد " .

نسأله عن الوضع فى البلد ، لا بأس ، كل شىء على ما يرام ، يقول مجيباً ، سيكون كل شىء ميسر فى المستقبل ان شاء الله ، وكما نعرف ان الطبيب الايطالى قد وصل الى هنا قبل يومين ، وتوقف خمس او عشر دقائق فقط .

يقدم لنا معلومات اثناء الحديث عن مرتبات الجنود الذين يقعون تحت خدمة ملك اليمن ،

يستلم الجندي خمسة ريالات فضية في الشهر ، بينما يستلم الضباط خمسة عشر ريالاً فضياً ، كما تقدم التموين خزينة الدولة ، لأنه أفضل : قيصنة من القمح يومياً هذا يقدم لنا مفهوماً أنه لا يمكن العيش بدون "بخشيش" .

نعرف أننا في منطقة مجاريد - وهي من أعمال قبيلة قحرة الكبيرة ، تشمل هذه المنطقة كل ناحية الطريق التي قطعناها ، يقوم شيخ القبيلة بزيارتنا ، تلك القبيلة الواقعة في نفس المنطقة ، وهو شاب عيناؤه تشتعلان ، ذو وجه قليل الشعر ، حافي القدمين ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، متمنطق بجنيبة مقبضها فضي ، وعليه حزام من الرصاص ، ينظر إلينا كما لو كنا حيوانات غريبة غير مألوفة ، يقابلنا كالايطاليين وذلك لان الاجانب الذين ظهروا هنا حتى الان قد كانوا من الايطاليين بالاساس ، يندهش عندما يعرف أننا من روسيا السوفيتية ؟ اين تقع ؟ وهل هي كبيرة ؟ هو لا يعرف هذا ، لكنه يعلم ان روسيا قد ساعدت الاتراك في المحافظة على استقلالهم .

تحملون بضائع ؟ هذا جيد ، فقد كان في اليمن جذب ، الدقيق لا يكفي ، الاقمشة سيئة ، والاجانب لا يجلبون شيئاً حسناً ، اعطونا قمحاً واقمشة وكذلك كيروسين وسكر ، ويمكن كل ذلك ارضنا وافضل مما يعطونه الاجانب الاخرون ، حتى هنا ، اينما الارض جيدة ، وايضا يجمع المحصول ثلاث مرات في السنة ، فان القمح لا يكفي .

- كيف يعيش الشعب ؟ هل كل شيء اماً ؟ نسأل دون مواربه .

لكنه لم يكن كريماً في الاجابة ، فهو يفضل طرح الاسئلة اكثر ، اجاباته تقليدية يغلب عليها " الحمد لله " المعتادة للحاضر ، و " انشاء الله " فيما يتعلق بالمستقبل ، ومع ذلك تعرق نبرات غريبه في اجاباته ، يتضح ان قبيلته شاركت مع عسير في الحرب ضد الامام ، اما الان فلا بأس ، لقد هدأ رجال القبيلة ويؤيدون الحكومة المركزية ، الا انه يلتمس ان هؤلاء " زفقاء سفر " وليس الدعامة الاساسية لصنعاء .

يخرج بعد ان شرب الماء المعدني ، نبقى نحن والمالك بجانب بضعة من المعسكر المرافقين لنا يقص احداهم بحرارة ، كيف عاش بهنوء وسلام في قريته عندما كان طفلاً ، لكنه عندما كبر تشوق للعمل والحركة .: والان يفخر بانته في صفوف الجيش اليمن ، بانته سيضحي بسرور بدمه في التضال ضد الانجليز ، الذين يهددوا باستبعاد وطنه الحر ، ويحماس لا يقل عن ذلك يتحدث عن الامام كقائد شعبي ، يقود الشعب على طريق المجد والازدهار .

نرى أن هذا ليس رفيق " سفر " وإنما من أكثر الفئات إخلاصا للقضية الوطنية ، أنه من سكان الجبال ، التي لم تتأثر بالدعاية الأجنبية ، ولم تقع تحت تأثير فئة التجار الساحلية الرافضة ، نتيجة لمصالحها الانانية والذاتية .

نحاول أن نستفسر عن أشكال استخدام الأرض في هذه القرية ، يقولون لنا بأن الأرض هي ملكية فردية لكل بيت ، هنا لا توجد ملكية اقطاعية للأرض ، وقرية بصح هي قرية ذات امتياز ، تقع قرب أراضي خصبة ، وتقع على طريق كبير ، أما تلك القرى الواقعة جنب سفوح الجبال فوضعها أسوأ .

في المساء نتحرك قدما ، الجبشيات الغاضبات يخرجن إلى ما وراء سياج القرية يتبعنا بوابل من التمنيات السيئة ، نحتر بصدق لا نعرف حقيقة الأمر ؟ نفهم ذلك مؤخرا في صنعاء ، نعترف بغلطتنا ، وأن لم نعزم على تصحيحها مع ذلك .

لكن لا وقت للإبطاء ، هيا إلى الامام ، فالجمال قد سبقتنا مع المتاع ، وها هي بعيدة في مكان ما في المقدمة .

تقترب الجبال برتابة من الجهات الثلاث ، تخترق السهل الفسيح لفحات حادة جافة من الهواء الرملى ، التي تهب من الفجاج الجانبية ، وعلى جانب الطريق تتناثر قرى واسعة فيها أكثر من مائة فناء ، وترى قطعان الماشية الكثيرة العدد ، هنا وهناك تتجول اشباح منفردة من الجمال ، وهناك ينر على شكل حفرة يعلها عامودان فيهما عقلة .

اثنان أو ثلاث من النساء السود يقبعات أسطوانية طويلة من القش لها حواف عريضة يشدون الحبل الممدود عبر العقلة ويسحبن دلوا على شكل كيس جلدى (قرية الماء) ، وجوه النساء مكشوفة ، فهنا ليست المدينة ، الحجاب لا ذكر له ، والمعيشة الريفية مليئة بالعمل الشاق الدائم سواء في البيت أو في الأرض ، لقد الغى هذا الحجاب في حد ذاته ، الثابت في محيط المدينة المنافق ، يساعد هؤلاء النسوة خادم ، يبدو أنه أجير زراعى ، اسمر شبه عار ، يقدمون لنا الماء لنشرب ، الماء هنا ذات طعام مالح ، ومع ذلك فهي أفضل بكثير منها في القسم السنج من تهامة ، نعطي البخشيش ونمضى قدما على يميننا سلسلة جبال ضخمة في رأسها قمم تغطيها السحاب مثل جبال أرارات (*) . هذا جبل برع ، أعلى قمة في اليمن ، يوضح لنا العسكر ، لكننا نعرف فيما بعد أن ذلك مبالغه معتادة ، فهذه الجبال ليست أكثر الجبال ارتفاعا في اليمن ، لكنها وعلى خلفها السهول ، وهي مرتفعة قليلا عن سطح البحر تبدو في الحقيقة عظيمة ، كما نعلم بأنه في أعالي جبل برع تنمو أشجار البرن .

(*) - سلسلة جبال مشهورة في أرمينيا

هناك يعيش ناس سعداء ، قال لنا العسكر ،

شيء لا يصدق ، نحن الاوروبيين متعددين على ان العائشين في السهول تكون حياتهم افضل ، وان الجبال قاحلة مقفرة ، اما هنا في اليمن ، انما المدارات الاستوائية ، يتم اعادة تقييم القيم والمفاهيم ، الجنة - في مرتفعات الجبال الباردة ، والجحيم على هيئة الحر ، والجفاف والاختناق - في السهول .

تتحرك سلسلة الجبال على مقربة منا ، هناك واد صخرى نقطة مشيا ، نزلنا من على البغال هنا ينتهي القسم الذي يمكن اجتيازه من الحديدية على السيارة ، حتى الايطالى الذي يملك سيارة خفيفة ، تحتم عليه ان ينتقل هنا الى الركوب على ظهور البغال ، مسافة سهلية قصيرة من الطريق ، ثم واد صخرى ضيق من جديد وفي قعر الوادى شيئا ما يشبه النهر ، هذه اول مياه فوق سطح الارض نراها في اليمن .

والسهول الطويل الى قطعناه صار بعيدا في الخلف ، وسرعان ما اختفى في عتمة الليل الحالكة ، نتوقف ساعتين في قرية كبيرة اسمها عبال ، ونأكل دجاجة مسلوخة من جديد ، نتحرك قديما بعد ان انتظرنا طلوع القمر والمدمش ان تتحقق باللمس من الحقيقه المعروفة نظريا والقائلة بأن القمر بالذات وليس الشمس هو الكوكب الاساسى ، الذى ينظم حياة الصحراء ، الشمس خبيثة ، قاسية ، قاتلة ، نختبئ عندما تشرق تحت السقائف ، نزل حمولة البغال ونعس بلا حول ننتظر عتمة الليل ، وحين يقبل المساء وبيزغ القمر نتحرك في طريقنا هكذا يصير واضحا لماذا يعتمد التقويم الاسلامى الأشهر القمرية كأساس لحساب الزمن .

لقد اصبحنا على ارتفاع عالٍ ، نصعد بطريقة غير ملحوظة في السهل ، ونصل تدريجيا الى ارتفاع بضعة مئات من الامتار ، نتحرك على هضبة مرتفعة ، تهب برودة ورطوبة من الجبال القريبة جدا ، هنا تسقط الامطار كل يوم تقريبا ، وفي هذه المنطقة المضاءة بنور القمر نشاهد الاشباح الجبارة لاشجار الاثل ، التى تختلف بحده عن اشجار تهامة الهزيلة الكسيحة ، هنا اشجار الاثل كثيرة الاضمان وافرة الظلال ، رغم انها نوات جنوع معوجة ايضا وملامحها مغلوطة بشكل متشنج ، تبدو فى الفسق وكأنها تتناين تتلوى احيانا ، او كأنها بشر يحتضنون بعضهم احيانا اخرى ، او توحى وكأكنها رجلا القى براسه الى الخلف ، ينظر الى السماء فاتحا ذراعيه على اتساعهما .

الحر ، الاختناق ، العرق ، والعطش وكان شيئا لم يكن ، الليل البارد الساكن ، اشباح الاشجار والرسوم المبهمة المعتمة للجبال المعلقة فوقنا ، بالاضبط ، كل هذا يفرض علينا ان

نتسى اننا فى شبه جزيرة العرب البعيدة ، قرب خط الاستواء ، واننا على بعد بضعة الاف الكيلومترات من شواطئ الوطن ، لقد قام البغل الاخير القبيح والعنيد ينقلنا خلال بضعة ساعات من الطريق من قيظ الصحارى العربية الى سفوح القوقاز الباردة التى نعرفها ، هذه قرية حجيل ، مركز الناحية ، هنا يجب علينا ان نتوقف من اجل ان نغير الجمل ، وجملنا كان صالحا للمشى فى السهول فقط ، فى حين للجبال جمال اخرى تعودت على طرقها ، وازضافة الى ذلك فانه من هنا يبدأ الصعود الشاق فى الجبال ، والذهاب فى الليل امر صعب ، لهذا نتوقف للمبيت .

مرة اخرى اسرة مفتولة من القش ، تحت سقائف من القش ، يثب خادم تركى مسرعا ، ونون ان ينيس بحرف ، يبدأ يتحسس اضلاعى ، ويهز رجلي ويداى ، ادفعه بعيدا برعب ، يبتعد حائقا ، لقد اراد ان يعمل تدايك ما بعد الطريق ، وهو المتبع فى هذه الاماكن ، لهذا كان تعزى غير مفهوم له ، يقولون لنا فى الصباح انه يجب التئخر الى ما بعد الظهر ، لان التحرك ظهراً سيكون حارا ، وبالإضافة الى ذلك فان الجمل الذى استبدلناه بالآخر غير جاهز بعد ، لان جميع جمال سكان المنطقة محملة من قبل الخزينة ، بدفعة جديدة من الاسلحة الايطالية التى وصلت الى الحديدية هذه الأيام ، وهذه الاسلحة هى عبارة عن ذخائر خشبية صغيرة ، مرصوفة فى ساحة بقرب بيت عامل المنطقة ، تتالف مما يقارب مائة جمل باركة تحت ظلال اشجار الاثل ، او ببساطة تحت اشعة الشمس الطالعة ، تمضغ حزم الدريس المرمية امامها كعشاء ، من اجل ان تجمع قواها للرحيل فى اعماق الجبال ، هناك اينما توجد ضرورة للاسلحة ، واغلب الجمالة كهؤلاء نوى لحي شائبة ، اجسامهم محترقة ملوحة بلون احمر نحاسى ، يلتحفون عيامت خفية ممزقة ، واحزمه غليظة حول الخصر يجلسون بشكل دائرى ياكلون طعام الصباح ، وبيوت القرية ، ليست على شكل البيوت الطينية السابقة ، انها معمورة من الحجر الغشيم ، والشكل الخارجى للبيوت على نمط واحد : اربعة اركان حجرية خالية من الجمال ، وسقف من العوارض مغطى بالقصب او القش ، والمناشية هى تلك الابقار الحديدية ، اثوار ، حمير ، ماعز ، ضان ودجاج ، لكن لا تحس افريقيا فى هنا ، لا باسلوب البناء ، ولا بعلامج الوجوه السمرة لكنها تخلو من ذلك السواد والنعط الخاص الذى يقربهم من الجنس الزنجى الحبشى ، هنا ليست تهامة ، وانما ارض نصف جبلية ، والقرية التى سارت مركزا اداريا منذ عهد قريب تعيش على الزراعة ، فى كل جوانبها حقول يانعة موزعة على مدرجات الشعاب المتلاصقة ، فالنساء هنا وافر .

لا يوجد هنا سوق بالمعنى الشرقى ، توجد بضعة حوانيت صغيرة فقط ، حيث يمكن شراء التبغ والكبريت أو صنادل خفيفة وبضائع أخرى مثل الدخن ، الثرة ، قشر البن التي تستخدم هنا بدلاً من البن ، الحقول الآن هامة ، العمل في البيت يتمثل بالعناية بالماشية ، وجلب الماء من البئر الواقعة على مقربة من القرية ، أو إشعال الموقد لتحضير الطعام ، كل هذا يقمن به النساء ، أما الرجال فانهم منزعجون من قيظ النهار القادم ، يقعدون صامتين في الظل يدخنوا النارجيلة ، ايقاع الحياة بطيء ، تعبر النسوة من وقت لآخر من البئر إلى البيت ، يحملن على رؤوسهن الجرار الطينية الطويلة ، يركض الاطفال عراة كما خلقوا ، بأجساد مسلوخة هزيلة ويبطلون بارزة في الغالب ، هناك صبي عبدة أربع أو خمس سنوات يسير بتؤدة ووقار ، يقهقه المتفرجون عليه يصرخون بشيء ما ، أما هو فيصرخ مرتعشا بصوت كأنه ليس صوته ، يغطي عورته بيديه ، ثم يهرب لا يلوى على شيء ، يتضح انه لم يجزى له الختان في وقته ، لهذا يشاكسونه بالعملية " الدينية " التي ستجرى ، والتي يكون مجرد التفكير فيها باعث على الرعب والوحشية لديه .

البغال والخيول

نتحرك بعد منتصف النهار ، يتعرج الممر في مسيل صخري لسيل قد جف وانكمش في فج ضيق ، وبعد ان يلقى بنا في الفج الصخري ، الذي يضيق مع كل خطوة ، نمر بين الأشجار والاحراش ، ونصل عبر مضيق ضيق إلى شعب آخر ، بين كتلتين صخريتين كأنهما قد وضعتا خصيصا كجاذب ، وعلى شكل منحدر صخري يمتد عبر الجبال ، على ارتفاع شاهق وبين اسنة الجبال نرى بالكاد سودة ملامح القرية من كل الجهات تسمى المنطقة صيفن ، وفجأة بتقرب البغال إلى منحدر الفج مباشرة ، تبدأ تضرب بخطواتها الطريق الشديد الانحدار والمتعرج ببطء ومثابرة ، نسمع اصوات البغاوات ، ونشاهد اشباح القروء المنتفضة ، وخلال خمسة عشر - عشرين دقيقة يكون الفج بعيدا في مكان ما في الاسفل ، في حين تواصل البغال خطوها المنتظم إلى الاعلى في المرتفع الشديد الانحدار .

أبداء اقدر الخصائص الرائعة لتلك الشفيلة المتواضعة ذات الاربع أرجل ، البغال والحمير خصوصا ، متميزة وفريدة يفظانتها ، وقوة احتمالها وجلدها ، يكون الرحيل عليها مرضيا ومقودها حسن ، تصفر فقط بصوت منخفض ويسير الحيوان بدون حث او تعجيل ، يتحسس بحذر كل حجر ، دون ان يتعثر أبدا او يشاكس او يخاف او يحيد عن الطريق ، تذكرت

عفويا وينتقز الخيول حينها ، المستعدة يوما ان تجفل او تجمع لاي سبب ، سواء لرؤية شيء مجهول او لازعاج مفاجيء ، كما ان الخيل تتوقف عن طريقها اذا ارخى عنانها ، واذا نهزت فأنها لا تشير في الغالب ان ضربت بالسوط ، فاما ان تكون مستعدة للاندفاع بسرعة واما بالسقوط منهكة ، قد يقال هناك خيول فطنة وجريئة وهذا صحيح ، لكن البغال والحمير في مجملها تتميز بالذكاء والحساسية والهدوء وقوة الاحتمال ، بالاضافة الى ذلك فالبغال قد ورثت افضل الصفات " المعنوية " لأبائها الحمير ، والقنطرة الجسدية فقط لامهاتها الخيول ، ان البغال والحمير تعتبر استثناء مميذا بقيمتها كحيوانات - بروتاترية ، لا تماثلها الخيول - الارستقراطية الغبية والحرة .

واثناء التنقل الطويل على ظهور البغال كثيرا ما يخطر على البال : لماذا صار مألوفا في الادب التغني بالحصان المائس والغايز ، في حين تكون البأدة والغياء مرادفا للحمار المحب للعمل والذكي ان البحث عن توضيح ذلك ليس امرا سهبا ، اذا راقينا خصائص الحمير في التنقلات البعيدة ، الحمار مثله مثل الحصان ، كائن مستغل من قبل الانسان ، لكنه حين يخضع الحصان ويطيع الانسان حتى النهاية ويدون جيود ، يجر اى حمولة حتى لو كان فيها خطر انفصام ظهره ، يسير تحت ضربات السوط حتى السقوط ، بل حتى وهو يلفظ انقاسه الاخيرة في حالة الموت يصمت دون الاحتجاج ضد القسر والامتناع ، فان الحمار اكثر عنادا في الدفاع عن مصالحه كحيوان مستغل ، فهو يتشبث في مكانه فلا يسير اذا حمل اكثر من طاقته ، يتوقف اذا فرض عليه السير طويلا جدا ، ولا يتحرك من مكانه تحت اية ضربات ، ان يركض اكثر مما تسمح به قواه ، لكنه يعمل بامانة في نطاق المهمة العادية ، اما اذا لم يظلم او اذا ضرب فلن يبسكت مثل الحصان الابكم المستكين ، بل سينهق محتجا بوحشية ، ويصدر النكات بطريقة بشرية ، يبدو معها ان أقصى سائق حمير سيرق قلبه عند سماعها ، الحمار يخنج اذا يخرّب ، يغرب ، اذا ما تجاوز القسر عليه حدود مهينة ، الحصان يذعن للقسر باستكانة ويدون حدود : انه مستعد للركض حتى السقوط او الانهاك من حمولة فوق قدرته ، يُسافر فزواتك الانسان بدون حدود ماشيا بخضوع حسب تعليمات السائس والراكب الذي يهزه ، الفل من غرابة ، في ان يتغنى الشعراء الاتطاعيون بالأسوا والمور والصقور الضارية ، المؤذية وغير الضرورية ، في حين جعل الأدباء البرجوازيون محط اعجابهم الحصان الإحمق المستعد للموت نتيجة طغيان راحته ، والكلب الذي يحرس البيت يهز ذيلة امام صاحبه لكنه بينما كانت هذه الافكار المنقطعة تتزاحم في راسي كان البغل قد وصل بي الى قمة الصخرة ، يخطو منتظما يزاحم جموع الحمير ملثقا حول الجمال الخرقاء الباركة طلبا للراحة ، يدخل قناء صغيرا ، في

ساحة قرية مصفرة اسمها اصيل ، او بالاصح نزل من اجل توقف في مركز القافلة المكون من خمسة اوستة بيوت فلاحية من الحجر .

نرى ان هذا ليس سوى بداية المرتفعات (رغم اننا قد وصلنا الى ارتفاع اكثر من الف متر فوق سطح البحر) ، سلسلة جبلية ضخمة جديدة ترسم امامنا كالسور ، وخلفها صف اخر من الجبال ، وصنعاء ابعد منها التي طال انتظارها .

اصيل هي بوابة اليمن الجبلى ، هنا يبدأ اليمن الذى لم تدسه اخذية الانجليز ولا صنادل عسكر الادريس ، هنا سلطة الامام يحيى الراسخة ، التي تختفى وراء الجبال المنيعه على قوات العدو البرية .

وعلى كل ، توجهت الى شاوريشنا بسؤال (هل هذا هو اليمن الحقيقى ؟) (اقصد بذلك القسم الجبلى من البلاد) وكان واضحا ان طرح السؤال بهذا الشكل لم يعجبه .

اجاب قائلا :

اليمن كل مكان - هناك في تهامة ، وهنا في الجبال .

شعرت بانى قد ضربت على الوتر الحساس ، فالانجليز وعملانهم يحبون كثيرا ابراز الاختلافات بين الجبل وتهامة سواء في العلاقات الانتوجرافية او الاقتصادية او الدينية ، هدفهم من كل هذا شق اليمن وفساد ذات البين بين اجزاء هذا البلد ، وردا على ذلك يسعى اليمنيون تجاهل هذه الاختلافات والتشكيك بها .

لكننى مع ذلك اشعر بوجود هذه الفوارق ، وان كانت ليس بتلك الاهمية التي يريد الامبرياليون تصورها يتحدث عن الفارق الهواء العليل البارد ، الذي تستنشقه رثاننا بكل طاقاتها ، يتحدث عن تلك ماء النبع الصافى البارد ، الذي نشربه من المفارق دون انقطاع مثل الجمال .

ناكل شيئا ما ، نشرب قهوه قشر الاباريق ، وننام في السقف الاملس على البيت تحت ظلال شجرة الاثل العالية ، ونرى في البعيد برج حراسة اسود ، واشباح الجبال الكثيفة ، يتنفس الفجر بروده ، ولا صوت سوى صوت مضغ الجمال الثقيل ورغائها ونهيق الحمير الراقدة ، يخرق السكون الجاثم ليل الاستوائى المظلم .

وفى اليوم الثانى نمضى الى الجبال ، تصوير الجبال اعلى فاعلى ، مضائق جبلية ، هضاب ، منحدرات ، ومرتفعات مرة اخرى ومضائق ، وهكذا قدما حتى سهوب صنعاء المزدهرة .

الباب التاسع

* جبال شبه جزيرة العرب

* البن

* المدرجات

* الحصون

* المشايخ الاقطاعيون

* مناخ

* القات

* الجواسيس

جبال شبه جزيرة العرب

امر غريب وشيء لا يصدق ، تعرف ان هناك صحارى عربية ، وان هناك " سهوب رملية في ارض جزيرة العرب " ، اما ان تكون هناك جبال عربية ، حقيقة ، جبال عسوية ضخمة ، مثل قوقازنا ، فهذا ما لم نسمع عنه شيئا في السابق وامر غريب حقا ، نتأمل بشراهة شديدة السهول والسفوح الجديدة التي تظهر امامنا ، التي حيث تنقلنا البغال العنيدة الهادئة السير ، ومن الخيرات الاولى للجبال بعد الماء والهواء البن العربي الذي لا يضاهاى .

البن

هذا هو البن الذي يسمى " موكا " في اوروبا ، وذلك باسم الميناء اليمنى الصغير والفقير ، الذي ينقل عبره البن الى الخارج لأول مرة ، والواقع ان هناك اصناف عديدة من البن ، منها اربعة اصناف اساسية (المطرى ، الحيمى ، وغير ذلك) واصناف كثيرة لا تحصى والفارق بينها طفيف ، وبن " مخا " اصناف خفيفة اعدت للتصدير خاصة ، وقد انعكست في تسميتها بـ " موكا " ايضا بسبب الجهل الاوروبى ، شأنها شأن تسميات " ميكانو " او " بوجديخان " التسميات التي لم تطلق على الملوك ابدا في اليابان والصين ، لكن القضية ليست هذه ، وانما في ان كل اقتصاد اليمن الجبلى قد تطور حتى الآن تحت علامة البن ، البن الذي شكل المصدر الاساسى للعملة الصعبة للبلاد ، لقد اعطى تصدير البن امكانية خروج اليمن الى ساحة التجارة الدولية .

عرفنا ذلك في الماضى ، وباضطراب كبير فتأمل الشجرة المتفرغة الخضراء ، التي تدلت عناقيد حبوب مائلة للاخضرار من هنا وهناك ، تتزاحم هذه الاشجار على ساحات ضيقة متقطعة في المنحدرات الجبلية .

ان زراعة البن المعقدة تبدو كأنها تسير في اتجاه يناقض التخلف ، والبؤس والظروف البدائية المباشرة في البلاد ، تبدأ شجرة البن باعطاء الثمار بعد فترة خمس سنوات فقط ، وجيد يعرف عن هذه مالاشجار العناية بها اقتلاع النباتات والحشائش الضارة ، كل شيء يتحدث عن الجهد البشرى الضخم الذى يبذل من اجل هذه الحبوب المخضرة الخالية من الجمال .

العجوز أحمد ابن صالح ، الذي عمل مدة خمسين عاما في معمل البن في الحديدية يصف تاريخ البن اليمنى بالعبارات التالية .

- بسم الله الرحمن الرحيم ، ونشكر الله الكريم ، الذي اعطانا حكمة التبصر بالكون ، ان اصداقنا يطلبون كتابة تاريخ البن اليمنى ، الذي تشتريه كل الشعوب تقريبا ، معروف لكل بني البشر فوائده البن .

في عهد الملك سليمان ابن داوود ، الذي اطاعة بمشيئة الله ، الجن والانس ، الطير والحيوان ، طلب سليمان من الله خلق شجرة تكون ثمارها شافية للناس من النعاس والجنون والكويرا ، فامر الله ببعث اقوى الجن الذين تحت يديه الى البلاد البيضاء بين القطبين ، ان يجلبوا الشجرة المباركة من هناك ، فاتي الجن بالبن والقات (سيأتي الحديث حول القات فيما بعد) .

يتضح فيما بعد ان الجن قد اختارت الى جانب الحبشة جاوه ومالابار ومن ثمة اليمن لزراعة البن ، لانها بلد وثير الخيرات تقع فيما بين خطي العرض اثنا عشر واربعة عشر في الشمال من خط الاستواء وفيها يكون امتداد الليل والنهار مناسباً لشجرة البن .

وبعد ذلك ينوه محدثنا الى المحاولات الفاشلة في زراعة البن في سوريا ومصر ، وباستخفاف يتحدث عن البن البرازيلي ، وانه يفسد بسرعة ، في حين يظل البن اليمنى محتفظا بنقاوته فترة خمس او ست سنوات ، كما يتذكر انه من بين مائة من الاوروبيين الذين يشربون البن خمسة اشخاص فقط هم الذين يشربون البن اليمنى الخالص ، في حين يشرب الآخرون خليطا ، ويشير ياسي الى انه في اليمن نفسها يشرب البن ثلاثة من كل الف ، في حين يكتب الآخرون يشرب قشرة البن ، التي يعمل منها مشروب لتيل منعش ، يحل محل الشاي .

والواقع ، انه خلال كل فترة تواجدى في اليمن كنا نشرب البن بالطريقة التركية عند الوجهاء الرسميين والمشايخ الكبار فقط ، أما الجماهير الاساسية من العرب فهي تشرب برمتها مشروبا من قشرة البن ، لاستطيع ان احكم على خصائص قشرة البن ، لاني لم اشربه سوى مرتين او ثلاث مرات اثناء الطريق وتبدو هذه الفسالة انها مشروب فردوسى .

ما السبب ؟ يبدو انه نفس السبب الذي كان صيانو الفولجا لا يتناولون الكافيار ، في حين اعتبره الاجانب بحق مادة روسية اصيلة ، لقد اندهشنا من ان البن لا يتناوله سوى ثلاثة من كل الف في اليمن .

وبالتتبع فان اجزاء الشمس الاستوائية فى الجبال تلك ، الملوثة بالعصارة والاربع
للاصناف الجبلية غير المدروسة ، تظل لذاته محرق لمن يصنعها ، فالفلاح اليدوى يبيع حبوب
البن على المحتكر او يعطيها شريية للخزانة او للشيوخ الاقطاعى ، فى حين يترك لنفسه شيئاً ما
اخر ، يبعث المشايخ والمحتكرون البن الى الحديدية نصف مصفى ، وهناك يصنف ويبيع فى
اكياس ، ثم تقفلة البواخر الاجنبية الى ما وراء المحيط .

البن هو العصب الرئيسى الحيوى للبلاد (مثل الحج فى الحجاز) ، يثير الاوروبيون هذا
العصب لبلد متخلف قليل الخبرة فى احاييل التجارة الخارجيه ، تستغل الشركات الاوروبية عدم
وجود اسطول تجارى يمنى وتجار ذى علاقة مباشرة بالاسواق الخارجية (لا يدخل الهنود
هنا) حتى تفرض اسعارها على البن اليمنى ، وبهذا تثبت هذه الاسعار فى مستوى منخفض
ويشكل جشع ، وطمع الطن من الصنف الجيد من البن " موكا " يقرب من مائة جنيه استرلينى ،
ان سعر الكيلو روبل واحد تقريباً ، فى حين يكون شراء الكيلو الواحد بصعوبة بمبلغ من
سبعة - الى ثمانية " روبلات " ، ومع ذلك فانه ليس بنأ يمتياً صافياً ، وانما يخلط مع البن
الحبشى والبرازيلى الرخيص .

البن هو اول عامل اقتصادى يميز القسم الجبلى من اليمن ، نظرا لتبدل القرية والطقس
ومستوى الرطوبة والميزة الثانية (اسجل ذلك حسب توالى الانتطاعات) انه وراث حضارة
قديمة - المدرجات الزراعية المنحوتة على منحدرات الجبال الصعبة ، الابنية السكنية القديمة ،
التي تم بناؤها منذ قرون كثيرة خلت يقول البعض انها منذ الاف السنين .

ارى المدرجات مع اشجار البن فى وقت واحد ، ينمو البن فى هذه المدرجات فى الغالب اى
فى المساحات المحفورة فى مرتفعات الشعاب ومنحدرات الجبال ، هذه المدرجات المسورة
بجدران من الاحجار والمفروشة بين جوانبها طبقة سميكة من الارض المجلوبة ، حتى يكون
احيانا كل المنحدر الممتد عشرات الكيلومترات يشكل مدرجات تشبه التجاعيد .

المدرجات

هل تتصورون ؟ منحدر طولُه عدة كيلو مترات بزاوية ميلان ثلاثين - اربعين درجة ، لا
يستطيع البقل ان يسير فيه فى اكثر الاحيان ولا الماعز الراكض دائماً ان هذا المنحدر مقطع
الى قطع صغيرة بطيات اصطناعية مفروشة بترية خصبة طرية ، تنمو فيها اشجار البن ،

وتخضر الاراضي بالقمح والذرة ، من وحتى حفر الطبقات الحجرية في الجبال ، من الذي نقل التراب ، وأسندها بركائز حجرية ضخمة وتعلم ان ينشئ الزراعة المعقدة لتيانات طويلة العمر ؟ الواضح : ان من عمل هذا ليس البد وانصاف العراة ، اولئك الاميون الذين لا يملكون سوى محراث وبندقية ، الذين يتطلعون بفضول من خلف زوايا اكواخهم ، اسأل العسكر ؟

- متى ، ومنذ اى عهد تعلم اليمينيون بناء مثل هذه المدرجات ؟

انلقى جواباً لا يتغير :

الله وحده يعلم هذا ، يفترض ان يكون قبل بضعة الاف من السنين .

والمباني السكنية ؟ قلاع ضخمة ارتفاعها ثلاثة طوابق ، ليست مثل بيوتنا ، انها بيوت مبنية من الحجر المنقوش فيها نوافذ صغيرة ، عملت على ارتفاع بضعة امتار من الارض بغرض الامان ، بكوات وابراج وكرنيشات وحواف نائبة ، وسلام وناحورات وبرك اصطناعية في الغناء ، يحيط بالقصور حائط حجرى عريض انها قلاع من القرون الوسطى ضخمة ، لا تستطيع حتى المدافع تحطيمها . تقع القلاع على المضائق الجبلية في الغالب وعلى القمم او في اذيال الجبال العسوية حيث يكون المدخل من جهة واحدة فقط .

الحصون

واذا سألت :

- متى بنيت هذه القلاع ؟

يكون الجواب نفسه :

- الله وحده يعلم ذلك . نحن نعرف انه عاش بها اجدادنا واجداد اجدادنا .

صحيح ، ان مثل هذه القصور ليست ضرورية الان لا يستطيع احد ان يحتسب بها من احد ، لانه لا يعيش بها لا المشايخ ، ولا الاغنياء ، انما اولئك الرثا الثياب المتهكون شانهم شان اولئك الذين يتكدسون في الخيم في السهول ، لا احد يشاغلهم ، لان قطاع الطرق والمجرمين بالمعنى القديم في القرون الوسطى لا وجود لهم ، اما امام قطاع الطرق الجدد ، امام الطائرات والمدافع الانجليزية ، وامام المستغلين الحطيين ، فان هذه الجدران الحجرية لا تجدى شيئاً .

لكن هذه القلاع والمدرجات الزراعية تظل شاهدة على حضارة عظيمة ، وقعت ارض القبايل
بعبوة متخلفة تاخرت في تطورها ، هذه القبايل المتزعة في ظروف الرعي والزراعة البدائية لم
تعرف ولم تستطع استخدام منشآت الري العظيمة التي بناها اسلافهم الاكثر تحضرا ، اولئك
الذين لم يكونوا في حاجة للعملات والمتاع ، التماثيل الحجرية مرمية وكائنها نقايات قديمة في
كهوف مأرب التي تنهب من قبل المضارين ، انهم لم يريدوا ولم يقدروا علي الحفاظ على
حضارة مملكة سبأ وتطورها ، لكنهم وحسب قدرتهم يستخدمون المدرجات الاصطناعية ، التي
حولت منحدرات الجبال الجرداء الي رياض مزدهر ، في القلاع العريقة الشامخة المعبرة عن
بقايا الثقافة القديمة يعيشون في اسمال بالية بين الدخان والوساخة .

تتكون اللوحة ، كما لو ان روما بثقافتها العريقة العهد ، بالقصور وسواقي المياه ، حتى
بتلك المدرجات التي لم تكن معروفة لا في روما ولا في اى مكان في العالم ، لقد اخلت
وانقرضت ثم غمرتها شعوب جديدة متدفقة من الخارج ، تلك القلاع التي لم تحرق ولم تخرب من
قبل البرابرة كما فعلوا في روما ، وانما قطنها ناس بسطاء فحاولوا الي اكواخ متواضعة ، ولا
يتذكر بانها قلاع الا مظهرها الخارجى .

والان تؤكد هذه " القلاع " الافتراض الذي عبر عنه انجليز في عام ١٨٥٨ في احدى
رسائله الي ماركس بشكل مرئى :

" هناك اينما عاش العرب في العربية الجنوبية (اى في اليمن) بشكل حضرى ، فانهم
قد كانوا حسب البراهين شعبا متحضرا مثلهم مثل المصريين والاشوريين ... الخ ومنشأتهم
يؤكد ذلك " . (ماركس ك . انجلزف . - المؤلفات الكاملة . المجلد ٢١ صفحة ٤٨٤) .

وعلى كل حال لم تحول كل القصور الي اكواخ .

فهناك قصور مفروشة بشكل فاحش وبعد ان صعدنا مضيقا جبليا رئيسيا رأينا قصرا
شامخا ارتفاعه ستة - سبعة امتار على تل بجانبنا ، وكأنه قد من ثلاث قطع منفصلة ذات
ارتفاعات مختلفة ، تبدأ النوافذ التي تستخدم ككوات في نفس الوقت على ارتفاع ثلاثة -
اربعة امتار من الارض - تحيط المتاريس الحجرية بقناء صغير ، التل مزروع كله بالصبار ،
طريق منحني بشكل باثرى يؤدي الي البوابات .

المشايع الاقطاعيون

نشاهد في الطريق مجموعة من الناس ، يتوسطهم شيخ اشيب اللحية في ثوب ابيض فضفاض وفي خصره جفل فضى وعلى راسه عمامة خضراء ، وبقرية خادمت بدويات انصاف عراة بقمصان مفتوحة ويعيد عنهما شاب اسمر ذو وجه حاد وعلى راسه قبة من القش .

ينتصب امامى كل محيط القرون الوسطى ، الشيخ الاقطاعى ، مالك القصر ، اثنان من الفلاحين (خدم او مستأجرون) ويهودى قادم من المدينة المجاورة ، يحتمل انه وصل للتجار او لصفقة مالية .

تبادل التحيات مجاملة مع الشيخ ، ثم نجيب على سؤال لماذا وصلنا .

- تجار روس ، ذاهبون الى الامام للتفاوض حول التجارة .

ينتهى فضولة ، اطلب منه السماح بتصويره هو وكل الموجودين معه ، يوافق على الطلب لكنه يرفض ان يكون اليهودى معه وقد كان رفضه بحزم وذلك لان اليهودى لا يستحق ان يكون معه فى صورة واحدة وهو الشيخ ، ومع ذلك فقد استطعت ان التقط اليهودى - الذى تعدد التأخر فى الطريق - فى الصورة مع الشيخ .

المشايع ، اليهود ، المستأجرون والفلاحون - هذه هى اليزة الثالثة التى تميز منطقة الجبال عن تهامة .

تبرز هذه اليزة بوضوح خاص لاكمال النمط الاقطاعى النموذجى فى القسم الجبلى من اليمن ، واذا كانت العلامة المميزة لتهامة هى الاساس القبلى ، والخلافات الموجودة ، وكل المشاكل والتناقضات تدور على اساس النظام القبلى ، فاننا فى الجبال لم نسمع تقريبا عن القبائل والمشايع وزعماء القبائل ، وبدلا من هذا تبرز صور المشايخ الاقطاعيين ، مالكي القصور ، والاراضى الزراعية الواسعة ، المراعى والمدرجات الزراعية فى الجبال .

وهذا الفارق مع ذلك ليس لصالح تهامة ، انه يتحدث عن ان الاقطاع فى الجبال قد تبلور ، بمشائخه وقلاحيه المزارعين ، بعسكره وتجاره الحضريين المحليين (بشكل غالب من اليهود) ، بالطرق الراقية لصلاح الارض ، لقد سبقت الجبال تهامة بكثير ، تهامة التى تمارس الرعى والزراعة البدائية ، بسكانها لوى النمط القبلى او ببساطة النمط العشائرى - البطريركى ، يعيش سكانها انصاف رعاة ، هنا فى الجبال مملكة الملك " ارتور " الاقطاعية

المبكرة من القرنين السادس والسابع ، أما هناك في تهامة ، فإن الناس لا يزالون يعيشون حتى الآن نعتا بطريركيا - قريبا ، وأن كان يمثل بدورة مرحلة اعلى بكاملها عن النمط الرعوى - الصحراوي لبني الحجاز .

مرحلة تاريخية كاملة - في خلال يومين من الطريق في شبه جزيرة العرب ، هذه المنطقة العذراء في الحضارة العالمية ، تحت الجواجز الرملية ، تحت اشعة الشمس الحارقة ، مثل للمبيعات الفرعونية احتفظت بذاتها بضعة عهود من حياة البشرية ، عهود بدأت تهتز وتتحلل فقط تحت مطرقة الحرب العالمية ، تحت رنين الذهب الامبريالي وتحت دوى الثورة الاشتراكية . هذه هي اول الانطباعات عن الجبال ، وهي تتعزز وتتكامل في كل مراحل الطريق اللاحقة .

نتسلق راكبين من فحج اصيل نعير بضعة مرتفعات على المرات المتعرجة المملوئة بالاحجار وخمائل الصبار على جوانبها ، نصل الى منخفض واسع ، ويعد أن ندور حول اطرافه نصل الى مدينة مناخة ، حيث يجب ان نتوقف مرة اخرى .

تقع مناخة على المضيق الجبلي الرئيسي في الطريق الى صنعاء ، تمتد على جانبي المضيق ، ومنها تبلو سفوح الجبال الواسعة والتي تتحول تدريجيا الى شعاب وسهول ، تغيب في الاقبح الضباب الازرق ، نشاهد قري منفردة على المنحدر الغربي تتخللها المدرجات الخضراء من القمح والذرة .

وفي الشرق ترى فجاء متعرجا يتحول بعيداً في الاسفل الى سهل اغبر بلا لون ، ثم سلسلة جبلية شاهقة من جديد ينبغي ان نصل اليها فيما بعد .

مناخة

مناخة - مدينة شرقية نموذجية من مدن القرون الوسطى ، امتازت تحت تأثير تجارة القوافل النشطة ، هنا المرحلة الاساسية ، فهي في منتصف طريق القوافل السائرة من الحديدية الى صنعاء ، ولهذا فان الساحة الصغيرة مملوئة بالجمال الباركة طلبا للراحة ، الحمير تنهق والبيغال واجمة ، مجموعة افنية للتوقف في بضعة شوارع - واسواق ، منطقة سكنية صغيرة ومزروعات الذرة على السفوح ، وعلى الساحة بقرب الطريق الكبيرة مبانى حكومية تلفراف ، سجن ، هناك يستخدم غير القوافل في نفس الوقت ، ومكان لوقوف القوافل الحكومية . وعلى

يسقط الجبل اينما ترفع (المدينة) تقع قلعة مراقبة فيها حامية صغيرة ، كان الاتراك يقعون بثبات في هذه المدينة في عهد الامبراطورية العثمانية : لهذا لا يزال فيها طريق معبد ، وبها قباب جميلة لخزانات المياه وبيوت الخلاء بناها الاتراك من الحجر المنحوت ، تلك البيوت التي لا تتناغم بشكل كامل مع نمط حياة البلاد البدائية .

في السوق كثير من الحوانيت فيها بضائع عادية من الحبوب ، الدخن ، الذرة الشامية ، قشر البن ، وعلى العكس من اسواق تهامة يوجد هنا كثير من البقول والخضروات في مثل هذا الوقت الخيار والطماطم وحتى الفواكه مثل المشمش والليمون المجلوبة من صنعاء ، نبتع بشراهة هذه الثمار الاولى " في العربية السعيدة " . وان كانت قليلة وقد فقدت طعمها نظرا لطول الطريق الجبلي الصعب والقاسي من صنعاء . وفي حوانيت الاقمشة كثير من النسيج المحلى : ايسطة بيضاء بحواش حمراء ، قلع كبيرة ثخينة من قماش احمر مخطط ، يستعمل بدلا من السجاد ، مصنوعة من القطن المحلى يوربا بمساعدة ائوال بدائية مثل تلك التي شاهديها في الحديدية ، هذا القماش القوي المتين ، والى جانب هذه المصنوعات الرائعة ، توجد وفرة من الاقمشة القطنية الرديئة والرخيصة التي ادهشتني بوجود الماركات عليها والمصنوعة في المعامل اليابانية في شنغهاي ، وقد رسمت عليها حروف صينية ، وقد تاكدت فيما بعد ان هذه الاقمشة اليابانية الغليظة اضافة الى المنسوجات الاخرى تغطي السوق اليمنية النائية ، تنافس حتى منسوجات ما تشستر ، هذا بغض النظر عن ان اليابانيين لم يوجدوا بشكل مباشر في اليمن ابدا ، اذا لم تأخذ بعين الاعتبار واحد ما من غرباء الاطوار منهم الذين يصطادون بعض المنتجات البحرية على السواحل قرب جزيرة كمران ، هذه الكائنات البحرية التي تشكل المادة الوحيدة للمستوردات اليابانية من اليمن والتي تسمى باللغة العربية " فرج البحر " وهي الجملة التي لا تجد مقابلا لها في اللغة الروسية الخجولة أو لا توجد ترجمة لها فيها ، ومع ذلك ليست المسألة هنا ، فقد تذكرت نقيضا لذلك حديثا مع بعض الرفاق في الهيئات التجارية ، حيث اصابهم الرعب لمجرد الافتراض بانه يمكن اقامة تجارة مع بلد ليس فيه مقومات تجارية بطاقم من العاملين لا يقل عندهم عن عشرون شخصا كما هو مالوف ، وبما ان الاحتفاظ بمثل هذا الطاقم في البلدان العربيية يعتبر خسارة فقد استنتجوا بسعة افق روسي حقيقي : يعني ان التجارة مع البلدان العربية ربحية وخيال ، وليس لها نصيب من قبل رجال الاعمال الواقعين الصائحين ، حسبا يعتبرون انفسهم ، في حين يميل اصحاب المعامل اليابانيين الجزيرة العربية ببضائعهم من المخازن في يومباي بمساعدة شبكة متشعبة من الوسطاء (الهنود غالبا) بكل بساطة في نفس الوقت ، وما يلفت النظر الى جانب الاقمشة القطنية اليابانية ، المصنوعات

الحريية الصينية مثل الجوارب ، المناديل ، وأشياء أخرى صغيرة من النوع الرديء بما فيه الكفاية (وقد اقتنعنا بذلك من التجربة الخاصة حيث تمزقت الجوارب فى يوم واحد) ، وتبدو هنا وهناك خربوات الحديد الالمانية - النمساوية والتشيكية ، سلع صغيرة ، خيوط ، مصابيح يدوية ، زجاج الفوانيس الخ ، اما البضائع الامريكية فتتمثل فقط بصفائح الكرومين استندرات اول ، والبضائع الانجليزية غير ملحوظة .

١٠ نمر على التلفزيون : وهو عبارة عن غرفة صغيرة ، ومدير التلفزيون هو نفسه عامل التلفزيون الوحيد ، يستند بمراقبيه على المنضدة ينقر على الجهاز رسالة عاجلة ببطء ، ونحن دخلنا ينهض ويحيينا بوقار ، من الواضح اننا قد ازعجناه ، لان الوقت فترة ما بعد الغداء ، وهو جالس يمضغ القات وقد وقع فى حالة يكون الحديث فيها من الاعمال التى اقل ما يرغب فيها ، ساعات القات ... قد ذكرناها سابقا ، هى اكثر الساعات نعيما فى حياة اليمنى ، ففى هذه الساعات من الواحدة حتى الثالثة بعد الظهر تقريبا ، لا يستطيع فيها الفقير المتدقع فقط متعة تلمس حزمة الاوراق الخضراء المحتاطة مسبقا ، ووضع نتف صغيرة منها فى الفم ومضغها يتلذذ يمسح بها لهاب سقف حلقه وعندما يكون المقيبل جماعياً تتخلله صيحات منفردة ، تعكس حالة الابتهاج نصف السكرانة التى يرفع فيها ما ضفوا القات نفسا من دخان التارجيلة بالنور ، ويرتشفون فى النادر من ماء باردا مشبعا بالبخور من اكواب صغيرة .

القات

وتحت علامة القات " مثل الفودكا عندنا المعروفة بقدر معلوم " تمر الحياة ليس فى الريف اليمنى فقط بل وفى المدينة ، ان حزم الاوراق الخضراء الجذابة تعتبر سببا اساسيا للتبذير ، للتخلف عن العمل وسببا للجريمة ، واكمالا لكل ما تقدم فان القات يضعض صحة المخزنتين المتهورين ، كما يستخدم القات مصدرا لربح ملاك المزارع الصغيرة المزروعة بالاشجار اللطيفة المظهر ، والتي لا يتجاوز حجمها شجيرة اليك ، ونتيجة لضغ القات ، الذى يتم تعاطيه بدلا من الكحول والتبغ الى حد ما ، وكذلك بدلا من مجموع المتع ووسائل الترفيه المدومة فى هذا البلد المغلق والذى يرجع ذلك الى صرامة العادات والاخلاق ، فان نصف السكان يقضى وجوههم الصحى ، كما يصابون بمجموعة من الامراض المزمنة حيث انهم يتحولون الى مخدرين ماجزين ، والنضال ضد القات لا يصعب بسبب وجود ظروف معيشية خصوصية متميزة فقط ، بل ولاستحالة استبداله باشكال ترفيهيه اخرى ايضا ، وبسبب العادة القوية العنيدة منذ غابر

الزمن ، لقد وصلت هذه العادة الى مرحلة طقوسها الخاصة ، يحكى ان الامام يحيى الذى لم تتعدم فيه طموحات التقدم والاصلاحات الجزئية فى البلاد ، فكر تحت تأثير الأطباء بالحد من استعمال اللقات الى درجة معينة ، وكبداية توقف شخصيا عن مضغ اللقات ، الا ان هذه " البدعة " واجهت بتذمر قوى من العلماء منتئين بمجموعة من المشايخ المؤثرين ، وكشفت للرئيس الروحى والمدنى كل تناقض سلوكه مع نمط الحياة المتوارث عن الاجداد والذى توسع منذ القدم ، وتحت تأثير الغيورين بصرامة على الاصلة الوطنية والمشجعين بدون شك من قبل ملاك مزارع اللقات وتجاره ، اضطر الامام للمهادنة ، حتى انه نفسه كان يمضغ اللقات بعد الغداء ، كى لا يعطى رفضه للقات صفة مبدئية او قطعية .

ضيقنا مدير التلفزيون بالشاهى ، وسلم لنا فى نفس الوقت برقيات تحية من سيف الاسلام محمد من الحديدية ومن عامل بأجل ، هذاننا سيف الاسلام بسلامة الرحيل الى صنعاء ، التى سماها " عاصمة الخليفة " ، فى الجملة الاخيرة اشارة الى ان المؤمنين التابعين للمذهب الزيدى يعتبرون الامام خليفة لقاطبة المسلمين ، اينما يكون مقره عاصمة للمسلمين ، وعلى كل حال تضعحل هذه الصيغة فى محتواها فى واقع الحياة القاسى ، الذى لا يقدم اية امال لتحقيق امال الجامعة الاسلامية .

يشعر مدير التلفزيون بانه ممثل السلطة العليا فينطبق بخطاب حول الخصائص السيئة للبضائع الايطالية ، معبرا عن امله فى ان تكون البضائع الروسية على مستوى الامال المرجوة ، ثم نفترق بعد ان تبادلنا المجاملات .

فى النزول الصغير يخبرنا قائد حراستنا انه يتحتم علينا الانتظار للسفر الى اليوم التالى ، وذلك لانه لا يوجد جمل نستبدله بالجمال الاول ، واضافة الى ذلك فقد بدا البغل الذى كان بصحبتنا يعرج ، وان السلطات قد ارسلت طلبا الى الامام حول اذا كان يمكن تغييره ببغل اخر ، انتظار جواب الامام مسألة فى غاية الاعمية ، وقد اقترح علينا ان ننام بهنوء ونسافر صباح اليوم التالى ؛ وفى تلك اللحظة لم نتقبل بجدية حجته فيما يتعلق لا بامكانية تدخل الامام فى مسألة تغيير بغل باخر ، فارجعنا سبب التأخر الى نوافع سياسية ما او ببساطة رغبة العسكر فى الراحة فى مدينة ملائمة نسبيا على حساب " الرحالة المشهورين " .

لا شك ان الأخير كان واحدا من الاسباب ؛ لكننا اقتنعنا فيما بعد ، ان واقعة الاستفائة من السلطات المحلية فى حد ذاتها الى العاصمة حول مصير حيوان حكومى لا تشكل بحد ذاتها امرا عجيبا ، فاذا لم يكن الطلب مقدما الى الامام ، فانه سيكون فى كل الاحوال الى اقرب

مساعديه الوزير (يشبه رئيس الوزراء) القاضى عبدالله وانه سيكون مشغولا ببحث مسألة يمثل هذه الاهمية ، الجهاز البيروقراطى فى اليمن بسيط بما فيه الكفاية ، فاصغر القضايا توجه الى الامام او الى رئيس وزرائه . .

الجواسيس

لقد لاح لنا فى توقفنا الاول وعن قرب ، لاحظنا نشاط مختلف النماذج الغربية ، التى من الواضح انها تتحرك بأوامر احد ما من الخارج ، وهكذا ظهر هذا بشكل جلى خاصة فى مناخة ، فى النزل الصغير يلاحقنا رجل رث الثياب بعناد ، يسعى نون اى طلب منا ان يتحدث عن مأزق الامام ، وبنامه على ما يقول يبدو ان كل السكان اطلاقا معبأون ضد الامام ، الجنود يهربون ، التجارة توقفت ... الخ .

الجميع يتعطشون لوصول الانجليز ، يخافون من الدمار الذى ستترب عليه غارات الطيران ، الكل يعانى من الضرائب الباهظة .

نحاول التهرب منه ، وذلك لان معلوماته تاخذ صفة المغالاة والتحيز وتتناقض بشكل ملموس مع مجموعة من الوقائع المرئية ومع الاتطباعات المباشرة التى حصلنا عليها نتيجة الاحاديث مع اشخاص آخرين ، ورغم ذلك فهو لا يكف عنا ، يتعامل ، يساعد فى جلب الاشياء يسعى مزاحمة العسكر الذين يراقبوننا .

نرجوه مرة ثانية ان يكف ، نهده بالشكوى الى العسكر ، وحين رأى انه ليس لديه اى شىء اخر يطلب " بخشيشيا " (الشاهى) والوداع ، ينزع حزامه ويحدثنا انه كان فى حينه خادما لجيكوب ، وكانه مطلوب تأكيد ذلك ، ابترنا محتملا ريالين فضه ، ومع ذلك ظل يتابعنا طول الطريق بثبات عن بعد ، ولم يفقدنا من لمح بصره حتى وصلنا صنعاء نفسها .

بطريقة او باخرى نرتب انفسنا للمبيت ، هناك جبال ، والاثاث الداخلى للبيوت ليس مثلما هو عليه فى تهامة ، لا توجد هنا الاسرة المقتولة من القش ، نتمند على مصاطب من الطين داخل الغرفة التى ارضيتها من تراب يوقظوننا عند الفجر وبعد ان شربنا كوبا من اللبن نمتلى البغال وبعد ان اصبحنا خارج المدينة فى طريق معبد واسع بداننا النزول فى فج عميق ، وتتحول الطريق المعبدة الى طريق مملوه بالحجارة ، التى لا تستطيع الخطو عليها سوى البغال ، فهى تجد بمهارة المكان الملائم لوضع الحوافر دون ان تفقد نقطة استنادها ودون ان تقع فى الهاوية الفاغرة .

من حين لآخر نصادف قوافل الجمال الطويلة ، التي كان يجب علينا ان نبتعد عنها بالقدر
الممكن ، وسبب ذلك أن السير المنتظم للجمال الذي لا يلقى على شيء (لا ينظر الى ما حوله)
وهو حامل رزمة او حزمة معلقة على جانبية ، قد تؤدي اما إلى ان تدفع الراكب المقابل الذي
اصطدم بها الى الهاوية ، واما ان تلصقه بالصخور وتسحقه مثل الرغيف ، كان المنخفض
شديد الانحدار ، وكانت للجمال تسير بسرعة ، وبعد ساعتين وصلنا الى سفح السلسلة الجبلية
الى سهل خانق محترق .

الباب العاشر

* من مضيق الى مضيق

* مدقق

* التركيبي الشاكي و " شخص " في الجديدة

* الجراد والاعلام الحمراء

* المنجم

* نتائج الرحلة

من ضيق الى ضيق

في نهاية المنخفض ، هناك حيث يتحول الفج الى سهل جاف مملوء بالصيار ، يستقر
مقهى عند السفح ، كوخ ضيق صغير يتكون من اربع او خمس زوايا ، مرصوص بأحجار غير
منجورة ، يمتلكه بدوى واهن بثياب رثة ، نادانا بالحاح لنستريح ، نتوقف ، يصب لنا فناجين من
قهوة القشر ، ويعد لنا على الفحم بيضاً زتخا من الدخان ، وقريبا منا يحوم ابنه ، صبي في
السابعة او الثامنة من العمر .

ما هي اهتمامات من يعيشون في هذا الكوخ علي حافة الطريق ، ما هي الغايات
الاجتماعية المثلى لصاحب هذا المقهى ، نسال الصبي .

— ماذا تريد ان تكون عندما تكبر ؟

نظن انه سيعير عن رغبته في ان يصبح عسكريا ، ضابطا ، قاضيا ، موظفا ، شيخا ...
فما هي الطموحات التي يمكن ان تكون لدى صبي هذا المالك ؟

— اريد ان ابقى في هذا المقهى طول حياتي مثل ابي .

صبي سعيد ، مثله قنوع متواضع جدا وبسيط جدا تحقيقه ، يشترط ان تظل اليمن ثابتة
لا تتغير عشرات السنين القادمة ، وحينها سينتقل هذا الكوخ المبنى من الاحجار من الاب الى
الابن ومن الاخير الي الحفيد ، كانه ضمانة لثبات مثلهم .

لكننا للأسف ، عرفنا في صنعاء ، بان الحكومة اليمنية تشق طريقا جديدا صالحا
للسيارات من الحديدية الي صنعاء ، ستمر هذه الطريق بمناطق اخرى تماما ، وتغير شعاب
وسلاسل جبلية مجاورة ، وحين ينتهي شقها ، وهي مسألة ستكون في الاموام القادمة ، فان
سير الحمولات الرئيسي سيمر بها قاطعا الطريق من البحر الي العاصمة في يوم ويلة ، وبهذا
ستفرغ ناحية مناخة وشعابها بالكامل من القوافل المارة بها ، وعند ذلك سيتحتم على مالك
المقهى واولاده القنوعين ان يتركوا كوخبهم وان يذهبوا الي المدينة طلبا للرزق ، ايدا ، فان
المستقبل القريب جدا لليمن يحمل في طياته افاقا غير متوقعة لصاحب هذا المقهى ، الفارق في
غبطة ونعيم مشكوك به في كوخبه .

وداعا ايها الصغير السعيد المفكر بواقعية ، لن تكفيك نزعاتك العملية الواهمة طويلا ،

قدما نصل الى سهل تتخلله اكمام صغيرة .

السهل حار مثل سهولة تهامة ، تبطن البغال خطوها ، تجتاز سلاسل الجبال بصعوبة ومنخفضات يذبت فيها الصبار ، تمر خمس ساعات في الطريق ومناخة لم تختفى عن الانظار بعد ، مناخة المفروشة على مرتفع المضيق الجبلى البعيد ، نمر مرة اخرى مروراً قصيراً في مقهى نائى على حافة الطريق ، ثم نتحرك قدما ، نرى تلالا جديدة اكبر ، واشباحا غريبة متفرقة للجمال المتناثرة على كل التل من السفح حتى القمة ، تقضم النباتات الشوكية بشراهة ، وفجأة يبدأ العسكر ينادون بكل اصواتهم مترنمين بمختلف النبرات :

— احمد بن محمد المطرى ! احمد بن محمد المطرى !

وعلى سؤالاتنا ، ماذا يعنى هذا الاطراء او التبجيل ، يجيب العسكر بان كل الارض التي تسير عليها لعدة ساعات يمتلكها الشيخ احمد بن محمد المطرى ، تعتبر المنطقة بأكملها ملكا له ، وكل من يمر بها عادة ينادى باسمه يكرره في مختلف المقامات .

محقق

نصل قرب المساء الى سهل جديد واسع وفي نهاية السهل جبل في قمته قصر محقق ، هذا واحد من المراكز الادارية المهمة ، رغم ان سكانه يشكلون حامية صغيرة ومحطة تليفراف ، تتوقف للمبيت على جبل مقابل له ، حيث تقع قرية صغيرة بنفس الاسم .

لا يوجد في هذه القرية لا التليفراف ولا السلطات ، كما لم يخطر احد بوصولنا ، يتوجه شاويشنا بنفسه ليبحث لنا عن مسكن ، كل الاكواخ مكتظة ، وبعد عدة محاولات استطلاعية فاشلة يشير الشاويش الينا على احد الاكواخ ، وحين بدانا نرتب انفسنا بجانيه ، لم نكن ندرك بعد ان اكملنا انزال حمولة البغال ، حتى ظهرت امرأه من مكان ما ، اتضح انها صاحبة الكوخ ، تمطرنا بسيل من الكلمات الغليظة داعية على رؤوس العسكر ، وربما رؤوسنا ايضا ، بكل لعنات السماء المختلفة .

نطلب مرتبكين توضيحا للقضية ، اتضح ان العسكر العابرين قد اضجروا السكان المحليين بتوقفهم اللانهائى في هذا المكان ، اولئك العسكر الذين يطلبون الغذاء المجانى ، واحيانا تصاب الممتلكات بخسائر اخرى ، حتى اصبح وصول اى عسكرى الى الكوخ ينظر اليه بانه مصيبة او كارثة نورية ، والحالة كهذه ، يزداد غضب الامراء ، لان الشاويش الذى يقود جماعتنا

لم يهتم بسؤالها مسبقا عن امكانية مبيتنا حتى من قبل المجاملة ، وفي سيل السباب المسعور يبدو كما لو انها افترغت التذمر المتراكم ضد العسف الذي يقوم به العسكر والصف الطويل من الضيم والمضايقات .

نعلم انه لا نعترزم شغل الكوخ ضد ارادتها ، حتى اننا بداننا في رص العقد التي كانت قد فتحت . حينها يسوى الامر ونحصل على " الموافقة المعنوية " ، وكان الشيء الرئيسي انه بعد ان عرفت انها لن تخسر هذه المرة ، هدأت وبدأت تطهى الطعام لنا ، امتد يفا على الاسرة المنتقلة قرب المدافىء تاركين للعسكر الاندساس تحت قبته الخائفة .

التوكس الشاكس و " شخص " فنس الحديدية

يحل الليل سريعا ، امامنا سلسلة جبال جديدة طويلة ، يجب ان نقطعها غدا لكي نصل في اليوم التالي الى صنعاء ، ننتهي من اكل الدجاجة التي لا تتبدل تنتظر النوم بلذة ، وفجأة ينتصب امامنا ، نموذج غريب اخر كما في مناخة ، تركى شائب يبدو ذلك من طربوشه المهترى ، متعب معقر من رحلة طويلة مشيا على الاقدام ، يبدأ يؤكد لنا بحيوية ويتشفى انهيار الحكومة اليمنية :

- يهرب الجميع من صنعاء ... الامام بسياسته انهض الجميع ضده ، توقفت التجارة مع عدن ، والبضائع مفقودة ، والطائرات الانجليزية على وشك الوصول الى صنعاء ترمى بقنابلها ، لكن السكان لا يخافون من الانجليز ، انهم على استعداد للترحيب بهم كمنقذين لهم من الامام ، يشقشق بعبارة واحدة يكررها عدة مرات ،

- فليأتى كائن من كان .

نسعى الى استقصاء " انحداره الاجتماعى " باهتمام ، يتضح انه تاجر تركى ، ذاهب على عجل الان الى الحديدية فيبحث عن بضائع ، بدأ يتباكى على اوقات التعميم ، حين كانت سلطة الامبراطورية العثمانية تقبض بيدها على هذا البلد واعطت مجالا واسعا للتجار الاتراك للكسب ، اما الان فان الاتراك يرحلون من اليمن ، لان التجارة تنتقل قليلا قليلا الى التجار العرب ، ظل هذا التركي منتمرا ، يتذكر باسى الايام الخوالي حينما كان في بحبوحة من العيش .

الصورة واضحة : بقية عفة من المحتلين الاتراك ، ممثلىء بالحقد على اليمن المستقل ،
يتمنى له كل اخفاق وفشل ، يساعد بكل قوله اعداء اليمن ، ينشر كلمه بكلمة تلك النمام
المستقرة ، التى سمعناها منذ توقفنا السابق من فم " خادم جيكوب " .

وفى نفس الوقت - كما عرفنا فيما بعد - كانت قد وصلت الى الحديدية شخصية مؤثرة ،
من الواضح انها مرتبطة بالانجليز (احد الوزراء المصريين السابقين التابعين للانجليز) وقد
نشرت هذه الشخصية مثل هذه الاخبار واطافت اليها معلومات اخرى وقد كانت هذه الشائعات
تهدف بالاساس الى ما يلى :

وجه الانجليز الى الامام انذارا نهائيا ، يطالبون بحل مشكلة المناطق المتنازع عليها
(المحتلة من قبل الامام) وبمجموعة من التنازلات الاخرى ، بما فى ذلك اعطاء حكم ذاتى لتهامة
، وانه خلال الايام القادمة ستلقى الطائرات الانجليزية قنابلها على كل المدن اليمنية بما فيها
العاصمة ، والاسطول الانجليزى سيسبح الحديدية من على وجه الارض ، ستتفرض القبائل ضد
الامام وستنتقل السلطه الى يد شخصية اكثر مقبولية لدى الانجليز ، وما دام هناك متسع من
الوقت ، يجب التنازل ، واقتناع الامام بتقديم تنازلات ، وطلب المسامحة من الانجليز .

فى هذه الايام ، ظهرت بارجة انجليزية على سواحل الحديدية ، وكأنها صدفة ، وقد كررت
هذه الشخصية بالحاح تشير باصابعها عن يمين ويسار باتجاه البحر :

- اترون ، انهم قد اتوا ، اذا لم يكن اليوم فغدا سيبدأون القصف .

وحين اصبح واضحاً ، ان الحكومة رفضت مطالب الانجليز بالتنازل ، اكدت هذه
الشخصية يجزع :

انتهى اليمن ، ليس له من خلاص .

وفى نفس الوقت حاولت هذه الشخصية ، اقتناع الوجوه المؤثرة فى الحديدية بالاقدام " من
اجل المصالحة الوطنيه " على استبدال الامام يحيى بشخصية ما اخرى ، ولو حتى على نطاق
تهامة ، لقد كانت الترية غير ملائمة لتجار الحديدية ، قرغم انهم قد ارتبطوا بالشركات الاجنبية
ويتأهون تحت التأثير المتعاضم للسلطة المركزية ، التى تسلك الى ارباحهم التجارية ، الا انهم
لم يتجرأوا على الدخول فى صراع مكشوف مع صنعاء ، لان علاقتهم بالسوق الداخليه وخوفهم
من التنكيل غلبوا على انفسهم واستسلموا استسلام الكمبرانور المتذبذب ، وبالمناسبة ظهرت
هذه الشخصية " امام رفاقنا الذين يقوا فى المدينة ، محاولة اقناعهم باخطارنا تفرغنا عن

الموت الذي يهددنا في صنعاء ، وعمل كل شيء من أجل عودتنا من الطريق بأسرع ما يمكن .
وهكذا ، انه اجزاء متفرقة ، من انطباعات منقطعة كانها محض صدفة ، وقليلاً قليلاً
تتضح الصورة المعقدة للشبكة العنكبوتية من الدسائس والاستنزافات ، التي ينسجها بمهارة
رؤساء عدن المجريون ، وقد تأتى لنا لاحقاً ان نصطدم بنتائج وظواهر هذا العمل في صنعاء .
اليوم قبل الاخير من رحلتنا ، صعود طويل وشاق ، نعبّر المنطقه ، التي اشتهرت بانها
المعقل الرئيسي لنشاط الثوار اليمنيين في عهد الاحتلال التركي ، نرى هنا وهناك على قمم
التلال ، أبراج المراقبة التي بناها الاتراك ، نتوقف في الظهيرة في قرية صغيرة اسمها سوق
الخميس ، هنا تبدأ منطقة مزارع البن مرة اخرى ، وسهل الحيمة المشهور غير بعيد من هنا ،
هذا الوادي الذي سمي باسمه صنف من اصناف البن اليمني ، اتى الينا تجار البن يقترحون
علينا عقد صفقات مباشرة هنا للتخلص من وسطاء الميناء ، كما ياتي الحكام المحليون ، بدأ
احدهم حديثاً مفتوحاً مع قائد حرسنا حول المثل السياسية " للاعضاء النشطاء " من المجموعة
العسكرية اليمنية ، يثبث لنا بان اليمن مؤهلة لتوحيد شبه جزيرة العرب تحت سلطتها ، بل وحتى
توحيد الهند ومصر ، حيث يوجد اتباع ومريدون للإمام . نرى ان هذا هو برنامج الحد الاقصى
، الموجود فقط ارفع همة فئه نشطه واسعة ، ثم عرفنا فيما بعد واقتنعنا بانه لا يوجد لدى
الايوساط اليمنية الحاكمة مثل هذه الالهام ، وانها تفكر بطريقة اكثر واقعية ، تطمح لان يتعزز
استقلال اليمن في حدوده الداهنه ، لانها في قوتها الانتاجية بهذا القدر ، اما طموحها في
التوسع فلا يتمثل الا بشكل الحاق بعض المقاطعات في الشرق والجنوب الشرقي (مارب
وحضرموت) .

الى الامام قدما ، نمشي اعلى فاعلى ، لقد أصبحنا على ارتفاع اكثر من ثلاثة الاف متر
فوق سطح البحر ، وعلى طريق واسع مقوس الشكل ، تتعرج حول منخفض سحيق ، مغطى
بطينات كثيفة تتألف من مدرجات البن ، ندور حول وادي الحيمة ، الذي تتصاعد من قرارته
سحب مظفرة ، وبعد ان نخلف بمجموعة هضاب صخرية ، تهبط الى نهر صغير ، حيث تبدأ
طريق معبدة صالحة بما فيه الكفاية لعبور السيارات ، وقرب الجسر وعبر النهرين صف من
المباني الحجرية ، هذا هو سوق الخميس ، حيث يشتغل السوق يوماً في الاسبوع (يوم الخميس
) لكل المنطقة ، لكن السوق الان خالي ، لا يرى احد في المباني الحجرية ، نتابع سيرنا في
الطريق المعبد الواسع ، الذي لم نتوقعه ، نتحسر على عدم وجود سيارة يمكن ان نبلغ بها
صنعاء خلال ساعتين او ثلاثة .

تتخرج الطريق على أفضبة سهلية مارة بالمضائق الجبلية القليلة الانحدار ، بين الاراضى الخضراء الشبيهة برقعة الشطرنج ، تخضر مزارع الذرة والقمح ، وتصانف قرى ليست من الاكواخ البسطة وانما من مبانى ضخمة تتالف من ثلاث أو أربع طوابق ، يقال انها بنيت قبل الف سنة ، كلها قصور قرووسطية بكوات وإبراج مراقبة ، تقع على المرتفعات تلتصق بمرتفعات الجبال ، لا يمكن الوصول اليها فى حالات الهجوم الا من جهة واحدة فقط ، نشاهد خرائنات المياه الحجرية الواسعة التى بناها الاتراك على طول الطريق المعبدة الرائعة ، لقد ارفعنا ، تعد الساعات المتبقية للوصول الى متبة مكان المبيت الاخير .

فجأة ينتعش مرافقونا ، يتبادلون النظرات بهلع ، يشيرون الى سحابة غبراء بعيدة .

الجراد والاعلام الحمراء

- الجراد ، الجراد - نسمع الاصوات المتقطعة .

نحلق فى السحابة الغبراء ، نرى كيف تتسع متحولة الى سديم كثيف ، تغطى الافق الذى كان سابقا قبل برهة قصيرة ، نمضى نصف ساعة واذا بنا ندخل فى عمق هذه السحابة من اسراب الجراد المنتشرة .

تضربنا الحشرات بأجنتحتها ، تصيب اذاننا ، كما تصيب اليفال وترتمى اكداسا على الطريق تشكل غطاءا كثيفا تخطو حيواناتنا عليه وكأنها تخطو على بساط .

ومن حولنا - ارض ... مزدهرة ، زرع اخضر يتحرك بالكاد من البرودة الطرية للهضاب الممطرة ، لقد طوقتها الجموع الشرهة بكثافة .

نضال ؟ ... لكن ايمكن ان نسمى هذا نضالا ؟ ... ففى بعض الاماكن المنفردة التى تقطعها السواقى يركض اناس منفردون ، غالييتهم من النساء والإطفال يلوحون بمراوح كبيرة مخشخشة ، ان طرد الجراد من الحقول بهذه الطريقة تشابه تقريبا طرد سحابة ممطرة بطلقة بندقية ، فقط فى بعض الحالات وحين يكون الريح ملائما يستطيع بعض المحظوظين الفرادى جعل اسراب الجراد المتدفقة على قطع ارضهم تنقل الى قطعة مجاورة قبل ان تلتهم الاخضر واليابس ، لكنه بشكل عام ، يبدو الانسان ضعيفا عاجزا وكائنا حقيرا امام جحافل الحشرات النهمه التى لا تقهر ، تلتهم الجراد بالنور كل الاراضى ، مستغله العادة الذاتية لمالك الارض ، الذى يسعى للمحافظة على ارضه فقط ، ولا يهتم بجاره قليلا ، ولو نهضت كل القرية وتعاونت

على طول الخط في مكافحة الهجوم بقوة موحدة ، لكان من المحتمل تحقيق نتائج ما معينة ، غير انه لا ذكر للفصال المشترك ، تلويحات ، خشخشات بهيجان شديد ، تركض النساء والصبيان بهستيرية بمراوح كبيرة ، لكن بالكاد يستطيع واحد بالمائة طرد العدو الجاثم .

... وفيما بعد ، بعد شهر ونحن في طريق العودة ، نشاهد قطع الارض السوداء المحروقة من جديد ، بدلا من الزرع الاخضر والاعضان الناضجة ، لقد اكلت الكتلة الجسيمة النهمة الزرع ، وتابعت هجومها قدما ، في اعماق البلاد حتى وصلت الى الصحارى فيما وراء الجبال النائية

تذكرت كيف لاحظنا اسراب الجراد في جدة ايضا ، القادمة من الصحارى الى سواحل البحار ، التي تناثرت حتى على سطح سفينتنا ، غير ان الحجازيين في تلك الارض القاحلة ، لم يلعنوا هذه الكارثة بتاتا ، وانما كانوا يجرفون اسراب الحشرات في اكياس ويعنون منها غذاء ، يعتصون الجراد بشرافة بعد ان يرموا باجنحتها القاسية ، لا شيء في صحارى الحجاز يمكن ان تلتهمه الجراد ، بل على العكس فان افواه البشر الجائعة هي التي تلتهمها .

للصورة النسبية عن الخير والشر مفهومة ، فالجراد في الحجاز هو نعيم هبة السماء ، ليس الجراد هو الذي تغذى به اليهود المذكورين في الانجيل بدلا من " السعيد " ؟ ... بينما يعتبر الجراد شرا رئيسيا ، مأساة ، يقضى على ثمار عمل الانسان النوب في " اليمن السعيد

لا يمكن الحديث عن تنظيم الدولة لمكافحة الجراد ، فالمكافحة تتم بالمراوح والخشخشة فقط ، واحيانا بالاعلام الحمراء التي كتبت عليها النولة " لا اله الا الله " بالحرف بيضاء من اجل ان يكون النجاح حليف مطاروي الجراد ، لقد كان غريبا بالنسبة لنا ان نرى هياكل نصف حارية خلف الاراضي المغمورة بالجراد ، وهي تلوح بالاعلام الحمراء كانت هذه الهياكل تركض من طرف الى اخر ، وكانهم ثوار يحملون العلمات الدعائية ، هنا وهناك ترفرف ، لكنهم يلوحون بها ليس من اجل الانتفاضة وانما نوبة عجز ، يحاولون صد الهوام الحقيرة الضعيفة التي تحولت بقوة مجموعها الى جيش عارم لا يقهر .

تقترب حتى تصل الى مكان خالي (وكل السكان في الاراضي التي طالتها الجراد) ، شيكون مبيتنا الاخير فيه .

يسمى هذا المكان في الخرائط التركية سنان باشا ، باسم الجنرال التركي الذي احتل اليمن في وقت عصيب ما ، يصدم هذا الاسم الاذان اليمنية ، ويسمون هذا المكان بكلمة قصيرة

* متنة * التي تعنى * مدينة * صغيرة بكل بساطة .

وهذه المدينة الصغيرة * تقطعها طولاً وعرضاً خلال خمس عشرة أو عشرين دقيقة فيها بضعة منازل قديمة ضخمه ، وخزان مياه واسع تشكل مركزها ، وجانب الخزان مبنى تشغله الحامية والسلطات ، تسكن في إحدى البيوت ، في الطابق الثالث ، نشاهد من أعلى السقف الاملس المزارع المحيطة الخضراء ، والجبال القريبة والبعيدة ، وقطيع من الجمال السارحة التي تأخذ مكانها بين جدران القناة الحجرية القريبة من دارنا .

الجو بارد ، الريح تصفر ، تتناوبنا رعشة ، الارتفاع هنا اكثر من ثلاثة الاف متر ، يكون الجو بارداً في الليل حتى في الصيف .

يقدمون لنا الدجاجة المغلية التي لا تتغير ، السلوخة الجلد والدهن ، يجيبوننا ب * ماقيش * المستمر حين نسأل عن وجود أى طعام آخر ، لقد كانت كلمة * ماقيش * تتخلل كل رحلتنا من الحديدية بثبات .

والخمسة والثلاثون صنف من العنب التي حكى لنا الشائب عنها في الباخرة ، كل هذه الاصناف توجد على بعد عشرين أو ثلاثين كيلومتراً من هنا ، اما هنا فلا توجد سوى البدائية والشحه نفسها ، تلك الشحة التي صادفتنا على طول الطريق من الحديدية .

المنجم

يقطع تاملنا ظهور منجم ، عجوز طويل نصف عارى وفي يده مسبحة ، ياخذ يقرأ المستقبل ، نوافق ببعض الابتسامه .

يقدم لنا سيحات الكهرمان ، يطلب منا دلکها بالبشرة ، يجعلنا هذا ناسف على الموافقه التي اعطيناها له ، غير ان تراجعنا صار متاخراً ، يبدأ المنجم بالتحديق في المسبحة يهمهم بشيء ما ، يخيب املنا ، فبدلاً من ان يتنبأ بالمستقبل او يعطينا تنبوء حول الحاضر ، الذي يمكن ان يكون شيقاً لمعرفة نفسيته ، نسمعه يعدد امراضاً فينا ليست موجودة في الواقع ويقترح علينا معالجتها ، هذه الامراض غير موجوده فينا ، نرفض طلبه ، ونشكر خدماته ، ثم نطرح على العجوز سؤالاً مباشراً ماذا يفكر عن رحلتنا ونتائجها المحتملة ؟

لا يخلو جوابه من خبث :

- اهدافكم القريبة ستتبلغونها اما البعيدة فلا .

الجواب غير مرغوب فيه كثيرا .

نسأله ايضا :

ماذا تفكر عن الحرب : هل تتوقع الحرب ، وبماذا ستتتهى ؟

هنا يستسلم العجز ، انه مستعد للتنبؤ بمستقبلنا ، لكنه لا يرى مستقبل بلاده .

- الجاب عن هذا ، الله وحده يعلم - يقولها بصراحة ، وفجأة يتوجه الينا ينتقل الى

الهجوم المضاد .

- قل ماذا تفكر أنت عن الحرب ؟ هل من المؤكد أن الانجليز سيطيرون ويدمرون قرانا ؟

ينتقل نور التنجيم الى ، رغم عدم وجود مسبحة عندي ، لقد حرمتنى من امكانية الانتقام

من محدثى الذي اجبرنى على ان أمس الوسخ المتراكم فى قرون المسبحة .

اجبته بلهجة اقل صوفية او ابهام :

- ان يطيروا او يرموا القنابل ، هذا امر كبير الاحتمال ، اما ان يدمروا القرى والمدن

فهذا قليل الاحتمال ، لانهم لا يستطيعوا ان يلحقوا بها اذى كبيرا .

نتائج الرحلة

تخالصنا ، هو ايضا غير راضى عن اجابتى المراوغة ، يقترح مرة اخرى اشفائنا من

جميع الامراض الوهمية تتوابع ، اعطيناه بقشيشا ، ثم يذهب .

يجل الظلام ، اخرج الى السقف المستوى ، تهب ريح حادة ياردة ، وبقايا المزارع التى

التهمها الجراد مخضرة بشكل باهت ، استحضر فى فكرى المراحل التى قطعناها من الرحلة

، تهامة الغبراء المصنفة ، اشجار الاثل الخضراء فى سفوح الجبال ، الحيويد الصخرية فى

مضائق الجبال ، اشجار البن المتواضعة ، الصبار الشوكى الخبيث ، الخطو العنيد للبغال

اللطيفة التى لا تتعثر ، الابراج التركية العديمة النقع ، قصور المشايخ ، الجمال البليدة ،

الحمير الذكية الحثيثة ، البغال الصبورة الواثقة من نفسها ، البيغاوات ، القروء فى الاحراج

والجرادين فى المنعطفات الصخرية .

البشر السود ، بدو تهامة الذين نخرهم القيظ والغبار ، سكان الجبال الرشيقون نوى
اللحي السوداء العسكر المعمون واشربة الذخيرة في اجسادهم النصف عارية ، واقدامهم التي
حواتها قيظ الطرقات الى نعال جلدية .

المساحة الشاسعة الخالية قصور المشايخ التي تحيط باسوار منيعة ، الفلاحون الذين
ينضحون عرقا في المزارع والحقول ، الاعلام الحمراء ضد اسراب الجراد ، المشايخ النقيو
الدم على صهوات الجياد الاصيلية ، الجمالة نوى الوجنات الناحلة ، القوافل المربوطة بسلاسل
طويلة ... صفائح الكروسين وصناديق الذخيرة على ظهور الجمال والحمير ، قطعان الضأن
والماعز التي تقضم الحشائش الشحيحة من اجراف الصخور ... ومال ، خضرة ، صخور ،
مضائق جبلية ، سهول - وها هي الرياح الباردة الحادة الان ، وامامنا اخر سلسلة جبلية تحجز
العاصمة .

اعود الى غرقتي ، وهي مليئة بالذباب ، رائحة النخان الحادة تتسلل من المطبخ ، يفلق
رفيقي النافذة ، وعواصف الرياح حادة عنيفة ، ننام لأول مرة منذ عبورنا قناة السويس
والنوافذ مغلقة ، امتطى على السرير المتنقل الذي يئن وانام اخر نومة في الطريق الى
صنعاء .

الباب الحادي عشر

- * " الامام مستاء "
- * في عهد الاتراك ام الآن ؟
- * الطبقات الاجتماعية في اليمن
- * وادي صنعاء الخيمه البيضاء في صنعاء
- * النسور في القاذورات

" الامام مستاء "

انهضوا بسرعة ، لقد اشرقت الشمس ...

يصرخ العسكري بالحاج ، يقرع باب غرفتنا بلا كلل ، لسنا ضد ان نواصل التوهم
ايضا ، الطريق قد اخذت حقا ، لكن لا وقت للراحة .

انهضوا سريعا ، الامام مستاء .

نعلم ان القضية ليست في الامام ولا في استيائه ، فالامس ، اليوم الثالث من الرحلة ،
حين استعجلنا مسرعين ، نسعى لكسب يوم زائد ، وحين حثينا البغال ، حاول العسكر انفسهم
اماعة حميتنا بنفس هذه الحجة .

- لا يجب الاسراع ، هذا صعب على البغال ، سيكون الامام مستاء .

حساباتهم مفهومة : سابقا ارادوا السير ببطء ، غير مكترئين ، يحصلون على طعام جيد
من " الاجانب الوجهاء " ، اما اليوم - فانهم بهذه الطريقة او تلك - فهو يوم الوصول الى
العاصمة ، وهم يرغبون بالوصول اليهم باكرا ، كي يدركون الغداء والراحة حتى المساء ، - وما
هو الامام - مرة اخرى حجة وسبب للاسراع هذه المرة .

نتذكر ، ان كل الموظفين ، جميع سائقي الجمال والحمير ، والتجار على طول الطريق
كانوا يرجعون جميع الذرائع والاعذار الى الامام ، وما عدا الامام ، الله هو الصجة الوحيدة
لتبرير اى شيء كان الذى يتحمل الامام باستكانة وبقدر اقل من الصحة ، كل المسؤولية عن
مختلف ظواهر التقصير والتهاون والمماطلة وقد تحتم علينا ، فيما بعد ، في صنعاء الدخول في
مماحكة مع عمال التلفزيون ، الذين كانوا غالبا ويعتاد ما يؤخرون مراسلاتنا مع الحديدية ،
يعطلون ذلك تعطيل الخط بمشيئة " الله " : لقد كانوا يريدون على محاولتنا السانجة المستعجلة
حين نستفسر متى سيتم اصلاح الاعمدة التى اسقطتها العاصفة يريدون دائما بجواب واحد
مفحم ببساطته المقنعة :

- عندما يشاء الله (ان شاء الله بكره) .

ان كلمة " الله في شبه جزيرة العرب ، تشبه قانون رياضى ، تعنى كل ما هو غير مرئى

ومجهول ، وجملة " ان شاء الله " هي واحدة من اكثر العبارات العربية الكثيرة الانتشار ، تلتصق هذه العبارة في حقيقة الامر بكل عظة او حكمة ، تدل على الاستمالة الدائمة للتنبؤ الدقيق في ظروف العفوية البدائية ، واذا الصقت " ان شاء الله " باى عبارة تتعلق بالمستقبل ، فانها تضيف عليها علامة التقريب .

- متى سنصل الى صنعاء ؟ - نسأل مرافقينا بفارغ صبر .

- خلال ثلاث ساعات إن شاء الله - يجيبون علينا

وهكذا سنصل صنعاء اليوم " ان شاء الله " ، نستنشق الهواء البارد العليل بشراة ، نحدق في اخر سلسلة جبلية تفصلنا عن وادي صنعاء يرغرف الهواء بعيدا بهدوء ، نشاهد سناهل الذرة والقمح مخضرة وياتنظام في الحقول التي لم تمسها الجراد التي تزحف جانبها في مكان ما .

نشاهد القصور المتعددة الطوابق على الجوانب ، والبيوت الطينية الملحقة بها ، القرية تتكون من مباني متكسة ذات قالب واحد ، تحيط بها اسوار حجرية ضخمة وبوابات وحيدة تغلق ليلا ، تتعرج الطريق في السهل ، تفوح احيانا منخدره ، وحيانا تزحف متسلقة الى الهضبة المرتفعة ، تمر على صخرة ضخمة ، بحجم ناقوس القيصر منحفور بداخلها وبها فتحة كانه باب ، انها ملجا لا يمكن ان تخترقه الامطار والرياح فقط ، بل والرعد والبرق والرصاص والقذائف ، لا يعلم احد منذ متى هذه الصخرة هنا ، مثلما لا يعرف احد تاريخ ظهور صنعاء ، وتاريخ بناء القصور والقلاع التي مريتا عليها في الطريق ، والاستفسار غير مجدى ولا ينفع ، اذ ان الجواب واحد هو : يعلم الله وحده متى بنيت ، تمر بقرب مبانى مبهمة مليئة باسرار التاريخ القديم ، قرى ، منشآت ، انوات ، نحملق فيها بنهم ، وكل الاجوبه على اسئلتنا هي اجوبة هادئة وقصيرة باستمرار :

- لا ندرى ... الله يعلم هذا ...

فى عهد الاتراك ام الان ؟

نسأل عن موضوع اخر ، حول الحياه الفلاحية ، هل كان الوضع افضل في عهد الاتراك ام الان ... يؤكدون ان الوضع صار افضل ، كانت السلطه سابقا فى المناطق تخضع للمشايخ بدون رقابة ، كان الشيخ يعطى الارض للفلاحين ، وربما يقرضهم البنود ، ويأخذ مقابل كل ذلك

ربعا على شكل نصف المحصول ، ويدفع قسما صغيرا من قيمته النقدية للخرينة التركية ، وكان الفلاحون يخضعون خضوعا كاملا للمشايخ بدون حدود .

وحين خرج الاتراك وتعززت سلطة الامام في صنعاء ، ضعفت له سلطة المشايخ في المناطق ، وبرز موظفوا الامام المرسلين من العاصمة ، يجمع هؤلاء الموظفين العشر بأنفسهم حيث استغنوا عن وساطة المشايخ ويسلمون الضرائب لخرينة الدولة ، لم يخفى العسف والغبن عند الجباية بطبيعة الحال ، لكنه ضعف مع ذلك ، يبدو كما لو ان تحصيل العشر وضرائب المشايخ لم تطبق ، المشايخ مستأجرون ايضا لان الفلاحين اصبحوا يقفون بتادية الطاعة العسكرية في الجيش الامام متخطين بذلك المشايخ ، وبدأت تظهر المدارس في القرى ، وتقوم الحكومة بتنظيمها ، كما تقلص تأثير رجال الدين المحليين ، غير ان بوادر التحسن هذه ليست كبيرة ، لكن مجرد حادثة ضعف سلطة المشايخ في المناطق ، الخضوع لسلطة حكومية موحدة عامة ، امر يشجع السكان ، الذين يرون في السلطة المركزيه ممثلة بشخص الامام ، ضمانه من نوع ما ضد العسف الجائر الذي ساد سابقا .

يتضح لاحقا ان الضرائب لم توزع بالتساوي : ففي الوقت الذي يدفع فيه الفلاحون عشر المحصول على اقل تقدير ، يتملص اصحاب المدن من دفع قسط الى الخزينة بقدر بائتين ونصف في المائة من محصول ايجار بيوتهم ، كما يحدد هذا القسط بمقاييس ما قيل الطوفان ، حسبما قال لنا احد الملاك " كلمة شرف " ، ويضبط غياب القروض على الفلاحين بقسوة ، والبنوك لا ذكر لها (لقد حرمها القرآن) ، ومن اجل الحصول على القرض يجب التوجه الى الشيخ ، والشيخ لا يعطى الا التاجر فقط ، رافضا بمرارة اخذ الربح (الى حرمه القرآن) ، لكنه بدلا من ذلك يأخذ حصة الاسد من الربح الذي سيحصل عليه التاجر بفضل هذا القرض فيما بعد ، وتصل هذه الحصة الى ثلث ربح التاجر ، يظل الضمير ساكنا (فالقرآن لم يحرم ذلك ورسول الله لم يخدع) ورأس المال يتضاعف

الطبقات الاجتماعية في اليمن

اما الشيخ فيعطى الفلاحين سلفة لفلحة الأرض المؤجرة منه احيانا ، ثم يسترد هذه السلفة بربح عيني زائد بالاضافة الى نصف المحصول الذي يحسب على شكل ربح للأرض ، والتجار لا يدفعون الضرائب كما يعنى ماكوا المواصلات منها ، وذلك لانه يفرض العشر

على البقر والماعز وما شابه / لكنه لا يفرض على دواب النقل والمطايا ، هذا مريح للتجار بدرجة اولى من جديد . وذلك انه يجعل نقل البضائع من الموانئ الى عمق البلاد والعكس رخيصا ، يتكسب من هذا الملاك الميسورون في الريف ايضا ، الذين يمتلكون مجاميع من دواب النقل ، التي يستخدمونها لنقل البضائع وعلى هذا الشكل يتكون سلم اجتماعى فريد ، يقف فى اعلى السلم المشايخ الاقطاعيون الذين يمتلكون سلطة سياسية حقيقية ، وامكانية استقلال الفلاحين ، ونوعا من الضغط على التجار ، ويمتلك الاخيريون بدورهم سلاحاً قويا فى التأثير على المشايخ ، ويستحوذون على قسم من ارباحهم لانفسهم ، يلعبون دور الوسيط ، يشترون البن والحبوب وبضائع اخرى من المشايخ فى مجالاتهم مباشرة ، وحين تصل هذه الى الميناء تباع البضائع من جديد يدفع التجار ضرائب قليلة ، ولا يزاحمه احد فى حرية التكسب

ويكون الاخير على حساب المشايخ جزئيا ، وعلى حساب الفلاحين بالدرجة الاولى ، لانه يشتري البن منهم بثمان ارض ، ويبيع البضائع الاجنبية عليهم بربح خمسين فى المائة - او مائة فى المائة .

وفى الاخير يجبر الفلاح على العمل لحساب الجميع : للخزينة التي يدفع العشر لها والقيام بالخدمة العسكرية ، والشيوخ ، الذي يدفع له نصف الغلة ، كما يقوم الفلاحون بتادية عدة اعمال حسب نظام " السخرة " ، للتاجر الذي يقدم له امكانية الكسب بالتبادل البضاعى ، ان كل مجموعة من هذه المجموعات الاساسية الثلاث تنقسم بدورها الى مجموعات من الفئات المختلفة :

تتميز فئتان اساسيتان من الاقطاعيين - المشايخ ، الفئة الاولى من ابناء الارستقراطية القديمة المالكة للأرض ، انها تتألف من الملاك القداماء الذين ورثوا الارض ومزارع واسعة ، والفئة الثانية الاكثر تأثيرا بينهم هم السادة الذين يدعون انحدرهم من سلالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، هؤلاء هم حملة التقاليد القديمة الاكليركية رجعية فى اليمن ، وهم من الناحية الاقتصادية سلالة متجمدة أفلة ، غير قادرة عضويا على التكيف للظروف المتغيرة فى شبه جزيرة العرب الهامده ، التي بدأت تهتز فى السنين الاخيره فقط ، مصادر دخلهم الاساسيه هو ريع الارض ، الذي يستلمونه على شكل بضائع مجببة وفقا لنظام المناصفة ، تتراكم فى مخازنهم احتياطات الحبوب ، الصوف ، الجلود ، التي تحفظ فى صناديق جامدة بدون حركة ، واكداس الفضة والذهب والاحجار الكريمة ، الاقمشة ، السجاد ، الاوانى والاسلحة ، انهم يحتقرون التجارة ، ولا يفكرون بالصناعة ، ويعطون البضائع المكسبة للتجار من حين الى

آخر لاعادة بيعها ، بينما هم يقعدون بلا حراك على السجاجيد ، يدخنون التارجيلة ، يمضغون القات يتصفحون الكتب الصفراء او يتتعمون في مخاض نسايم الكثيرات اربع زوجات شرعيات ، بالاضافة الى عدد غير محدد من الجوارى ، يمتعون حتى التفكير باى نزعة جديدة كانت ، يفكرون بشكل مقدس ظل ثابتا لم يتغير منذ عهد نوح ، وملكة سبأ ، وسيظل هكذا ثابتا لا يتغير الى ابد الابد ، مستعدون بشراسة مقاومة كل محاولة لتصنيع البلاد ، واقامة علاقات مع الخارج ، يخيفهم منظر السيارة ، يمدون الوقوف امام عدسة التصوير عيبا ، ويعتبر بالنسبة لهم حتى الامتناع عن القات تدنيسا للمقدسات ، مثلهم العليا هي شبه جزيرة العرب المتحجرة الثابتة مثل القصور التي لها الاف السنين والتي يعيشون فيها ، العمل في الارض نصيب سواد الفلاحين ، التجارة والحرف - يمارسها اليهود الكلاب المحتقرون ، اما هم فانهم حملة تقاليد الماضي التليد ، وملزمون بالمحافظة عليه وعلى عقولته في الصراع ضد الكفرة الاجانب .

- هؤلاء - البلاد ، الذين يرون الكفر وعدم الاستقرار في كل مكان ، حتى انه لم يسلم الامام وايضاؤه من تقدمهم اللاذع المتعنت .

بدأت هذه الفئة تقلس ، تتضال ، قليلا قليلا ، تصيح جزءا من الماضي تضمحل حتى في اوساط المشايخ الاقطاعيين ، نسمع اصوات اقطاعيين محددين جدد ، لا يقبلون الموت احياء في العفن العظيم ، وانما يسرعون في السير قدما ، من اجل ان يغالبوا الرياح الجديدة ، يمتلك هؤلاء الاقطاعيون اراضى مزروعة واسعة ، لكنهم لا يمتلكون وراء ظهورهم حملا ثقيل من النسب الرفيع ، لا يتقززون من التجارة والحرف ، ولا يبذلون ابدا بترك الارباح للتجار الهنود واليهود ويتفاخرون بالصمت وملاعبة مسابيحهم ، يسعون بانفسهم ، عن طريق العمل الماجور او السخرة ، في تصفية البن وديغ الجلود ونقلها الى الميناء ، يسعون لبيع بضائعهم في الخارج مباشرة او عن طريق متعهدين مؤجرين ، ولا يأنفون من شراء البضائع الاجنبية في الميناء - الكروسيين ، الدقيق ، ونقله الى داخل البلاد من اجل اعادة نقلها ، لقد عرفوا سحق مراكمة الثروات غير المثمرة ، يسرعون الى الاندفاع في البحر العارم بالمضاربة التجارية التي يجعلونها جهلا بسيطا ، كي لا يتركوا لليهود والاجانب الاثراء على حسابهم المشايخ ، هم هذه الفئة الاقطاعية ، التي تطورت الى فئة من التجار - الصناعيين ، التي تعززت في فترة الحرب حين سقط دور التجار الاتراك واليونانيين - تزايدت هذه الفئة بفضل انحسارها من الاسر الثرية للملاك الزراعيين ، ظهر مشايخ جدد اتوا من المناطق النائية في البلاد ، هؤلاء المشايخ من

الملاك الاثرياء ، والسماصرة صاروا يجمعون في ايديهم اراضى وعقارات الاسر الارستقراطية
المفلسة مشيعة الامبراطورية العثمانية " التى صفت كطبقة " ، لقد تزعمت اركان الاقطاعيه
القديمة ، والقسم العنيد من الارستقراطية القديمة فسر القرآن بما يلائم العصر بعد ان اغض
عن عينه تقاليد الاسلاف ومد يده للالقاء الناشئين الجدد ، وبدأت تتشكل وتتعزز طبقة جديدة من
الاقطاعيين ، الذين اتخذوا شكلا تجاريا - صناعيا اكثر قرب الى العصر ، لا يستنكفون
المضارية المالية والتجارة المكشوفه ، يركبون السيارة بكل ارتياح ، ويزهو واضح يعرضون
انفسهم بمختلف الاوضاع امام الات التصوير .

يشربون النبيذ الذى يشترونه من اليهود ، دون ان يتركوا القات ، لا يخافون من العلاقة
من الخارج ، بل على العكس ، انهم يسعون بعجلة على نزع احتكار الارياح من التجارة
الخارجية من ايدي الهنود واليهود ، ولا يبتعدون عن امتلاك متاعا اوروبيا فى بيوتهم ، يلبسون
الاحذية الاوروبية بل وحتى يلبسون احيانا ارضاء للموضة ، نظارات لا حاجة لها ، على عيونهم
السليمة الصقرية ، يحلمون بجلب المكائن الزراعية وبناء معامل النسيج ، لم يعد " التدين "
بالنسبة لهم عقيدة جامدة ثابتة لا تقبل الجدل ، يميلون للسخرية من اخوانهم فى الطبقة الاكثر
تخلفا ، كما انهم يقرأون الصحف المصرية ، هؤلاء هم القسم الاكثر تقدما من الاقطاعيين ،
الذين يعدون كوادس البرجوازية التجارية - الصناعية المستقبلية فى اليمن وهذا القسم هو اكثر
قاعدة اجتماعية قريبا من الحكومة فى البلاد .

التجارة ، البرجوازية ، يمكن تمييز فئتين اساسيتين منها شأنها شأن البرجوازية فى
بلدان الشرق ، الفئة الاولى - هى النموذج التجارى الكمبرانورى ، تجار الجملة ، الذين
يرتبطون بالسوق الاجنبية مباشرة ويمثلون الشركات الاجنبية فى اليمن ؛ لقد كانت التجارة
الكبيرة والعلاقات الخارجية قبل الحرب تقع كلها فى ايدي العناصر غير العربية : الاتراك ،
الهنود ، اليهود ، اليونانيين والفرس ، لم يعد الاتراك الان موجودين ، لكن الهنود فى الحديد
واليهود فى صنعا والمناطق الجبلية الاخرى ، ما يزالون يحتلون وضعا مهيما فى التجارة
الخارجية البلاد ، اما الاماكن التى خلت بعد خروج الاتراك واحتلتها العناصر العربية . فانها لم
تنزل قليلة بعد ، هذه الكوادس الكمبرانورية هى القاعدة الاساسية للمجموعات المتأثرة بالانجليز ،
وصنفا للمعارضة ضد السلطة المركزية ، والحديدة هى عشهم ،

الفئة التجارية الاخرى هى من التجار الصغار والمتوسطين ، ملاك الجمال وقوافل
الحمير ، الذين يتاجرون داخل البلاد ، يوزعون البضائع ويشتررون المواد الخام من كل زوايا
اليمن فى الجبال والسهول .

تتألف هذه الفئة من الملاك في القرى ، واصحاب الحوانيت الصغيرة ، والحرفيين والصناع الصغار ، انهم عماد سياسة الامام ، وهم ما يمكن تسميته بالجناح اليسارى لجماعة السلطة ، هؤلاء هم الفئة الاكثر روح وطنية من قسم البرجوازية - الاقطاعية في اليمن ، انهم يمقتون الكمبرادوريين ، الذين احتلوا اكثر المواقع الاقتصادية ، ربما يحلمون بانتزاع حصتهم من القطيرة على حساب الامبرياليين والعملاء الكمبرادوريين ، يستعدون بنشاط لتأييد الصناعات الزراعية للحكومة ، شق الطريق الجديد ، امتلاك اسطول بحرى ، وذلك لان هذه المشاريع تعد بتوسيع حجم السوق الداخلية ، وتقلص تأثير الكمبراورية والامبريالية وتطور الصناعة الداخلية ، معطية امكانية تشغيل رؤوس الاموال المتراكمة ، يؤيدون النزوع الى السيطرة على سواحل المحيط الهندي ، الى عدن وموانئ حضر موت ، نمت هذه الفئة وتعمزت خلال فترة الحرب وتزحف الى مواقع الكمبراورية ، مزيجة التجار اليهود والهنود من اعشاشهم .

يبدو ان كل هذه الفئات والشرائح ، لا تشمل الا وسطا اجتماعيا صغيرا نسبيا في اليمن (عشرة - عشرين بالمائة) ، اما ملايين الجماهير من الفلاحين فهي بعيدة عن تلك الاوساط المشتركة بهذا الشكل او ذلك في السلطة ، وهذه الجماهير الفلاحية التي تدب حولنا نحن الرحالة بعيدة عنا والاقتراب منها ليس بتلك السهولة ، او التحدث معها ومعرفة حياتها المعيشية ، ومعرفة احتياجاتها ونفسياتها ، يراقبنا مرافقونا العسكر بيقظة ، ثم كانوا فيما بعد في صنعاء يراقبون كل من يدخل منزلنا ايضا ، كان الفلاحون الذين نتحدث معهم يتهربون عادة من الاحاديث الصريحة ، او يجيبون على كل الاسئلة بحضور العسكرى المرافق بأجابات تقليدية يغلب عليها " لانعرف " " الله يعلم " " الحمد لله " " كما يشاء الله " ، وحين نستفسر عن مساحة الارض وكمية المحصول وما شابه ذلك ، كنا نصلطم بكثرة من مقاييس الوزن والمساحة المجهولة لنا ، نتحير في ترجمتها الى مفاهيم معروفة لنا .

من غير الممكن اطلاقا تحديد نوعية الارض ، حيث تختلف بشكل حاد :

رمال تهامة ، التربة الاكثر خصوبة في سفوح الجبال ، المدرجات الجبلية ، التي تتطلب مع ذلك مجهود ضخم ، التربة الخصبة في السهول الجبلية ، مقدار الماء فيها ، عدد مرات الحصاد في السنة (مرة ، مرتين او ثلاث مرات حسب خصب المنطقة) نوعية المحصول في هذه المنطقة او تلك (البن ، الذرة ، القمح ، البساتين ، الحدائق) - كل هذه المعطيات متفاوتة اطلاقا ، ومن الصعب توحيد كل هذا في مقام واحد .

وما يلتفت النظر بجدة ، الفئة العليا من الفلاحين ، الملاك ، القاعدة الاجتماعية للكوادر

البرجوازية الحديثة ، ملاك الحوانيت الريفية ، اصحاب الحانات ، ملاك المنازل والمقاهي ، ملاك البساتين ومزارع القات ، اصحاب الجمال ، او اعداد كثيرة من البغال والحمير - وسائل المواصلات ، الصرافون الريفيون ، تمتلك هذه العناصر اراضى كثيرة ولديها اجراء يكون من الاطلاق وقصار السن في الغالب .

الجماهير المتوسطة الواسعة ، تمتلك كوخا من الطين او من الاحجار المرصوصه على جناح السرعة ، قطعة ارض ، محراث ، بقرة حدياء وحمار ، بضعة دجاجات - هذه هي ملكية الفلاح المتوسط ، الذى يمشى باقدام حافية ، لا تشعر بحر احجار الطرق الساخنة ، تلبس بلوزات وفوط مصبوغة بالنيلة ، عمامة وعكاز (في الجبال) ، اجساد مسودة نصف عارية (في تهامة) ، ارغفة الذرة ، عصيدة الدخن ، قليلا من اللبن - هذا هو الغذاء الرئيسى ، حزمة من اوراق القات الغليظة - هي المتعة الوحيدة ، العمل النؤوب فى الارض ، نقل الحطب الى البيت ، رعى الماشية ... ترعاة الزوجة - واحدة وناذرا زوجتان (وثلاث او اربع زوجات لدى التجار ، وزوجتان او ثلاث لدى الملاك) .

الفقراء ... فى ثياب رثة ، يعيشون فى اكواخ نصف مهدمة ، لا يملكون لا ثور ولا جمل ، حمار باش فقط ومحراث يدوى لفلاحة الارض ... للعمل عند الشيخ او الميسورين بالنخاسة ، ياكل حفقة من حبوب الدخن بدلا من الغذاء ، وورقتين مصفرتين من القات فى وقت الراحة احيانا ، جسم مجروح اكلته القروح ، اقدام حافية ، ورأس مكشوف ، وتبغية وديون لا تنتهى ، اطفال يبطلون بارزة بوجه مقرح - هذا هو النصف الاكثر من الريف اليمنى .

وكواصر البروليتاريا الريفية : الى جانب الفقراء هناك العبيد الذين جلبوا من افريقيا عن طريق القوة والاستدراج ، اناس وصلوا الى هنا على القوارب من وراء البحر فى محاولة للتجارة من غائلة الجوع والايوتة ، فاصبحوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، يغيرون نوعا من العبودية بنوع اخر ، وهناك صنف اخر من العبيد هم الاسرى من القبائل المعادية ، ويختلف عنهم قليلا انصاف العبيد ، الفلاحون الذين اندفعهم الفقر ، وفقدوا الامل حتى فى حقهم بالمحافظة على كوخهم ، يستبدلون السخرية المستمرة بالعبودية الدائمة تقريبا ، يكتفون بما يتفضل الشيخ والمالك من الطعام ، ويامرة يعملون من مطلع الشمس حتى غروبها ، والمالك حق معاقبتهم الجسدية ، وهو خبير فى ان يتخلى عنهم ، او يرسلهم الى شيخ اخر ببساطه ، قتلهم محرم فقط ، يبدو ان هذا هو القيد الشكى الوحيد للعسف الاقطاعى .

ومن فقراء الريف تتشكل الكواصر فى معامل البن ، والورش الحرفية ، العتالون والرعاة ،

والجمالة ، ان كل نهيرات نصف البروليتاريا ستصب مستقبلا في المجرى الوحيد للبروليتاريا الصناعية والزراعية .

والاسمنت ، الذى يمسك وينظم هذه البنية الاجتماعية ، هو الجيش ، الضباط العرب الجدد ، الجهاز الوظيفى - العسكرية ، هذه هي القوة الحقيقية ، التى تسعى الفئات العليا فى اليمن ، والاقطاعيون بواسطتها تعزيز سلطتها وجبروتها ، وازاحة فئة الوجهاء الاقطاعيين والكمبراندوريين الى الدرجة الثانية عن طريق الطول الوسطية من جهة ، ولجم استياء الجماهير من الفئات الوسطى والفقيرة من جهة اخرى ولا ينبغي ان ننسى طموحهم لتقليص نفوذ الاميرالية وايجاد دولة مستقلة فى ذلك الجزء البعيد المقطوع والمعزول فى شبه جزيرة العرب ، يبلغ تعداد الجيش ما يقارب خمسة عشر الفا ، ويمكن ان يتضاعف بسهولة حتى يصل الى ثلاثين الف جندي ، لان نظام واساليب الجيش هو حسب النموذج التركى .

ومن اجل ان نختتم هذا العرض المختصر للطبقات الاجتماعية فى اليمن ، يجب ان نتحدث عن رجال الدين .

خلال الرحلة الى صنعاء وفيما بعد ، اثناء تواجدها فى صنعاء ، لم نلاحظ نورا خاصا لفئة رجال الدين كمجموعة اجتماعية ، لا يتميز ائمة المساجد وعلماء المناطق الصغيرة فى الريف اليمنى بشيء كثير عن بقية الفئات الاجتماعيه ، بذلك التميز الذى يعيشون فيه فى الحجاز وبقية البلدان الاسلامية الاخرى ، انهم هنا يندمجون مع جماهير السكان الاخرين ولا يتميزون عنهم ، ينبغي اعادة ذلك ، فى اغلب الظن الى ان الدين والدولة قد تميا معا ، الى درجة ان الدين اصبح محتكراً للخاصة الارستقراطية الاقطاعية العليا ، ابتداءا بالامام - الملك - رجل الدين الاول ، ثم اغلبية المشايخ وروساء الجيش ، ان كل هؤلاء لهم نفوذ فى الجانب الدينى فى نفس الوقت ، وان كانوا قد تركوا لرجال الدين المتخصصين الوظائف الدينية البحتة فقط ، حيث ان فئة رجال الدين مجسدة فى الطبقة الاقطاعية ، الامر الذى يعطيها صيغة اكليريكية تنتسب بها كل اجراءات التولية ، ووكالت البخور تستخدم فى مناسك العبادات الاسلامية ، لقلنا بان رائحة البخور ستندوب بذاتها فى العصور الاقطاعية ويفقد وجهه الخاص المنفرد .

لهذا السبب او ذاك ، وما بلغت النظر ان التدين الخارجى للجماهير الشعبية ، هو هنا اقل بكثير مما هو عليه فى الحجاز ، بل وحتى فى بلدان الشرق الروسى حتى الاعوام الاخيرة ، لم نلاحظ فى اليمن التضمرات والصلوات الحاشدة عند الفجر وقبل غروب الشمس ، ولا الصلوات التى تقروح خلالها الروائح العطرة ، انهم يصلون هنا بعد الوضوء بقليل

من الماء ، وإذا لم يوجد الاخير يكتفون بقبضة من الرمل حتى ولو كانت من ارض غير طاهرة يتيممون بها ، ولم يكن يراعى فروض الصلاة بورع سوى الشاويش من بين المقربين الذين رافقونا ، فى حين كان بقية العسكر (واغلب الظن انهم من " المتدينين " بما فيه الكفاية) لا يعاونون بالصلاة ، حيث كانوا يؤثرون الراحة يغنون بكسل قذ شعلة النار .

انى ارتب هنا على عجل وتشوش نتائج انطباعات الطريق (حينها كانت هذه الانطباعات اقل وضوح) ، حين كنا نتارجح على ظهور البغال ، ننتظر بفارغ الصبر رؤية الرسوم المجهولة لصنعاء الفاتنة .

لكن صنعاء لا تزال بعيدة ، ولا نرى حولنا سوى الاراضى الخضراء او سلاسل الجبال الغبراء ، تصيح الطريق متعرجة وغير مستوية ، واكوام الحصاء والحجارة تخل بسير البغال المنتظم ، ها لم نعد نشاهد لا قرى ولا حتى اكواخا منقردة لا من قريب ولا من بعيد ، لقد خلفنا ورائنا بعيدا طريق " الثلاث ساعات " التى وعدنا العسكر بها ، والتى بانتهائها ستكون " ان شاء الله " قد وصلنا الى المدينة المنشودة كما يفترض .

وانهى صنعاء الخيمة البيضا فى صنعاء

البغال تسير ، والوقت يمضى ، وصنعاء لا ترى ، والطريق لا تدل على ان المدينة قريبة ، لقد أصبحنا نشاهد حمير الركوب ليس الا ، نصادف مرتين مشايخ لابسين ثيابا فاخرة من قمصان حريرية يمتطون جياد عربية اصيلة فى طريق العاصفة .

اصبحت الطرق اكثر وعورة ، اختفت الخضرة ، ولا توجد سوى الصخور والمساحات الشاسعة المفروشة بالاحجار ، تصعد البغال بخطو منتظم على المرتفع الخفيف الانحدار ، وعلى اليمين ترتفع ثورة صخرية شاهقة ، تصعد فى مضيق جبالى نرى ... سهلا لا متناهيا اخضر ، مغطى بلثام هوائى متموج ، ينبسط بعيدا ، فى العمق الاسفل تحت اقدام بغلاتنا ، انبهرنا من الوهلة الاولى ، لم يكن بمقدورنا تفحص التفاصيل ، ولا نرى سوى بحيرة من الخضرة لا شواطىء لها وفى وسطها نرى المدينة مقضفضة كخيمة بيضاء ، وفى الافق تتناثر الحبود الضخمة للجبال الوحيدة المقطوعة من جهات متفرقة ، وقليل قليلا تتضح الرؤية ونبدأ نميز التفاصيل ، تبدو امامنا كتلة المدينة الناصعة البياض فى وسط رقعة الشطرنج الخضراء للأراض المزدهرة وقد تميزت المدينة بشكل واضح ومقسم : مآذن المساجد ، السقوف

المسطحة ، بضعة سلاسل من المنال العالية ، والمرتفعة في مختلف اطراف المدينة ، يتخرج سور قلعة مسان بخط متكسر ، ويأبراج في زواياه ، كبقع خضراء محاطة بحواش بيضاء داكنة ، تتناثر فيها ضياع المشايخ ، كما تتناثر في الضواحي مثل بقع صغيرة غبراء اكواخ الفلاحين ، بعيدا من المدينة ، على بعد خمسة أو ستة فراسخ ، تعشعش مجاميع صخرية من القرى المجاورة من كل الجهات ، من على السهل الاخضر تبرز جبال مسننة منفردة ككتل خرقاء ، وبعيدا في الافق ، الى الجنوب ، والشمال - الشرقى تحصر هذه الجبال السهل ، وتبتعد كشريط ضيق الى هناك - الى شواطئ المحيط الهندي والرمال المجذبة لصحراء الربع الخالي ، ومن جهة الشرق المقابلة لنا يشمخ جبل نغم الضخم ، وكأنه فوق المدينة مباشرة ، وعلى قمته تستقر مراكز الحراسة .

ومن منحني الجبل الاسود ، الذي كنا بجانبه ، تنحدر طريق معبدة الى الاسفل بشكل متعرج تصل حتى سهل بقرب قرية صغيرة غارقة في المزارع - اعقاب صنعاء - تنطلق قدما ، محددة باعمدة التفراف ، تخترق بوابة قاع اليهود مباشرة وهو الحى الذى يشكل الجزء الغربى من العاصمة .

تسير البغال الثابتة الرصينة ببطء ، وكم تبدو تلك المسافة من الطريق طويلة ، والتي يجب قطعها من اجل الوصول الى صنعاء ! نترجل من على البغال ، نعطيها للمرافق ، ليقودها بدون عجل عبر المتعرجات اللانهائية للمنحني الجبلى ، فى حين تتدحرج رأسا على عقب الى السفح عبر ممر ضيق عمودى تقريبا ، تلك المتعرجات التى لا يكون من اليسير السير عليها الا للانسان والحمير .

فى كوخ طينى صغير عند السفح يستقبلنا كهل رث الثياب بسلة من التين الطازج ، هذه هى اوائل ثمار " اليمن السعيد " ، التى سألنا عنها باستمرار خلال الطريق بون نتيجة ، وكان الجواب علينا بكلمة " ما فيش " التى لا تتغير .

تلهث البغال تحرك أذانها ، تتبعنا بنظراتها الحائرة ، لم ننتظرها ، نقترّب من قرية صغيرة ، تتألف من منزلين أو ثلاثة ، وعنبر للقوافل، وخزان مياه واسع وحديقة خضراء ، هذا هو المخفر الامامى لصنعاء ، جزء من قرية عصر ، المتخفية جاتيا وراء السور الحجرى المرتفع ، وهنا ، يقربون لنا كوزا من ماء صنعاء ، تلك المياه التى يحلم بها سكان الحديدة بيأس ، ان افضل هديه هى قارورة صغيرة من الماء ، من ينتقبه ليوصلها الى السواحل البحرية الحادة ، يقدمون لنا ليمونا اصفرا فاتحا ، نقشره ثم ناكله ، انه حلو المذاق كثيرا ، اكثر حلوه

من البريقال ، اراد عساكرنا اعداد الطعام لنا ، نون ان يخافوا من غضب الامام ، لانهم ليسوا ضد ان يتغذوا ، وقد استخدموا معنا حتى الخداع ، يؤكدون ان المدينة المنبسطة امامنا ليست صنعاء ، وانما هي اليهود ، اما صنعاء فانها بعيدة وراء الجبال ، لكننا نصير هذه المرة قساة نرفض التوقف ، لاي نوع من الغذاء نقول للعسكر * الامام سيستاء غضبا - تضرب العسكر بنفس سلاحهم بنون رحمة ، - الامام سيستاء اذا علم اننا تباطنا عند دخول العاصمة ، هي بسرعة * .

النسور في القانورات

استاء العسكر ، وخاب املهم ، لقد كان في حسابنا انهم سيتغذون حتى التخم في نهاية الامر ، وقبل ان يعوبوا الى الحراسة في الحامية ، يتحركون يدمدمون يشتمون ، نلف عبر الطريق الدائري حول سور المدينة ، ثم نقرب من باب السياج البوابة الرئيسية بصنعاء .

القيظ على اشده ، سحابة من الغبار تلف المدينة ، تنظر النسور اليها بثبات ، اينما استقر سربهم وفي جانب البوابة تنبش في ركام النفايات التي جلبت من المدينة ، وهكذا استقبلنا البجع البيض في مرفأ الحديدية ، وعششت الخفافيش فوق رؤوسنا في باجل . وهنا تنبش النسور في اكوام القانورات على بعد عشر او خمس عشرة خطوة من الطريق .

ليس هذا رمز ؟ ، تفقد النسور هنا عظمة رحلتها الكوكبية المصطنعة ، نون ان ترغب في التحليق فوق السحاب ، تفضل النباش في اكوام نفايات المدينة ، على كل حال لماذا نتسائل ، اذا كان حتى ملوك ارض العرب ، الذين انسلخوا عن عظمتهم الغابرة ، يتحولون تدريجيا الى مهنة اكثر تواضعا ، وان كانت اكثر انتاجية ، الا وهي المشاغل الادارية والاقتصادية ، وصولا حتى الى حل الخاصات والمقاضاة الصغيرة عند عقد الصفقات التجارية ! .

لكن يوجد لدينا وقت للفلسفة - تتقدم البغال بخطو ثقيل متعب ، تحت الاعمدة الضخمة للبوابة ، الحارس المناوب ، الذي لم يشعر بقومنا مسبقا ، يتفحصنا بحيرة ، يستمع الى توضيح مرافقينا بعجلة ، نحن في الساحة : في احدى الجهات يمتد شارع طويل فيه دكاكين صغيرة للخضروات والبقول واللحوم ، يعج بالقبائل اللابسين معاطف زرقاء وچنبية في الوسط ، يجول الصبية ذهابا وايابا باكشاكهم يصرخون باسما البضائع والاطعمة ، تشق الحمير والبغال طريقها عبر حشود الناس غير المنتظمين ينتصب امامنا سور نرى خلفه مبنا

حسنا من اربعة طوابق ، انه قصر الامام ، وهناك ايضا تحت اشجار الاثل المترامية مبنى من طابقين ، هي الصيدلية ، نشاهد قبة خزان مياه صغيرة الى اليسار مبنى على شكل حائط ، يقود بابه الى ساحة اخرى ، هنا توجد ادارة صنعا ، وعلى الساحة الصغيرة يطل برج مراقبة ، على طول الحائط المحيط بالمقر الملكي مباشرة ، تمتد الطريق الواسعة ، يسير فيها عساكر مشاهم والخيالة ، تؤدى الطريق الى المدخل الرئيسى لقصر الامام ، ثم تمتد قدما الى الشمال عبر البوابة المواجهة لباب الروضة ، ان هذه الطريق هي جزء من الطريق العظيم الممتد من عدن الى سوريا ، وخلال قرون كثيرة كانت هذه الطريق الشريان الاقتصادى فى شبه جزيرة العرب ، تسمح بالمرور لارتال القوافل وعشرات الالاف من التجار والحجاج القادمين من سواحل المحيط الهندى وحتى اسوار مكة والمدينة وقدما الى سلسلة جبال لبنان ، هذه الطريق التى اقترنت الان وفرغت ، ولا يوجد هنا الا بوابتان فى الطرفين المتقابلين لصنعا يذكران يعظمتها الغابرة ، التى تبخرت مع دخان الآلات البخارية ، التى تنقل الحجاج والبضائع الان .
نحن فى صنعا .

الباب الثاني عشر

* الانطباعات الاولى عن صنعاء

* شقيقة الأبار

* " ابن الامام "

* القاضي راغب

* الدعاية الإيطالية

* في انتظار الغارات الإنجليزية

* الاستقبال الرسمي للامام

الانطباعات الأولى عن صنعاء

بعد ان انتظرنا قليلا من الوقت في الساحة ، بين المشود المحيطة بنا من التجار ، والعسكر ، الجمالة ومجموعة لا تحصى من الصبية ، تمر عبر بوابة الادارة الى ساحة كبيرة ومن ثم عبر شوارع ضيقة مليئة بالاسوار الطينية نصل الى البيت المخصص لان نعيش فيه ، العسكري النعسان المتمنطق بجنيبه في خصرة بالضرورة ، يفتح البوابة التي تصر ثم باب البيت يقودنا عبر سلم نصف مظلم الى غرفة مقروشة بالقطن ، عبر الفسيفاء المتعدده الالوان لزجاج النوافذ ، نشاهد بساطا اخضرا من الصنائش في حديقة هادئة فواحة ، وبعد ان خلعت ملابس الطريق التي اسأمتني ارتعى بارنيح على الفراش الموضوع هناك على القطن مباحرة ، انظر عبر النافذة ، محاولا ان املء نفسي بالانطباعات الاولى للعاصمة " الخالدة " صنعاء في عراقتها التي لا تبلغها عين المؤرخ هي ايضا مدينة " خالدة " مثلها مثل القاهرة اثينا وروما .

الهواء مشبع بقيظ صيفي ، زجاج النوافذ المتعدد الالوان يتلالا باشكال مختلفة (مثقات ، نواثر ، لولب ، واشكال هندسية مختلفة) ، وبكل الوان قوس قزح ، في الجدران تبدو كتابات جذابة منمقة ، مقاطع من اشعار الشعراء العرب القدماء ، نشاهد عبر ستائر النافذة بعيدا اوراق الصبار العريضة ، اشجار السرو ، والملامح الاستوائية والمترامية من اشجار المشمش ، ان كل المنطقة التي وراء النافذة هي حديقة خضراء كثيفة ، تقطعها في بعض الاماكن اسوار طينية ، تفصل ملكية مالك عن اخر ، ويعيدا ، وراء الحدائق ، تتناثر منابر المآذن والمنازل الطينية المتفرقة التي يضيق اعلاها ، المكونه من ثلاثة - اربعة طوابق ، المحاطة بالحدائق ، بسقوف مسطحة ونوافذ رياح الاركان الشبائيك .

هذا الحي خارج المدينة ، لا يوجد هنا التجار المتجولون في الشوارع ، ولا اصحاب القوافل العابرة ، ولا تسمع هنا اصوات الناس والمواشي ، الا انه لسبب ما فان الهواء تخترقه موجة من الاصوات التي لا تهدأ ، تلك الاصوات تشبه اصوات عرب من الديوك الرومية في فترة الصيف ، كان هذا الرنين الذي لا يهدأ لا يسترعى انتباهنا خاصة في البداية ، لقد تعودنا على الوضع العام الى حد بعيد ، ندرك في ساعات ما بعد الغداء فقط ، حين يهدأ فجاء ثم يعود مرة اخرى عند المساء .

شقشقة الأبار

هذه الترنيمة " زغرودة " سمفونية صنعاء الرئيسية ، اللحن الانتاجي ، الذي تنسم حياة المدينة بطابعه ، لا تستطيع التقاط مصدرة مباشرة ، ابدأ اخمن بان الطيور ليست هي التي تصدر هذه الزغرودة ، اخرج الى السقف المستوي ، اشاهد الجبال بعيدة ، والصور الذي يحيط بالمدينة من كل الجهات ، وعلى السور مدافع صغيرة ، مرتفعة الى اعلى الطائرات المعادية . نشاهد وراء الحدائق الخضراء في حيننا ككل المباني البيضاء في القسم الاساسي من المدينة العربية ، المزينة قليلاً بمآذن المساجد ، ابحث من اين تأتي هذه الشقيقة التي لا تهدأ ، وبعد محاولات بحث طويلة عديمة الجدوى ارى : جملاً مضمناً يصعد على مرتفع منحدر تدريجياً بين حاجزين طينيين ، يقوده صبي حافي القدمين وعلى رأسه عمامة لا تتغير ، وحين يقترب الجمل من قمة هذا الحاجز الطيني الضخم ، يلتف عائداً ادراجه في نفس الطريق الى اسفل ، يشد الجبل بقوة ، عبر جذع شجرة مهذب يدور على قمة الحاجز ، ثم تبدو قرية من الجلد تصعد من اعماق البئر ، يتكسب منها الماء بصنخ الى حوض ميني هناك ايضا ، ومنها تسيل المياه عبر مزارب الى القناة ، تملأ البراميل ، والاحواض والقنوات التي تروى الحدائق والبساتين ، هذا هو العصب الرئيسي ، الذي يحرك اقتصاد " العربية السعيدة " حتى الان ، هذا هو اساس رخاء " المدينة الخالدة " صنعاء

في هذه المنشآت المتواضعة الخرقاء تكمن مرحلة تاريخية كاملة : ففي تهامة يفرغون الماء بالادلاء من خزانات المياه الطينية الكريهة الرائحة ، او ينشلن النساء الماء بأيديهن من الأبار الوحيدة المحفورة في الفضل الحالات ، ثم تنقله الجمال بالبراميل للمستخدمين ، اما هنا فيستخدم شيء ما يشبه الماكينة : بكرة صغيرة في حلقة تصر ، هنا نرى امامنا منشآت طينية ، وقوة الشد الحيوانية وشبكة من القنوات ، يشكل هذا الفرق مقسم المياه ، ويحدد نموذج التطور اللاحق في تهامة التي تعيش في مرحلة ما قبل الاقطاعيه ، والمنطقة الجبلية التي توجد فيها مبادئ الزراعة والصناعة .

ابن الامام

يكون اليوم الصيفي قصيرا في المناطق الاستوائية ، يساوى طوله طول الليل تقريبا ، يبدأ الظلام في الغرفة الساعة السابعة ، اول زيارة رسمية : يبلغونا بوصول " ابن الامام " ، ارتبكنا نتيجة لوصول مثل هذا الضيف الكبير ، يزول الارتباك سريعا حين عرفنا ان لقب " ولد الامام " يطلق على كل المقربين من الامام ، ويدخل ضمن تلك المستشارين والخدم ، وكان الضيف القادم هو واحد من موظفي الامام ، لا يختلف مظهره الخارجى كثيرا عن القبلى الضابط العادى المتواضع الملبس " المختار " من اوساط الشعب البسط ، لحية ضيقة ، عمامة ، جنبية ، نظرة مفتوحة سمحة (اما ما يختفى وراء هذه النظرة ، فهذه قضية اخرى) ، يحيينا باسم الامام ويستفسر عما اذا كنا نحتاج لشيء ما ، هذه هي الطريقة المعتادة بما فيه الكفاية للتحية التى يستحيل الاجابة عليها نون الاعراب عن الارتياح الكامل ، والامتنان لاستقباله واهتمامه ، اعلن لنا بان الامام يعتبرنا ضيوفا ، وان الخدم التابعين لنا هم تحت تصرفنا الكامل ، بضعمة عبارات اخرى ، الاستفسار عن الصحة ، تبادل المجاملات ، ثم يخرج ، يسود الظلام ، نلتهم العشاء المعد لنا تحت ضوء فانوس الكروسين بشرامة : بيض مقلى ، خضار ، وقطع من اللحم ، اخرج مرة اخرى الى السقف المستوى ، تسود الهياكل الضخمة التى تحيط بنا ، تبدو كأنها قد مالت على المدينة لتلتصق بها ، انتهى المؤذن من آذان صلاة العشاء فى المسجد المجاور ، تشتعل الاضواء فى نوافذ البيوت هنا وهناك ، يرتسم الهلال فى الجنوب ، القريب من الافق ، تقريبا على جوانب الجبل الاسود بوضوح بارز ، الهواء جاف وبارد ، السكينة الشفافة الحادة تلف المدينة الهامدة ، اهبط الى الاسفل عبيد سلم منحنى نون ان ادق جبهتى بسقوف الابواب الواطئة ، افتتح النوافذ الموجودة بشكل كامل (ان العرب مثل الروس : يخافون الهواء ، لهذا ينامون والنوافذ مغلقة) ، انام كمحجر على المرتبة الوثيرة المرمية بين القطنى الفارسية الثمينة .

تخطر لى فى الاحلام نماذج تاريخية - ادبية مخطلطة غير متتابعة : التجار الاجانب ، سفراء جير بيرشتين واولياريا ، الذين تواجدوا فى موسكو فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اليانكى من كونيكتيكوتا فى زاوية مارك توين ، الذى وقع فى مملكة ارتور فى القرون الوسطى ، آلة لولس للزمن ، التى تنقل البشر مئات وآلاف السنين الى الماضى والحاضر .

أفريق من النوم ، والشمس ساطعة تغشى الابصار ، والذباب يزحف اسرابا على الوجه بلا رحمة ، الهواء مقعم يشقشقة الآبار وأربيع الحدائق المحيطة ، أتذكر انى فى القرن العشرين ، فى البلد الذى يريد بوسائل بدائية ان يلحق (ولا يأمل بالسيف) بالبلدان الرأسمالية فى الشمال البعيد ، يقوم بمحاولات خرقاء غير منسقة كى يخرج من مملكة الحمبر الناهقة ، والآبار التى تصر الى عالم الآلات الكهربائية ، والراديو ومحركات الطيران الهادرة .

القاضى وأغب

يشغل العسكرى بهنوء ، ومعها مذكرة من الامام ، يحمى فيها قدومنا ويبلغنا بانه مسافرا الى منطقة الضواحي وادى شهر ، وانه أو كل اجراء كل المباحثات حول القضايا التى تهنا الى القاضى محمد راغب حتى عوته من الودادى ، نحتار بعض الشيء ، لقد حرصونا فى الحديدية ضد القاضى راغب ، ونصحونا بعدم فتح أى حديث معه ، لقد كانت تلك النصيحة لعبية العناصر التابعة للانجليز ، وكان الأخير مصدرها حيث اتضح فيما بعد ذلك ان تلك " الشخصية " اخافت سكان الحديدية الحساسين ، من أبعاد القصف الانجليزى ، والان يتعين علينا اعادة ترتيب خططنا ، افلا يمكن الاخذ بعين الاعتبار مذكرة الامام الخاصة لكننا لا ندرك ان نفكر بكل شيء حتى النهاية حتى نسمع ، تالية على الباب ، يبلغنا العسكرى بمجيء القاضى راغب .

يدخل شيخ نحيل اشيب بلحية ضيقة على شكل اسفين وعميون حادة خارقة ، عليه رداء ازرق وشريط عريض من الجوخ الاخضر عبر كتفة ، وعمامة بيضاء فوق رأسه وفى قدميه حذاء اوروبى لامع ، ينحنى بلباقة ، يفتح يديه وكأنه قد ذاب فى بسة ترحيب ، ولاننا قد دهشنا ينطق ببضعة جمل فرنسية لبقة بنتابع ، يتضح ان " الداهية القصير " قد ظهر بالمظهر العربى المنمق ، وأخفى المظهر التركى الحديث المعاصر لقد امتلك طرق وأساليب المصالونات الراقية فى اوروبا بما فيه الكفاية ، ويشخصه نرى ممثل تلك المجموعة من الاتراك ، الذين وصلوا الى هنا فاتحين واداريين للاحتلال ، ثم اندمجوا وتكيفوا فى هذا البلد الى ذلك الحد الذى جعلهم يبقون فيه حتى بعد سقوط السلطة التركية ، لكن يخدموا النظام الوطنى الجديد ، يخضعون لأوامر الذين اعتادوا فى الماضى على اخضاعهم ، لان تجربتهم الادارية ، وخبرتهم الثقافية ، وتعليمهم ومعرفتهم بالعلاقات النواية ، كل هذا قد جعلهم يخدمون الطبقات الحاكمة فى البلاد ، التى كانت مضطهدة فى السابق من قبل نظام السلاطين ، الذين لم يبق لهم الآن سوى الأثر العثمانى .

والقاضي راغب هو أبرز ممثلي هذه الفئة ، عسكري عثمانى قديم ، كان في الخدمة الدبلوماسية في سفارات الامبراطورية العثمانية في بيترودورج ، وباريس وفيينا ، عارف بكل حيل والاميب نظام عبد الحميد ، وبعد ذلك انتقل الى الخدمة في المستعمرات وشغل منصب محافظ في بلدين عربيين (اليمن والعراق) اندركته الحرب العالمية وهو متحمل منصب عامل احد الاقضية في هذا البلد ، ظل في اليمن حتى انتهت الحرب ، اشترك مع القوات التركية والانصار العرب الذين انضموا اليهم في النضال ضد الانجليز ، وكان سير المعارك ناجحا ، وكانت عدن تحت تهديد الاحتلال التركي أكثر من مرة ، ومن اجل الدفاع عن عدن تحتم على الانجليز سحب كثير من القوات من جبهات اخرى ، وكانت المبادء بيد الاتراك طوال الوقت ، استسلموا فقط بامر من القسطنطينية نتيجة للانهيار العام للحلف الالمانى - التركي ، ورحل القاضي راغب الى تركيا ، وهناك لم يدرك في ان يشارك مشاركة نشطة في الحركة الكمالية الوطنية التحريرية اذ لم يكن بمقدوره التكيف مع الوضع الجديد ، وبدلا من المكوث في المناصب الثانوية فضل العودة الى اليمن البعيدة ، كما قال ، لكي يساعد يقدر المستطاع اليمنى في بناء دولة مستقلة متقدمة .

على اية حال ، فانه ليس الوحيد هنا ، لقد بقي بضعة عشرات من الضباط والمدرسين الاتراك في اليمن ، ينتقلون في خدمة الامام ، وبمشاركتهم الأنشطة تشكلت مختلف وحدات اسلحة الجيش اليمنى (المشاة ، الخيالة ، المدفعية ، العربات ، اقسام الرشاشات) ، التي حلت محل فرق الانصار غير المنظمة . تعتمد المدرسه الحويه على المدرسين الاتراك بشكل مطلق تقريبا ، تلك المدرسه التي تاسست في عهد النظام العثماني ، وهي الان تعد البديل من الشباب العربي ، الذي يغذي صفوف ضباط الجيش اليمنى الفتى .

هذه هي البقية من البشر في الارث العثماني ، التي استطاع بناء الدولة اليمنية الجديدة استخدامها واضافة الى هؤلاء بقي آخرون من المتقزمين المستائين والحاملين بالماضي ، الذي لن يعود ، هؤلاء هم التجار الاتراك ، وملوك المنازل ، والحرفيون ، الذين فقدوا امتيازاتهم السابقة ، الذين فقدوا جزءا من اموالهم ، والتي اخذت مكانهم البرجوازية العربية النامية ، هذه البقية الحية القليلة العدد للامبراطورية العثمانية ، تجتمع تائهة في مقهى صغير في حي سوق صنعاء الواسع ، هناك يدخنون النارجيلة من الصباح حتى المساء ، يشربون اكواب صغيرة من القهوة التركية ، يلعبون النرد ، يقتنون ناظرين لصورة السلطان محمد المعلقة على الجدران .

لقد استمعت الى الحديث المعسول الذي قاله راغب ، نقل لنا تحيات الامام ، وشرح

ذكرياته عن فترة تواجده في بتروجراد ، انتقى أسماء وزراء القياصرة وشرح حفلات الرقص والاستقبالات في قصر الشتاء ، وبلغه روسية مكسرة يتذكر الكلمات الاولى من اغنية غجرية عفنه ، اعتبر القاضي راغب انه ليس من قبيل الكلام الزائد التعبير عن اعجابيه بالبند الذي اتينا منه ، وكأنه لا يلاحظ ان اعجابيه قد كان ببذخ بتروج الغابر ، لا يلقى صدى عند محدثيه ، استعجلنا في امله ، حدثناه عن روسيا تلك وببتروج القديمة لم يعد لها اثر ، ولم يعد البذخ القديم موجود الان ايضا ، كما لا توجد الجماهير الفقيرة ، هناك منشآت العمل ، لينينجراد العمالية ، منشآت الذنير ، بيوت الراحة للعمال والفلاحين في لفيدا وغيرها من قصور ومصايف القياصرة .

قلنا هذا ، لكي نوضح له بالكامل بداية علاقتنا ، ويكل تهذيب لازم تجعله يفهم بان الثناء على روسيا القديمة لا حاجة لنا به ، لا نتقبله كثناء يوجه الينا .

ومع ذلك لم يتأني لنا هذا مباشرة ، لقد تطلب الامر ان نعيد الحديث هذا أكثر من مرة لكي يفهم راغب ، ان امامه اناس من بلد ثاني ، بعيدة الشبه ببتروج الباهرة خالدة الذكر ، بالقصور ، حفلات الرقص الفجور ، المتهورين ، الكافيار وسمك الباليك الثمين ، وبدلا من النويان ارتياحا عند ثنائه ، نجيب بلطف بان هذا يجب ان لا يكون الان .

نرى ان راغب كان يتكلم من نتائج سير الغور ، وكانت مناوراته على ما يبدو ، تكمن في ان يستوضح من نحن ، هل نحن نماذج قديمة من الموظفين ، لا تزال باقية تحت الرقعة الجديدة " بالتقاليد الروسية الاصلية " وبالتالي اتينا الى الشرق بنوايا امبريالية مثل قناصل القياصرة القدماء ، ام اننا نختلف عنهم بشء ما .

نعرف فيما بعد ، ان واحدة من الحجج الرئيسية لأعدائنا في اليمن (وليس في اليمن فقط) كانت تستند على ان البلاشفة ياتون الى الشرق بنفس الاهداف المصلحية الاستعمارية ، شأنهم شأن الروس القدماء ، وعن طريق " الاعجاب " (الذي لا يخلو من الصدق) وضع راغب امامه هدف استيضاح نفسيتنا ونوايانا وتقديم التقرير اللازم لمسؤولي البلاد ، وعبرهم الى فئات السكان الاخرى فيها بهذا القدر او ذاك .

كان اسلوبه آخر ، ليس اقل تميز ، رغبته في معرفة درجة صدقنا ، والتأكد من اننا لا نتستر او نقلد النوق العربي ، يوجه القاضي راغب سؤالا عن علاقتنا بالدين وبالمسيح وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

الاجابة على هذا السؤال تحمل خطرا مضاعفا ، فانت تخاطر ، اما ان تظهر نفسك كملحد - داعية ساذج ، او ان تكون منافق حرياء ، نعطي اجابة متحفظة صحيحة وهي اننا لا تؤمن بالله ، ونرى ان مفهوم " الله " يستخدمه البشر لتوضيح كل ما هو مجهول ، غير ان الذين ضروري للحكومات للتأثير على جماهير الشعب ، فالذين عندهم في الاتحاد السوفيتي بيتلاشي ، وسينتهي المسيح عن الوجود في القريب العاجل ، هذا اذا كان موجودا في الحقيقة ، من المحتمل انه كان شخصية سياسية بارزة ، لكنه كان بالطبع شخصا لا يختلف عن الاخرين ، نحن لا نصدق المعجزات .

الدعاية الإيطالية

نعرف فيما بعد ، ان جوابنا اصاب الهدف ، لاننا لم نخفي ما نعتقده . لقد ضحطنا الشك باننا منافقون ، لقد اقتصرنا على صيغة متماسكة مختصرة ، واكدنا على عدم رغبتنا بالقيام " بدعاية " وبهذا لم نقدم سلاحا يائدينا للمترصدين ، وقد علمنا فيما بعد ان كل كلمة من كلماتنا وكل خطوة من خطواتنا كان الهدف ان تستخدم ضدنا ، لم ينام اعداؤنا : " فالكتور " الايطالي ، الذي رحل من الحديدية عشية وصولنا ، والذي وصل الى صنعاء خلال ثلاثة ايام بفضل سيارته ، استغل كل هذه الفترة للعمل المحموم ، يحرض الامام نفسه ضدنا ، وكذلك اكثر مستشاريه نفوذا ، وكانت اساليب تحريضه لا تخلو من القراة والتميز ، فبعد ان اقتنع بسرعة بسذاجة الحجة القائلة " لا تستقبلوا البلاشفة ، فانهم يقومون بالثورات في كل مكان ، ويطيحون بالملوك " حين اقتنع بان هذه الحجة لا تخلق الاثر المرغوب ، لجأ هذا الايطالي الى مناورة مراوغة ، يكمن جوهره هذه الحجج في ان البلاشفة مخادعون حين يقولون انهم يقيمون في الشرق سياسة الصداقة مع شعوب الشرق ، وانهم يدعمون طموحها للاستقلال ، انهم في حقيقة الامر ، ياتون الى الشرق بغرض المكاسب الاقتصادية واستغلال شعوب الشرق ، وازضافة الى ذلك ، يستخدمون نجاحاتهم في الشرق للضغط على انجلترا وتحقيق اتفاقية معها ، وما ان تعترف بهم انجلترا فانهم سيقطعون معكم جميع العلاقات ، وستصبحون بلا شيء ، والبلاشفة في جميع جوهر الامر يتعاونون مع الانجليز يطعمون الى تحطيم الدولة اليمنية ومن ثم القيام باستغلال ثرواتها ، لا تتقوا بهم ولا تجروا معهم اية محادثات ، لانكم بذلك ستخسرون صداقة ايطاليا فقط ، وان تكسبوا شيئا بدلا عن ذلك .

هل ياترى اثرت هذه الضغمت على العقول السريعة التاثر للفنه اليمنيه الحاكمة ؟ ان مجرى الاحداث اظهر ان هذا الهمس لم يعطى اثرا حاسما .

كثيرة شفافية هذه النوايا التي اجبرت ايطاليا على الصدح او التفريد بهذه الاتنية المنفردة . لقد كان واضحا حتى للاطفال بان الفاشية الايطاليه قد كانت تتضايق بقدر ما اذا كان البلد الذى تعتبر نفسها " وصية عليه " او البلد الذى تعتبره مستعمرتها القادمة ، يقف على طريق سياسية خارجية مستقلة لتتخلص من براثن القط الفاشى التى لا تبدو انها مخملية ، كما تعرض الايطاليون للشبهة بشكل كبير بسبب النتائج المخجله فى مدة عامين من تصرفاتهم فى اليمن ، وقد سبق ان شاهدنا فى الحديدية اصدقائنا العرب يقولون لنا عن قارب لى محرك ساكن على الرصيف .

- لقد اتى به الايطاليون ، لما ان اخرجوه من الباخرة حتى تعطل ... هذا هو حال كل البضائع الايطالية ...

وكنا حين نسال فى الدكاكين ، لماذا هذه البضائع لو تلك سيئة ، تلقى جوابا واحدا :

- ماذا نعمل ... ايطالية ...

لقد صارت كلمة " ايطالى " تعنى " رديء " ، " لا تجدى فى شىء .

من الواضح ان نتائج الايطاليين لم تثر ثقة خاصة فى هذا الجانب ، ومع ذلك يبقى من الدجل شىء ما ، لقد كان اليمينيون حذرون عند قدومنا ، وكانوا " يفحصوننا " باهتمام وانتظام ينطلقون من الحجج الكاذبة التى اشاعها الدكتور الايطالى الوديع ، وكان لدى اليمينيين شك من نوع اخر فينا الى جانب حجج الايطالى ، كانت هذه الشكوك تقوم بالاساس على اننا سنقوم بالدماية الالحادية او ان نمط حياتنا سينهى التقاليد المعيشية والاخلاق المناققة المتجمدة فى اوساخ رقابة القرون " فى المجتمع العربى " واننا بينقصى ضد انفسنا " الرأى العام " نخالف العشرات من كبار القوم ، من المشايخ ، نوى اللحى البيضاء ، مثل هذا المجرى للامور ان يكون نافعا للامام ومستشاريه ، وذلك لانهم فى نهاية الامر بهذا القدر او ذاك مسؤولون عن دعوتنا الى صنعاء ، واذا حصل لنا شىء فانه سيؤدى الى اضعاف بعض نفوذ الامام ، وسيقدم لوراقا رابحة للمعارضة الرجعية الوقحة فى تلك الفترة .

لكن لن نذهب بعيدا ، وان نقدم محتوى احاديثنا بشكلها العملى الخالص ، لقد صار كل هذا من الماضى ، وكل هذا شىء معاش تجسد فى ورقة صغيرة من النوع السميك مرقشة

بالاحرف العربية المنمقة والمهورة بعدة توقيعات وختم الامام فى النهاية ، وكانت مهمتنا المتواضعة هى اظهارها وتصويرها على ورق سوفييتى عادى ، بمساعدة الجبر الطوبوغرافى البسيط لتلك الصور القليلة العدد المتبقية من تلك الصور الذهبية التى انطبعت بشكل اكثر قوة فى الكاميرا العميقة للدماغ ، فالزمن الذى مضى قد اوهى سطلوعها الاولى ، والكثير من التفاصيل امتصت بشكل كامل ، وبقت رسوم مجملة واشكال عامه ، ما العمل فهذا هو نصيب الغالبية من اولئك الذين يقومون فى بلد مجهول ، ويحدث ان تكون مغمورا بالاعمال التكنيكية والسريعه ، فى توضيح ظروف تسويق البضائع ، وحل قضايا نوعية مختلف اصناف البن ، فى وسائل توصيل الكروسين ، فى اسعار السكر والدقيق ، وبغض النظر عن الاشياء الاخرى ، لا تستطيع تركيز كل قواك الفكرية لكى تتأمل الظواهر الخارجية ولا تدرك ان تطبعها فى مجال التقبل التعبيرى - الغنى ، واتكن هذه المقدمه القصيره بمثابة تبرير خفيف لبهوت وعدم كمال هذه الصفحات ... بعد ان اجرى مقابله المطولة معنا ، يذهب القاضى راغب ، واعدنا بان الامام سيستقبلنا بعد بضعة ايام ، حين يعود من مقره الصيفى فى وادى ضهر ، القرية الصغيرة خارج العاصمة ، الواقعة على بعد عشرة - اثنى عشر كيلو مترا منها .

فى انتظار الغارات الانجليزية

لماذا خرج الامام من العاصمة ؟ نسأل انفسنا بلا ارادة ، الاحداث تتوالى ، والانجليز (وهذا لم يخفيه علينا القاضى راغب) اعلنوا قبل برهة بسيطة للامام مطالبتهم باخلاء منطقة الضالع وقعلبة ، وما يسمى بالمناطق المتنازع عليها ، التى استولى عليها اليمينيون قبل زمن قصير ، وقد قذفوا بضعة عشرات من القنابل من الطائرات على هذه المدن غير المحمية فى بداية ١٩٢٨ ، بهدف الضغط المعنوى " المعنوى " الشديد لكن اليمينيين لم يخرجوا ، وانما اكتفوا بتصيح الميعوث الانجليزى جيكوب بسرعة الرحيل من صنعاء مطرودا ، فبدأ الاسد الانجليزى بغضب بشدة ، فارسل لليمنيين مطلقا رهيبا باخلاء المنطقة المتنازع عليها كشرط مسبق للمباحثات اللاحقة ، انتهت مدة الانذار النهائى - صار الجو مشحونا وفى هذا الوقت يسافر الى " المصيف " .

نعرف سبب سفره فيما بعد ، لقد كانت المنطقة الصغيرة وادى ضهر تستخدم كنقطة يلتقى فيها رؤساء القبائل والمشايخ الاكثر نفوذا من كل اطراف البلاد ، توات الاجتماعات فى

قصر الامام اياما بليا اليها ، حول اتخاذ وجهة مسيرة ركب الدولة اليمينية ، الذى لم يكتمل بناؤها بعد ، امام العاصفة الامبريالية القادمة ، امام شعاب النزاع الداخلى الذى اصبح وشيكا ، لم تكن نعرف كل تفاصيل ما يحدث فى ذلك الوقت ، وان كانت الاحداث تبدو كذلك ظاهريا .

اخرج الى السقف المستوى لبيتنا ، وبعد ان استند بمرفقى على الحاجز الطينى المرتفع ، اتطلع بنهم الى المحيط القريب والبعيد ، محاولا استشعاره ، والتشيع باشعة الشمس المنصهرة وسخونة جو الاحداث الوشيكة الوقوع ، وبينهم انقل طرف وزجاج المنظار من الجبال والقمم البعيدة الى السور المسنن للقلعة ، الى منارات المساجد وحواجز البيوت فى الضواحي .

لا شىء ! سكينه وفراغ ، سوساسل الجبال المحروقة الغبراء هامة جرداء ، الملح الحارس المنارب الذى يخطو على حائط القلعة بالكاد ، مدافع ميدان وحيدة ، رافعة مواسيرها بخراقة ناظرة الى السماء وكانها تترقب العدو المنتظر .

البيوت خالية ، والسقوف خالية ممطورة بالغبار .

مصارع شبابيك النوافذ مسنودة باحكام ، ولا توجد سوى هياكل الخدم تتجول فى الحدائق الخضراء يشتلون بسقى الاشجار واحواض الزرع ، اما الملاك فلا وجود لهم ، وكان اشعة الشمس الحارقة قد طردتهم بلا حول فى الزوايا العميقة للقصور المتعددة الطوابق .

يقبل المساء ، برودة الجبال الليلية تغرى كل حى للخروج الى الهواء ، لكن الشرفات والسقوف خالية كما كانت فى النهار ، وكذلك مصارع النوافذ واجمة ، والاضواء لا تشع وراء الستائر المسدلة عليها كالمسابق ومن بعيد فقط ، يصل صخب قطعان الماشية العائدة والموسيقى الغير منتظمة للفرقة الموسيقية العسكرية فى القسم التجارى من المدينة .

نعرف ان كل السكان الميسوريين قد تركوا المدينة ، وانه قد بعث كل التجار والموظفين والمشايخ باهلهم الى اعماق البلاد بعيدا ، الى القرى الجبلية غير الملحوظة ، كما هربوا الى هناك هم ايضا ، ويمرون على المدينة نادرا وللأغراض العاجلة ايضا ، وكانت عشرات اليفال تعبر بوابة المدينة كل يوم تحمل ممتلكات الفئات الميسورة ، حتى فرغت بيوت الاثرياء وهمدت ، ولم يبق سوى الخدم يحرسون حدائق ومخازن الملاك الهاربين من حمى الحماس الوطنى ، وكان البيت الذى نعيش فيه ، واحداً من البيوت القليلة التى يظهر البشر فى سقوفها وفى شرفاتها نهارا ، وتتغامز الاضواء ليلاً .

فر الوجهاء والميسوريين ، فروا قبل ان يروا الطيران المعادى بعد ، فروا فى دعر حيوانى

امام احتمال اقتراب الهجوم ، ولم يبقى في المدينة سوى الشخصيات المسؤولة ، القوات العسكرية ، وبالطبع الآلاف من ابناء الشعب البسيط ، بقى الحرفيون ، اصحاب الحوانيت الصغيرة والمزارعون ، الذين لم يهربوا الى اى مكان لانه لا شىء لديهم يفقدوه ولا يوجد مكان يفرّون اليه .

- لو كان اليمينيين جبناء مثل سكان صنعاء ، لاستسلمنا بدون قيد او شرط امام الانجليز بعد اول غارة طيران - بصراحة تحدثت شخصيات حكومية يمنية ، تجيب على حيرتنا بالنسبة لمثل هذا الذعر الواضح ، الذى اتخذ طابع غير مشرف - ولحسن الحظ فان الشعب ليسوا هم سكان صنعاء .

- بالاصح ليسوا وجهاء صنعاء - واضفنا ، وقد خرجنا عن نطاق المجاملات الدبلوماسية .

كان هذا اكيدا ، فالشعب الفلاح والعامل الحقيقى اليمنى لم يهتز حتى عندما بدأت الغارات وسقط عشرات البشر قتلى في المناطق والقرى ، تمزقهم شظايا قنابل الطائرات .

الاستقبال الرسمى للامام

بعد بضعة ايام تتم اول مقابلة رسمية مع الامام برفقة القاضى راغب .

قصر الامام (هو مسكنه الشخصى ومقر عمله) يقع فى مسكن الوالى التركى السابق ، لا يوجد فيه اية خصوصية يمنية ، كل مقر العمل يقع بين اربعة جدران طينية ضخمة بأبراج مراقبة فى الزوايا ، المدخل يمر عبر بوابات مزخرفة بنقوش منمقة ، تقدم التحية لنا فصيلة من العسكر وقفت صفا واحدا ، وبعد ان صعدنا على السلم الخارجى نمر عبر ممشى طويل الى غرفة واسعة مفروشة بالسجاد ذات اسلوب نصف اوروبى بمقاعد وكراسى ، نجلس ، يجرى حديث مع القاضى راغب ، وبعد بضعة دقائق يدخل الامام ، نتنهض وتبادل التحية على الطريقة الاوروبية ، ثم نجلس بعد ذلك جميعا .

كان اسلوب الاستقبال هذا مدروس بشكل جيد ، تكمن القضية فى انه ليس من الملائم ان ينهض الامام امام " غير المؤمنين " وقررت فى نفسى انه لا يرغب مستقبلا ضيوفا وهو قاعد كما يفعل الملوك الاسيويون ، ولهذا اضيفت قواعد الرسميات ، التى لا تمس بكرامة اى من الطرفين .

لابسا قميصا وعباءة و متمنطقا بسيفة ، ومسبحة في يده يذكرنا بعهد الانجيل ، حيث الملك والكاهن الاول شخصية واحدة ، وبحركات عصبية حادة يجلس على مقعد من المساند ، ومسبحة بمسبحته يمطرنا بالاسئلة .

هو في ذلك السن الذي لا يمكن القول بانه عجوز بالكامل ، فهو متحرك ، منفعل ، مهتم ونشط في الحديث ، يستفسرنا خلال ثلاثين او اربعين دقيقة دون توقف حول كل شيء ، عن صحتنا وكيف وصلنا وحول كل المشاكل الدوايه ، ماذا يحدث في ألمانيا ؟ هل تقوت بعد الصرب ؟ ما هو وضع الحكومة الحاليه في انجلترا ؟ ما هي طبيعة العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وتركيا وفارس وافغانستان ودول الشرق والغرب ؟ هل ستستطيع الهند ومصر نيل الاستقلال ؟ ما هي طبيعة الوضع في الصين ؟ من سينتصر الشماليون ام الجنوبيون ؟ .

يوجه الاسئلة واحدا بعد اخر ، والقاضي راغب واقف في ، وضع احترام ، منحني قليلا ليس دون صعوبة ، يكابد مهمته ليس ببساطة كتركي ، يترجم كلمات الامام الى اللغة الفرنسيه ، واجابتنا الى اللغة العربية ، وهذه المهمة شاقة لان الامام يوجه الاسئلة لا من اجل ان يكتفى باجابات عامه دون محتوى ، بل انه يعيد الاستفسار اكثر من مره ويدقق افكاره ، ينصت لاجابتنا باهتمام فائق ، ممعنا التفكير فيها بسرعة وفي نفس اللحظة ، ينقل ما تولده هذه الاجابات من تاثير الى هزات عصبية سريعة للمسبحة ، ومن حين الى آخر يضحك بحدة وعصبيه ، وكأنه يطمح عن طريق الضحك اكمال ما لم يرد قوله بالكلمات ، وفي هذه اللحظات تهتز قامته المكتنزه قليلا ، تنتقل عيناه بالتناوب من احد محدثيه الى اخر .

انظر الى الوجه الحيوي للامام ، رغم انتقاله قليلا ، يلحيه متموجه وخدود منتفخة ، اتعجب من ان هذا الانسان الذي قضى كل حياته في جبال وصحاري اليمن ، والذي لم يكن ولو مرة واحده ليس خارج اليمن فقط ، بل وحتى في تهامه هذا الانسان الذي لم يرى البحر والجليد في حياته ، ولا البواخر والسكك الحديدية ، ويتضح مدى فهمه لاعقد مشكلات السياسة الدولييه الى هذا الحد او ذلك ، وابداء من وقت لآخر الشعور وكأنني طالب معهد يقدم امتحانا في مبادئ السياسة ، لتذكر حياته ، اعوام التشرد الطويله في صحاري وفجاج اليمن ، الحياه العسكريه القاسيه لزعيم ومنظم حركة المقاومة المعادية للاتراك ، التي ادت الى نجاح نسبي في العامين او الثلاثة اعوام قبل الحرب العالميه فقط ، حين اعترف الاتراك بصلاحيات الامام الدينيه في اليمن واعطوه امكانية القعود وتثبيت نفسه في صنعاء ، وفي عام ١٩١٢ قام في اليمن شكل خاص انتقالي في ثنائية السلطة بشخص الامام والمشايخ وفرق الانصار من

القبائل من جهة ، والوالى التركى الجندرمه والقوات التركيه من جهة اخرى ، كانت هذه فترة انتقاله فريدة ، وكان كلا الطرفين يستعد لمواصلة الصراع ، فالأتراك يشقون الطرق المعبدة وبينون القلاع ، والامام يقوم بعمل تحريضى فى اوساط القبائل ، يوحدھا حولة ، وشيئا فشيئا يكون الجيش ، لقد غيرت الحرب العالميه مجرى الاحداث ، لقد وضعت الطرفين امام عدو واحدا هو انجلترا ، التى احتلت منذ عام ١٨٢٩ عدن اليمنيه ، واصبحت العدو اللدود لليمن ، وفى مجرى الصراع ضد الانجليز اقترب اليمينيون من الاتراك الى الحد الذى كانت فيه اليمن اكثر الدول العربيه مرونة مع تركيا ، وبعد ان طرح صلح لوزان العلم التركى فى الارشيف فقط .

وبعد انتهاء الحرب بقى اليمينيون لوحدهم عمليا ، وبعد صلح لوزان الشكلي بقوا لوحدهم وجها لوجه ضد انجلترا ايضا ، وكان يتحتم عليهم خوض نضال طويل وعنيد ضدها ، فى هذا الصراع جرب العدو كل الاساليب لضعضعة الدولة اليمنيه الفتية ، بدأ من الاحتلال العسكرى للحديدة - فى الاعوام الاولى من صلح فرسال - ومرورا بتنظيم الانتفاضات الداخليه ، وتحريض الدول المجاوره (الحجاز وعسير) ضدها ، والحصار الاقتصادى ، والرشوه ، والتجسس ، والقصف بالطائرات فى صيف عام ١٩٢٨م مباشرة ، لقد تطلب هذا الصراع من الامام واعوانه ليس الشجاعة الشخصيه فقط بل والمهارات القتاليه والتنظيمية ، لقد كان الامام على رأس جماعات الانصار المنتفضين لضرب الفرق التركيه عديمه التنظيم والواقعة تحت قيادة باشوات السلطان الغبية والجاهلة ، ولكن مسألة النضال ضد انجلترا التى تجيد القتال بالهراوات وبالدينار ، بالطيران وبالتحريض ، فان المهاره لا تكفى ، وما هم الناس الذين لم يروا البحر قط ، والذين استشفوا كل ثقافتهم تقريبا من القرآن والسنة ، بدأوا على عجل يسلمون انفسهم ويستخدم المخلقات البشريه والمادية للارث التركى ، واكملوا تشكيل الجيش النظامى ، الذى بدأوه فى زمن الحرب ، وشرعوا فى بناء الصناعة ، وشق الطرق وامتلاك الطائرات .

اصبحت الصحف الاجنبيه ، وعلى راسها الصحف المصريه الوسيطة الاساسيه لدراسة السياسة العالميه ، وظهر الوعي بضرورة جلب التقنيه الاوروبيه ، واقامة العلاقات التجارية مع دول الغرب ، بل وحتى ادراك ضرورة اقامة العلاقات الشكلييه مع البلدان الاخرى ، وهكذا كان الاتراك والايطاليون والالمان قد وصلوا لبناء البلاد بهذا القدر او ذاك ، واصبح الاجانب يتوافدون الى العاصمة ، وكانت الاحاديث التى تجرى معهم بمثابة مصدر لدراسة القضايا

الدواية الغامضة غاية الغموض ، وما هي النتيجة خليفة " النبي " ، ورأس اقدم سلالة ملكية في العالم ، يعتبر في تصور اتباعه انه يمثل الزعيم الروحي لعامة المسلمين قد وصل الى ادراك فائدة وضرورة عقد الاتفاقيات مع معنى اول بلد اشتراكى في العالم الواقع في طرف نصف الكرة الارضية الآخر .

تنتهى المقابلة الرسمية بعد حديث استمر ساعة ونصف ، يعطى الامام للقاضى راضب صلاحية حل جميع القضايا العملية معنا ، ينهض خارجا بعد ان عبّر عن امله بتجاح كل المحادثات ، اما نحن فنسير الى البيت بوقار .

الباب الثالث عشر

- * جهاز الدولة اليمنى
- * القضاة ، الديوان ، المشايخ
- * الاجهزة الادارية والارشادية
- * الاسام
- * الوزير الاول
- * سيوف الاسلام
- * الزرانيق المتمردة
- * محتغيو اليمن

جهاز الدولة اليمنى

نعيش فى صنماء اسبوعا اخر ، نتضايق ، فالحياة تمتد على وتيرة رتيبة واحدة ، المدينة فارغة ، والمدارس مغلقة ، لم يعد الزوار الصاخبون من ابناء الفئات الدنيا يتزاحمون امام بوابات الاستقبال والمدخل الامامية لبيوت الوجهاء .

السوق هادىء ، المساجد فارغة ايام الجمع ، لا وجود للاستعراضات العسكرية الباذخة على طريقة اسطنبول السلطانية ...

لكن فى المساء ، وفى ظلمة ما قبل الفجر الحالكة تدوى اشارات النداء من الابواق العسكرية ، وتلمع المصابيح مضيئه بالكاد اشباح مجاميع القوات المتحركة ، وعندما تضىء اشعة الضوء الاولى فوق افق المدينة ، نشاهد الفرق التى تسير تتمرن على المعارك الليلية مع العدو المنتظر تحت اسوار المدينة ، وعلى بعد ١٠ - ١٢ كيلو متر من العاصمة فى وادى ضهر تجرى مباحثات الامام المستمرة مع زعماء القبائل الذين وصلوا من مختلف انحاء البلاد على رأس قوات مجهزة على جناح السرعة ، السؤال يدور حول بقاء او فناء الوطن ، حول الحرب مع الانجليز او عدم الحرب ، لا تسير القضايا التجارية بالسرعة التى نرغب بها نحن الواصلون بوتائر الخطة الضمنية ، بداننا نفهم ان جهاز الدولة اليمنى ليس بتلك البساطة ، التى يبدو بها فى بداية الامر ، يبدو ذلك واصحا شكليا ، فرأس الدولة هو الامام ، ومع بضعة نواب (عادة خمسة) ، يحمل كل واحد منهم لقب " القاضى " (ورأى واحد من هؤلاء الخمسة) وكل واحد من هؤلاء النواب يرأس قسما خاصا فى جهاز الدولة ، وتحت امره كل واحد منهم بضعة " مكاتب " تشبه الوزارات تقريبا ، والبلاد مقسمة الى عدة مناطق ، وعلى رأس كل قضاء " عامل " . والتنظيم بعيد عن التنظيم ، فالمناطق مختلفة من حيث اهميتها ، تكتسب احيانا اهمية مقاطعة مثل تهامة التى يوجد على رأسها الامير محم ابن الامام . وعلى رأس المنطقة الشمالية الامير احمد الابن الاكبر للامام ، كما توجد مقاطعات صغيرة منسية يرأسها صنائع عديمة النفوذ ، كما ان مجالات تأثير " القضاة " مختلفة ، فالقاضى راغب يشرف بشكل مطلق تقريبا على السياسة الخارجية والصحافة ، ونائب اخر او ما يسمى بـ " الوزير (الكبير) " ، القاضى عبدالله يشرف تقريبا على القضايا العسكرية ، والصناعة والمالية ، يعتبرونه رئيس وزرائه الفريد ، فى هذا الجهاز من القاضى حتى الموظف الصغير يسمون انفسهم بتواضع " خدم " الامام ، الذين يتعامل معهم الاخير حتى فى المراسلات

الوظيفية بصيغة المفرد ، لقد حذرونا من القاضي عبدالله حين كنا في الحديدية ، انه واحد من اكثر مستشاري الامام نفوذا ، وحين قابلناه في صنعاء اندهشنا من الحس السياسي الفائق لهذا الانسان ، وفهمه للمهام السياسية للنولة اليمنية وتداخل كل هذا مع التدين البدائي والسذاجة الطفولية المباشرة ، لقد انعكس فيه طرفا نقيض بين الاقطاعية الهرمة والافكار الوطنية المتقدمة التي تمتلكها بلاد ملكة سبا .

وإذا كان القاضي راغب ، ممثلا نموذجيا للعناصر القادمة المسلحة من غير العرب ، المستعدة مساعدة اليمن قدر طاقتها في تحقيق المهام الوطنية ، وأن كان في حقيقته ارفع من الناحية الثقافية من المستوى المتوسط في هذا البلد ، لهذا فانه معزول نوعا ما عن الجماعات الحاكمة ، ولا يملك فيها جذور قوية بما فيه الكفاية ، فانه يتمثل في شخص القاضي عبدالله القسم لتقديسي نسبيا من الفئة العليا اليمنية الاصل والقاضي عبدالله يمتنى حتى نخاع العظم ، وهو الاخر لم يرى باخرة اطلاقا ، ولم يشاهد البحر والجليد ، اكتسب تجربة ما من الاتراك الذين كان في خدمتهم اثناء فترة احتلالهم لليمن .

شاب (عمره يقارب ٢٥ سنة) يذكر مظهره بباريس جود ونوف ، بلحية عريضة كثيفة ، اجعد النودين ، بعيون ذكية معبرة ، يجسد القوة المنظمة في اليمن ، مشغول من الصباح حتى المساء ، يتفقد نشاط الاجهزة الحكومية ، ومراقبة صحة عمل الادارة العسكرية وغيرها من المنشآت الصناعية وتمويل الجيش وتدريبه ، هو مثل الامام والقاضي راغب يعمل من الساعة السابعة - الثامنة صباحا حتى منتصف النهار ثم يخلد بعد ذلك الى ساعات القات ، ويتجدد عمله في المساء ويستمر احيانا حتى ساعة متأخرة من الليل .

ورغم ان ثقافته قليلة ، فانه واثق بجديته من ان مؤسس صنعاء هو سام ابن نوح . والقاضي عبدالله داعية متحمس لافكار التصنيع في نفس الوقت ، يحطم بانتشاء صناعة النسيج على قاعدة القطن اليمني الفائق الجودة ، وعلى الاحتياطي الضخم ، كما يؤكد على وجود الفحم الذي لم يستغل بعد .

لا داعي لضرورة امتلاك فطنة خاصة للملاحظة ان القاضي عبدالله ، شأنه شأن القاضي راغب ، فضلا عن نخبة الوجهاء الاقل بروزا في العمل ، هم في جوهر الامر يمثلون السلطة التنفيذية فقط ، يعنون وينفذون ارشادات وتوجيهات الامام ، يعتبرون " مستشارين " شكليا الى حد كبير وفي الجانب العملي فقط ، يخاطرون بالتدخل في التوجيهات المبدئية بقدر كبير من الحذر والتحفظ ، لا يوجد وراء ظهورهم لا انساب وجبهة ولا ملكيات واسعة ولا خبرة سياسية

طويلة ، ولا نفوذ ديني ولا علاقات واسعة ، انهم اخصائيون سياسيون في جهاز الدولة ، انهم محرومون من قاعدة اقتصادية ، وتعتمد كل قوتهم وتأثيرهم علي مواهبهم التنظيمية والسياسية بشكل مطلق وعلى المقدرة النووية في العمل ، وهذا كما هو معلوم بعيد عن الكفاية لامتلاك سوت حقيقي حاسم في القضايا المبدئية ، ولا ياخذ الامام في مثل تلك القضايا انتباها مثل هؤلاء المستشارين ليس شكليا فقط ، بل ولا حتى عمليا ، وعن المشكوك في انهم يدعون ذلك .

يستطيع الامام القول عن نفسه اكثر من اي ملك اوروبي " الدولة هي انا " وذلك لانه في يده ، الجيش ، جهاز الدولة ، الخزينة ، وثروة شخصية لا تحصى بشكل احتياطي من الذهب والكنوز الموروثة عن الاسلاف ، يمتلك نفوذا دينيا لا حد له ، ويمتلك افضل الاراضي في البلاد ، وافضل البيوت والحدائق في العاصمة وما حولها ، وفي صوامع ومخازنه تتكسب افضل محاصيل البن ، لقد آلت اليه كل ملكيات الاتراك المطرودين ، وفي يده كل اسس الصناعة المستخدمة في صنعا مثل ، محطة الكهرباء ، المطبعة ، مصنع السلاح (اشتراه من الايطاليين) ، وآلة تصفية القطن وملاحونة تدار بمحرك يعمل بالبنزين - اهتماماته الشخصية لا تنفصل عن الدولة تقريبا ، والى ذلك كالحد تشتت عرى ارتباط مفهوم ملكية الخزينة بملكية الامام الشخصية ، لهذا السبب يهتم الامام بكل شيء من تغير الوزارة في بريطانيا الى تغير البغال للمسافرين من الحديدية ، وهو يحكم ويدير بكل معنى الكلمة ؛ كل اليمينين " خدمه " و " عبيده " ابتداء بالعبيد الحقيقيين وحتى الوزراء او بالاصح النواب .

يبدو للوهلة الاولى ملك مطلق بلا حدود ، لكنه كما ذكرت سابقا لم يكن بمقدوره الامتناع عن مضغ القات ، كما كان مضطرا الى منع ابنائه من الذهاب الى محطة الاذاعة لسماح الحفلات الموسيقية الاوروبية لان اتصال ابناء الزعيم الروحي بموسيقى غير المؤمنين ، يعتبر امرا غير مسموح به من قبل " الرأي العام " المتمثل بمجموعة من المشايخ المتنفذين وفئة السادة المذكورين ، والاكثر من ذلك ان تلك الاغاني تذاع باصوات نسائية في الغالب .

ان هؤلاء المشايخ ، الذين ينقسمون الى عدة فئات ، تربطهم خيوط كثيرة من علاقات الدم والملكية والدين مع كل فئة الوجهاء من التجار - الاقطاعيين في اليمن ، يتابعون بيقظة كي ينفذ الامام ، الملك المطلق ، ارادتهم ، ويحمي مصالحهم ، هذه المصالح التي تعتبر مطابقة لمصالح الوطن والدين ، ان اقل مبادرة اصلاحية يتجرأ الامام عليها يستقبلونها بمقاومة ضارية ، وبصعوبة بالغة يتمكن الامام ومجموعة من الوجهاء بطريقتهم الخاصة اجراء هذه - او تلك من التجديدات ، تلك البدايات مثل استخدام السيارة والدراجة البخارية ، السماح بوصول الاطباء

الاجانب (كان اوائهم من الايطاليين) ، ويعد الطلبة الى الخارج (الى ايطاليا لدراسة الطيران) ، قد قوبلت بمقاومة عنيدة من قبل هؤلاء ، وتحققت بعد مناورات صعبة طويلة . اما ما يتعلق بتلك الافعال مثل عقد الاتفاقيات مع الدول الاجنبية (ايطاليا - الاتحاد السوفيتي فيما بعد) او قضايا الحرب والسلم ، فانه يجب ان يسبق ذلك قيام عدة اجتماعات ، مؤتمرات ، محادثات الامام وراء الكواليس مع المشايخ ... الخ .

وعلى العموم فان مجموعة صغيرة من زعماء مذهب الزيدية (مذهب اسلامي ايراني المنشأ يشغل مكان وسط بين السنة والشيعة) تعتبر وكانها لجنة مركزية من نوع خاص لهذا المذهب ، الذي يمكن ان نسميه الحزب الحاكم في اليمن بمعنى خاص ، وفي هذا الوضع يعتبر الامام ليس اكثر من ممثل لهذا " الحزب " ، يجب ان يكون الامام منتخبا من الناحية الشكلية عن طريق مراسم طويلة معقدة ، ومن الناحية العملية ينتخب الابن الاكبر للامام المتوفى عادة ، ومن الناحية الشكلية يجب ان توجد في الامام المنتخب اكثر من عشرة شروط " معنوية " (الشجاعة والرجولة والعدالة ... الخ) وقد صيغت في قانون خاص في المذهب الزيدي ، ويقتض عن ذلك مبدأ خليط من المبدأ الوراثي والمبدأ الانتخابي ، الجمع بين السلطة المطلقة والمبادئ الدستورية الشيعية في نفس الوقت .

القضاة ، الحيوان ، المشايخ

والمشايخ (الكبار والمتوسطون في اليمن يبلغ عددهم ما يقارب الفين شيخ) يعتبرون اكثر الفئات الاجتماعية نفوذا ، وكما اشرنا سابقا ، فانهم ينقسمون الى فئتين ، فئة ارسنقراطية اكثريكية بليدة ، وفئة اخرى من الاقطاعيين الأقل رجعية تنمو قليلا قليلا الى طبقة تجارية - صناعية ، يعتبر خط الامام محصلة لهاتين الفئتين ، ويحدد تألقها النهج السياسي الرئيسي ، تقع تحت تأثير المشايخ مجالس خاصة (كان عددها ثلاثة) ، دائمة الانعقاد لدى الامام ، يتكون كل واحد منها من اثني عشر الى خمسة وعشرين شخصا من اكثر المشايخ نفوذا ، واكثر هذه المجالس عددا ونفوذا هو مجلس القضاء الديني ، الذي يقف على رأسه اعلى شخصية دينية - شيخ الاسلام ، وهذه المجالس تلعب دورا حاسما في القضايا الرئيسية ، ومع ذلك تعتبر هيئات غير رسمية ، ولا يتدخل المشاركون فيها ظاهريا في القضايا ، وليس بمقدور الاجانب مثلا مقابلة اعضاء مجلس العلاقات الخارجية اطلاقا ، وانما يجب بحث جميع القضايا مع المستشار " الرسمي " كما هو في هذه الحالة القاضي راغب .

الاجهزة الادارية والارشادية

وفى كل الاحوال فان شهر او شهرين من التواجد في صنعاء غير كافى لمعرفة الوضع بوضوح بكل دقائق ماكنة الدولة ، التى هى ليست يتلك البساطة ، وبكل حيل الجهاز الحكومى و " الاجتماعى " ، التى بواسطته تتجاوز الطبقة الحاكمة مؤامرات العدو الخارجى الجبار ، ومقاومة العناصر المعارضة فى داخل البلاد ، وان تحل المهام الصعبة والمعقدة لاعادة بناء البلاد ، متجاوزة التناقضات الطبقية والقبلية والدينية .

الامام

ولا يزال من الصعب اعطاء وصف شخصى للامام ، ومن الصعب فهم اى من الافعال تمليها مصالح الامام الذاتية ، وتنفذ بمبادرته الخاصة ، وائى منها تنفذ تحت الظروف الموضوعية ، واحيانا كثيرة تحت ضغط شيوخ " الاسلام " . يمكن باختصار فقط رفض التصور الذى ينشره عنه الصحفيون الاجانب كواحد من اكثر الملوك رجعية وبخلاً واستبدادا ، ومقارنته بالملوك العرب الاخرين ، تتكون هذه التصورات نتيجة للنضال العنيد ، رغم انها ليست واضحة دائما ، هذا النضال الذى يخوضه الامام ضد محاولات التغلغل الامبريالى فى اليمن ، ونتيجة للريبة الطبيعية التى يكنها للاجانب وبضائعهم ، بعد ان اقتنع من خلال تجربته مع الايطاليين ، فانهم مستعدون لخداعه فى كل خطوة وتوزيع كل بضاعة رديئة بمبالغ ضخمة ، وهكذا حلفت طائرة واحدة لبعض الوقت ، من اربع طائرات ارسلها الايطاليون ، اما بقية الطائرات فلم يكن بالمقدور حتى تشغيلها فقط ، كما ارسل الايطاليون بنادق من عهد الحرب الايطالية - الحبشية ، مقابل سعر باهظ ، وباعوا عليه سيارات قديمة غير صالحة ... الخ . الى درجة اصبحت كلمة " بضاعة ايطالية " تعنى فى اليمن كل ما هو رديء ، وصارت كلمة " ايطالي " ترادف كلمة " المانى " عندنا فى الماضى لكل " اجنبى " وبالقدر الذى يبرز فيه شعور حذر من عدم الثقة بكل ما هو مستورد من الخارج ، فقد وجد تفسيره بـ " البخل " المزعوم للامام (الذى دفع مبالغ ضخمة على استيراد بضائع غير صالحة) ، وفى الحذر الشديد اثناء دفعة للتقود ، واضعا شرط مسبق هو ان تشغل السيارة المشتراة امامه .

وما دمتنا قد توقفنا عند الامام ، فلنقتل بضعة كلمات عن ابنائه ، لقد قابلنا الامير محمد فى الحديدية وهو الابن الثانى للامام ، ويصفه الوجهاء مع مسحة من السخرية بانه فيلسوف وشاعر وحالم ، يعيش وحيدا ، خلاف غيره من الوجهاء ، الذين يتزوجون حريما كثار ، يكتب الشعر ، ويقرأ الصحف المصرية بمثابرة ، هل ياترى اثر عليه تواجده فى اوربا (لفترة قصيرة اثناء سفره مع القاضى راغب الى ايطاليا بعد توقيع الاتفاقية) ام سعة اطلاعه ، هى التى اعطته مظهرا تقدميا ، لا يخشى من ان يعرض نفسه للتصوير ، والصعود على الطائرة ، فضلا عن سفراته الكثيرة بالسيارة ، كما ان تواجده فى الحديدية ، واتصاله المستمر بالوسط التجارى الكميرانورى ، قد جعل منه حسب رأى الاجانب ، مهادنا بالنسبة لنفسه ومشاعر هذا الوسط ، كما ان لين طباعه وسرعة تصديقه كثيرا ما يكون السبب فى ان يجتمع حوله الكثير من المقامرين ، الذين لا يستطيع التجرد على رفضهم باستمرار .

الوزير الاول

ونقيضه اخوه الاكبر العهد احمد ، الذى يحمل لقب سيف الاسلام ، انه جبار ومقاتل شرس ، ينشر الخوف والذعر بين كل مرؤوسيه ، لقد وصفوه بانه يحتفظ عادة ودائما بثعبان وفهد الى جانبه وبهذه الطريقة يجعل الوجهاء الذين يصلون اليه يرتعدون ذعرا وحين ياتى الى صنعاء من الجبهة بين حين واخر يحيط به محاربون وقحاء ، ويرتبط وصوله بالذعر العام ، كما يقال ، انه حتى الامام يتغير صوته كثيرا حين يتحدث مع ابنه ويخاطبه بلهجة بعيدة عن الترفع .

ولكى ينتهى عرضنا للبيت الحاكم لليمن يبقى ان نضيف انه الى جانب احمد ومحمد يوجد سبعة او ثمانية اولاد للامام فى عمدة الطفولة والفتوة ، لا يتربون على نمط اقطاعى خاص يدرسون اللغات الاجنبية وبعضهم يقود الدراجة البخارية ، والبعض الاخر الدراجة الهوائية ، والتحديث يكشف عن نفسه .

وعلى العموم فان حياة الامام الاسرية تسير فى وضع محكم الاغلاق ، اذكر انه فى احد الايام ابلغنا غير رسميا عن وفاة إحدى زوجات الامام (زوجاته اربع) ، وحدثونا فى نفس الوقت من التحدث بهذا الشكل او ذاك عن هذا الموضوع عند لقائنا بالامام ، وذلك لان الوفاة ، والولادة او الزفاف فى القصر هى مسائل حياتية داخلية خاصة جدا ، وتعرف الاجانب عليها محرم .

لقد تحدثنا سابقا عن الطبيعة الاجتماعية للفئة الحاكمة لليمنى فهي تعتمد على الجيش والاقطاعيين الذين ينمون بأشكال رأسمالية ، وتتحالف مع البرجوازية التجارية الداخلية وحتى مع الاوساط الميسورة فى الارياف ، والقوة التى تعارضها هى فئة الارستقراطية الاكلييريكية (المغلقة الدماغ) وزعماء القبائل الذين لا يحبون الخضوع للسلطة المركزية ، ان الصراع مع الزعماء القبائل العصاة يشكل جزءا رئيسيا من السياسة الداخلية لليمن ، ويعتبر القسم الجبلى من اليمن مرتبط بالدولة بقوة على وجه العموم ، وسواء شاء مشايخه ام ابوا فانهم خاضعون كليا للسلطة المركزية ، والعلامة الخارجية هى انتماء كل مشايخ القسم الجبلى لمذهب الزيدية ، وعلى عكس ذلك مشايخ وقبائل تهامة وما وراء الجبال فان اغليبيتهم ينتمون الى مذهب ، ولا يميلون ابدا للاعتراف الكامل وبشكل مطلق بنفوذ الامام الدينى والحكومى ، والذي يلعب الدور الرئيسى فى هذا التناقض ليس الدين بالطبع وانما الاقتصاد ، فقبائل تهامة وما وراء الجبال يقعون فى درجة لى من التطور ، ما زال اقتصادهم يحتفظ بالنمط الرعوى فى تهامة ، وحياة البداوة فيما وراء الجبال ؛ وبعد ان تعهوا على العيش على اساس وحدة اقتصادية مغلقة ، فانهم لا يميلون الى الرضوخ لجهان الدولة فيقاومون محاولات السلطة المركزية التى تحملهم اثقال الضرائب وفرض الخدمة العسكرية .

ويستغل تدمرهم من السلطة المركزية بمهارة من قبل الامبرياليين الاجانب الذين يقومون بدعاية حاذقة بين القبائل ، وفى اللحظة المناسبة يمدونهم بالنفوذ وحتى بالسلاح يدفونهم للنضال ضد السلطة المركزيه ، واكثر القبائل عنادا فى صراعها ضد الامام هى قبائل حاشد والزرائق ؛ تسكن حاشد فى شمال اليمن ، على الحدود مع الحجاز ، وتعيش قبائل الزرائق فى منطقة جنوب تهامة ، وهى منذ عهد قديم ، من عهد الاتراك مشهورة بالاصرار والعناد ضد كل محاولات التغلغل الخارجى سواء التركى او اليمنى فيما بعد .

ونقدم كلمة لحد الاصدقاء العرب ، الذين وصف لنا طباع هذه القبيلة وصراعها ضد الامام بهذه العبارات :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الزرائق هم عرب ، لكن بينهم قبائل حبشية وسودانية الاصل يعيشون على الساحل والى الشرق منه ، وموائئهم هى (الجوى) وعليفة ، وعين الدى والطائف وعاصمتهم بيت الفقيه ، بينهم تسعة آلاف من المسلحين الشجعان ، لكنهم يشكلون مع زوجاتهم واطفالهم وشيوخهم ما يقارب ثلاثين الف ، وقراهم تقارب الثمانين قرية ، فى ارضهم احراش يختبئون فيها اوقات الخطر ، وينمو فى ارضهم السمسم ، البطيخ الاحمر ، الفول ، الذرة ،

وميناء الطائف من بين موانئهم الصغيرة ، انه قرية للصيادين ، وفي اثناء الحرب مع ايطاليا (عام ١٩١٢) قام بالتجارة الرئيسية مع الخارج بدلا من الحديد ، ويفضل هذا اثرى احد الصيادين الفقراء واسمه احمد الفتني واصبح اكبر تاجر في الزرائيق . لقد قام بتنظيم توصيل البضاعة الى الحديد والى اعماق البلاد ، واخذ مقابل ذلك قسما من الارياح ، كما اقام ملاقات مع عن ومصوع .

" والزرانيق لا يتزوجون قبل ان يبلغوا الثلاثين من العمر ، وعندما يتزوجون لا ينامون مع زوجاتهم أكثر من مرة واحدة في الشهر ، يحبون اللبن والعسل بلا حدود ، جميعهم اغبياء لكنهم شجعان في المعركة . "

عندما وصل الاتراك الى اليمن قبل ثمانين عاما ، رفض الزرائيق الخضوع لهم ، لم يدفعوا الاتارات ، وفي عهد السلطان عبد العزيز جرت بينهم وبين الاتراك معارك كبيرة ، ثم خضع الزرائيق واجبروا على دفع ضريبة للحكومة التركية تقدر باثنين بالمائة من مجمل البضاعة المستوردة ، وثلاثة قروش على كل جمل يصل الى منطقتهم او يخرج منها ، وفي عام ١٣٠٤ هـ حدثت حرب بين الزرائيق وقبيلة فعار ، وكان الاخيرين قليلى العدد لكنهم اقوياء ، صلى شيخهم احمد مسكين يرجو من الله العون لبي الله طلبة فاصابت الكوليرا الزرائيق وتوفى عدد كبير منهم .

الزرانيق المتمردة

" وفي عام ١٣٠٩ هـ عين الترك فوزى باشا الذي وصل من سوريا قائمقام على الحديد ، وكان هذا الشخص نبيلاً ونزيهاً ، احبه كل اليمنيين بما فيهم الزرائيق ، ومع ذلك رفضت قبيلتها المجاملة والموازعة الخضوع للحكومة ، وحينئذ وصلت قوات تركية بقيادة الشركسى احمد بيه الى بيت الفقيه وهجمت ليلا على قريتهم ، واسر جميع مشائخهم واجبرهم على الاعتراف بسلمته او قتلهم ، وهكذا كان الزرائيق مجبرين على الخضوع ، وتوفى احمد بيه سريعا بعد ان شرب عن طريق الخطأ شرابا روجيا من عصير التمر ، فرح جميع الزرائيق ، وبعد ان اقاموا احتفالا بانحنا رفضوا الخضوع للسلطات التركية مرة اخرى . "

" لكن سعدى بيه الذي خلف احمد بيه يدخل مع الزرائيق في معركة جديدة فيجبرهم على الخضوع وحينها تفرقوا في كل الطرق الكبيرة وبدلوا بنهب وقتل المسافرين او احبار التجار

على دفع اتاوة على كل جمل مقدارها بضعة ريالاً ، وعندما ارسل سكان بلدة زييد (بيدو)
انهم من التجار) برقية الى عظمة السلطان يرجون منه كبح وقمع هؤلاء المتوحشين ، فاصدر
امرا لقائمقام الحديدية وقام الاخير بتكليف يوسف بيه وآخرين بهذه المهمة ، وبعد شهرين من
القتال انهزم الزرائيق واخذ المشايخ اسرى ، وحينها وصل رئيس مدينة الحديدية احمد شيراي
باشا الى الزرائيق ، واطلق سراح الاسرى واصبح يدفع راتبا لكل شيخ من اجل عدم قطع
الطريق .

لقد كان تضال الزرائيق ضد الاتراك متميز لانه يعكس عملية التضال ضد العسف
العثماني ، وهو التضال الذي خاضته القبائل الزيدية بقيادة الامام ايضا .

وقد انعكست في هذا الصراع اساليب الشراء والاستمالة تلك التي مارسها الباشوات
الاتراك ، بهدف تأمين انفسهم بواسطة معاضدة المشايخ المحليين والتجار في التضال ضد
السكان العصاة .

محتغيو اليمن

سرد محدثنا طويلا تلك المعارك التي خاضها الزرائيق ضد الاتراك ، ثم ضد الانجليز بعد
الحرب العالمية ضد الادريس حين احتل الحديدية ، والان يستخدم هؤلاء الفوضيون " من قبل
الانجليز في الصراع ضد الامام بطريقتهم الخاصة ، يناضل الزرائيق بانتظام وعناد ضد كل
محاولات التغلغل في اراضيهم من اي قوى غربية عنهم ، ولا يستثنون في ذلك حتى حكام
بلادهم من اليمنيين ، والسبب في ذلك ليس النوافع الاقتصادية المشار اليها فقط بل ويسبب
المغالاة والتطرف الفريد الذي استخدمه الجيش والادارة اليمنية في الصراع ضد الزرائيق ،
حيث ان دعاة المركزية الاقطاعيين ، الخشنيين عديموا التجربة في صنعاء كانوا يرسلون الى
منطقة القبائل العاصية والمتردة البلاد والعساكر الغلاظ الذين لا يملكون لغة الحديث مع
مرؤوسيه في احيان كثيرة ، بلغة اخرى ، كانت لغة القتل ونظام الرهائن ونتيجة لهذا فقد
استمر الصراع طوال عامي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ بين الامام والزرائيق ، ولا تعرف هل انتهى ذلك
الصراع الان ام لا .

غير ان الصراع مع الزرائيق ليس سوى اكثر الظواهر بروزا في عملية التضال من اجل
توحيد القبائل اليمنية في جسم دولة قوى ، تخوض سلطة صنعاء هذا التضال في ظل العمل

المضاد من قبيل الإمبريالية وصلاتها ، يموت الانجليز والايطاليون الزرانيق بالسلاح على التوالي عبر موانئ بحرية صغيرة ، كى يكون من السهل على اولئك تهديد الامام ، حتى ينتزعون منه هذه التنازلات او تلك ، وعلى وجه العموم فان عملية التوحيد هذه لا تزال بعيدة عن نهايتها ، حيث ان مجموعة من القبائل وخصوصا الواقعة الى الشرق من صنعاء ، وما وراء الجبال ما تزال غير خاضعة لتفوذ السلطة المركزية ، والصراع ما زال قائما .

الباب الرابع عشر

* فن ايام الغارات الانجليزية

* العملاء

* اضرب واهرب

* ثلاث صيغ

فى ايام الغارات الانجليزية

تبدو صنعاء وكائنها قد اقفزت ، البيوت الخائفة فارغة ، همد السوق وانكمش ، المدارس والاماكن الفاصدة بالناس مغلقة ، المعسكرات الحربية خارج اسوار المدينة منتعشة لوحدتها فقط ، وفيها تنفث دخان مدخنة مصنع الاسلحة الصغيرة محمومة ، يسمع صليل المعادن ، والمجموعات العسكرية تسير بلون توقف على السهل بالقرب من اسوار المدينة ، تلوح المدافع والرشاشات ، كما اقيمت مراكز مراقبة على الجبال المحيطة ، نقلت كل الممتلكات الحكومية من المدينة او مخبأة فى جبل نغم ، حتى الطائرة الوحيدة الصالحة للاستعمال ، والتي يقوم بخدمتها ثلاثة من المدربين الالمان ، امر الامام بتفكيكها واخفائها خصيصا لهذا الغرض .

المدينة تنتظر الغارات الانجليزية ، وانتظارها ليس عبثا ، فالطائرات الانجليزية قد اغارت على المدن الحدودية مثل الضالع ، قعطبة ، ذمار ، يريم تعز ، وصف آخر من القرى والاماكن قد جرب ماذا تعنى منجزات " الحضارة " ، الاخبار عن الغارات القارات التي بدأت تصل الينا في البداية على شكل اشاعات من الأسواق قد حدثتنا بها شخصية رسمية فيما بعد ، تبدأ الطائرات تضرب المناطق الحدودية " المتنازع عليها " ، ثم تضرب العمق فيما بعد ، فتصل الى الاماكن الواقعة على منتصف الطريق بين عدن - صنعاء ، يجرى اللعب باعصاب شيقى التفكير والفئة الحاكمة فى اليمن .

وصنعاء حابسة نفسها تنتظر الغارات ، الصباح فى صنعاء واضح وهادئ ، لا ريب ولا سحب فى السماء الزرقاء غير المتناهية ، فى هذه الساعات من الفجر تنطلق الطيور الفولانية الكاسرة من عدن ، تحلق فوق صف من القرى والمدن ، لا تبعد عن المدن المحصنة ابدا او عن التجمعات العسكرية ، لا يتورعون عن رمى القنابل على القرى الامنة ، يهبطون حتى التلامس فوق الريفيين الهاربين فى دعر ، واكثر القتلى من النساء والشيوخ والاطفال ، يستمر هذا الاصطياذ الدنى حتى الساعة العاشرة ، ومن هذه الساعة يبدأ الطقس يسوء فى الجبال وتهب الرياح تدفع السحب فى زرقة السماء الملساء ، وتهب اعاصير حقيقية ويتساقط المطر احيانا ، كان الطقس يحمى البلاد ، العاجزة ، ثم تعود الطائرات الى اماكنها تحت حماية طوابى عدن ، ويتنفس السكان الصعداء ، ينتظرون بهلع فجر اخر .

موجة التوتر العامه تلفنا نحن ايضا ، نحن كذلك نخرج فى اوقات الصباح الى السطح المستوى ، نوجه المنظار الى الافق البعيد ، حيث تمتد الطريق الى عدن غير الودية ، مختفية

وراء كتلتين ضخمتين من الجبال ، نرفض الاقتراح المعروض علينا بالانتقال الى الاماكن الامنة خارج المدينة ، ننتظر بفارغ الصبر نهاية الموقف المتوتر ، نشعر كما لو اننا نشارك في الاحداث الجارية مباشرة .

نسأل انفسنا ماذا سنفعل عندما تبدأ الطائرات بالقصف ؟ هل سنذهب الى اقبية المبنى ام سنبقى في السقف نوجه منظارنا الى اعلى ؟ او الافضل لنا ان نخرج الى الحديقة ، لكي لا نقتل عبثا تحت انقاض البيت المنهار ؟ اين سنذهب فيما اذا سقطت صنعاء والحديدة وتحتم على الامام التراجع امام ضغط القبائل الممولة من الاعداء ؟ اذهب الى الشرق ، نسير عبر صحارى الريع الخالي المجهولة باتجاه شواطئ الخليج الفارسي ، ام نخطو مئات الكيلو مترات الى الشمال في طريق الحجاج الى الحجاز ؟ لا نعرف ، بل ولا نؤمن التفكير في هذا الموضوع بشكل خاص ، تبدأ العصبية الشرقية تتغلغل في مسام تفكيرنا ، وفي نشوة تاملية ننصت لخشخشة آلة الزمن ، التي كأنها قد تحركت من محطة القرون وانطلقت الى الامام .

الاشاعات زاحفة ، تسبق الاحداث ، وتتناقض مع مجرياتها مباشرة احيانا ، لا تعكس هذه الاشاعات ما هو موجود فقط ، بل وما كان مفترضا ان يحدث حسب تخطيط العدنيين المهمين .

تصبح انتفاضة قبائل حاشد في الشمال والزرانيق في الجنوب الغربي معروفة ، يتحدثون عن قصف البواخر الانجليزية للحديدة يخبروننا في نفس الوقت بان هناك اشاعة منتشرة وكأنه قد حصل قصف الطيران على صنعاء وعن تدمير القصر الملكي وهروب الامام ، وفي هذه الاثناء كنا ان نقع ضحايا استفزاز ماهر ، ظل مصدره الحقيقي غير معروف لنا ، والقصة هي بالشكل التالي .

العملاء

ان احد تجار صنعاء ، الذي تصله قرابة مع احد الموظفين البارزين بالحديدة ، وكان قد تعرف علينا حسب توصية الاخير هذا ، وزارنا اكثر من مرة ، ناقلا وسط الاحاديث العملية عن بيع البن وشراء الكروسين اشاعات السوق المتسمة بالترزوير السيء المشبوه .

بدا لنا ان رده على اعقابه امر غير لائق ، وعلى كل حال هو قريب احد اصديقاتنا ذوي النفوذ في الحديدة ، صبرنا على زيارته الي حين ، غير انه عزم رفيقنا في احدى المرات ، وقد

كان أكثر الحديث مع هذا التاجر حول السفر الى الحديدية ، ربما ان شخصيته هذه لم توحى لنا بأثقة اطلاقا ، شعزنا بنوع ما من اعمال السوء (فالرسالة يمكن ارسالها عبر البريد بسهولة) ، قام رفيقنا بفتح الرسالة ، لكي يقرأ رسالة ذلك التاجر المحترم ، يتضح انها مكتوبة بشكل ورقة صغيرة مسجولة او مقسمة الى قسمين ، في قسم منها تعداد كل " المعلومات " الممكنة عن الوضع في الجبهات ، في العاصمة وفي كل اليلاد ، وافقت هذه المعلومات الواقع جزئيا ، وان كانت قد حملت صفة سيئة القصد بشكل واضح لليمن ، فهي تخبر عن غارات الانجليز على عدد من المدن ، وعن انتفاضة قبائل حاشد ، وعن هروب اليسوريين من صنعاء ... الخ ، وكان جزءا من هذه المعلومات مخترع وقد صيغ بطريقة مثيرة للفرع بوضوح ، فقد اب لغت الرسالة عن قصف الطائرات الانجليزية لصنعاء (حيث لم يصل طيران العدو اليها حتى الان) وعن تدمير قصر الامام ، والهجوم الذي بدأته القوات الانجليزية ... الخ . كانت ورقة الرسالة مسطرة بحيث كانت في الجهة المقابلة للمعلومات ذات صيغة تقل او تكثر عن شبه الحقيقة " اسعار السكر (او الدقيق ، البن وغيره) منخفضة " ومقابل المعلومات الواضحة الهراء والكذب يكتب : " اسعار " (بضاعة ما) مرتفعة ايضا " ، هكذا تم تنظيم نقل الاشاعات المذمومة ، التي انتشرت في كل اليلاد ، الهادفة الى تقويض سلطة الامام ، واثارة الانتفاضة ضده ، والتي كان يتبناها من يحلم بمجىء فئة مقبولة للانجليز الى السلطة .

كان واضحا ان اليمنيين الذين يوالون الانجليز الى استخدامنا لكم واحه للاشاعات الكاذبة ، ربهذا يجرونا الى لعبتهم ، كان يمكن ان يكون هذا نصف المصيبة ، لكن كل الوضع الذي دبره اصحاب هذا التدبير ، ولعدة اعتبارات لا تستحق الذكر ، فرض علينا الشك بان مديري الدسائس ينوون فيما بعد فضحنا اما اعين الحكومة اليمنية ، يخبرونها بهذه الطريقة او تلك بواقعة نقل " الرسالة " الاستفزازية من قبلنا بالذات ، وفتت امامنا مهمة كيفية التخلص من هذا الوضع وقمنا فيه ، من الواضح ان ارسال الرسالة الى الجهات المعنية امر لن يكون ، وبالطبع كان المخرج البسيط هو توصيل الرسالة الي اى السلطات ، وبهذا نؤكد " ولائنا " . لكن هذا يعنى عدم الثقة من قبل من اعطانا الرسالة (رغم انه عمل ذلك لاسباب استفزازية وعدم الثقة في الشرق امر لا يفتقر حتى من كان لصالحه ذلك ، ولهذا قررنا ان نبقى اماناء في موقف عدم التدخل في الوضع العقد للعلاقات الداخلية اليمنية ، وبعد عودة الرفيق اعدنا الرسالة للتاجر مع الاعتذار عن عدم قدرتنا على توصيلها الى الحديدية وذلك " لاسباب خارجة عن ارادتنا "

لو كنا اوصلنا الرسالة الي المرسل له ، فانه يمكن ان يكون الاحتمال بتطور مجرى الاحداث اللاحق وفي افضل الحالات ، لو كان " صديقنا " في الحديد والتاجر في صنعاء عميلين نشيطين للانجليز وعميون للامام ، فسنكون قد نفذنا دورا منحطا كأعوان في نشر الدعاية الانجليزية ، وقد يظهر " الصديق مستلم الرسالة لكل من هب ودب ، كإثبات موثوق به عن صحة اشاعات الذعر المنتشرة ، وتلك الواقعة ، بان الرسالة حملها رفيقنا ، كانت ستستخدم كتأكيد اضافي على صحة معلومات الرسالة ، ولكننا قد نفذنا عملا مخزيا ومنحطا .

لكن كان هناك احتمال اكثر رعبا ايضا ، حيث يمكن ان يكون هذا التدبير مدبر من قبل رؤساء البوليس اليمنى الفيوريين ، الذين يبحثون عن براهين " لعدم ولائنا " للامام ، ولهذا فقد اقدموا على هذا العمل الاستفزازي ، " اذ بعد ان يستلم الصديق " في الحديد هذه الرسالة ، بمقدوره ابلاغ الحكومة بسرعة ، بانه اكتشف تعاوننا نشطا " للباشفة " مع الانجليز في قضية نشر الاشاعات الكاذبة ، وثبت الافتراء الايطالي (بان الباشفة يتعاونون مع الانجليز ، ذلك الافتراء الذي تحدثنا عنه سابقاً ، وبهذه الطريقة يكون التأكيد امام عينى الامام نفسه ، وكان هذا أسوأ من تجارة خاسرة أو فشل دبلوماسي . . .

لكن الامور بخاتمها ، وهكذا لم نعرف ، هل أصبح معروفا للحكومة اليمنية هذا الحادث الصغير ، وفي كل الحالات ، لم ننتاهي " بولائنا " والان لا ننتاهي ايضا ، لقد سردنا هذا المقطع كصورة واحدة فقط وكلفم من الغم كثيرة اعداؤنا المتعددين الاشكال نثرها في كل خطوة امامنا .

يمر اسبوعان او ثلاثة متوترة .

يبدأ اثر الغارات يضعف ويزول بالتدريج ، نعرف ان بضعة طائرات انجليزية تحطمت فوق الاراضي اليمنية ، ولا نعلم هل كان ذلك نتيجة لرصاص البنادق التي اطلقها العدو ، او للمطبات الجوية في الهواء الجبلي لليمن الذي لم يكن مدروسا من قبل الطيارين الانجليز .

وشيناً قشينا تتعزز الثقة، بانالعدوان يغامر بالطيران على صنعاء .

وبعد ذكريات الماضي نستخلص النتائج .

في زمن الحرب العالمية ، في صيف ١١٥ ، حين كانت اليمن شكليا ضمن الامبراطورية العثمانية (اما من الناحية العملية فلم يجد الاتراك مستندا او مرتكزا لهم في اليمن اطلاقا ، وقد احتفظوا فقط بمدينتين او ثلاث مدن ، قام الاسطول الانجليزي بقصف الحديدية .

امتدت هذه المدينة الساحلية ، التي ازدهرت بتجاريتها ، تحت ضربات قذائف الاسطول الحربي ، وتناثرت البيوت ، وهرب السكان العزل مجاميعاً الى سهول تهامة الحارة ، احترق السوق واشتعلت المخازن التجارية ، رغت الجمال بجنون ونهقت الحمير بطريقة انسانية مرعوية ، وسقط مئات القتلى بينهم الشيوخ والنساء ولأطفال ومات الهاريون بدون طعام ولا ماء في قبظ الصحراء .

لقد كان سخفا حتى من وجهة نظر المصالح العسكرية الضيقة لبريطانيا ، حيث لم يكن في الحديدية لا تحصينات ولا مخازن عسكرية ، وانما كانت هناك تجارة عربية وصناعية آمنة ، اينما يكتظ الحرفيون ، والصناع اليدويون ، العتالون ، سائقو الجمال والحمير في عشش معتمة . والباشون يتسكحون في السوق .

في ذلك الوقت ، كما هي الحال الان لم يخوضوا حرباً ضد الانجليز ، لقد اعد اولئك السكان في اماكن اخرى انتفاضة ضد الاتراك ، ولهذا فان تدمير مدينة امته لم يجد اى مبرر له من اى وجهة نظر كانت .

لا تزال الهياكل المحطمة من بيوت الحديدية حتى الان ، لقد تفجر كل السخط على الانجليز في عموم البلاد ، ووجدوا صداه في الخارج ، ودفع كل السكان الى تأييد الاتراك وقتل الالاف من الاسرى الانجليز ، وخلقت حالة استطاع الاتراك في ظلمها ان يوجنوا لهم مكانة في مساعدة اليمنيين وذلك بالوقوف تحت اسوار عدن حتى نهاية الحرب ، يشاغلون بذلك عشرات الالوف من القوات الانجليزية ، وذكرى هذا القصف البشع لم تمحى من ذاكرة السكان حتى لان .

لم تكن هناك ضرورة استراتيجية للقصف ، وكان عملاً سخيفاً سياسياً ، وقاسياً بشكل غير انساني ، لكنها كانت تلك الحرب التي قتل فيها في شمال العالم عشرات الملايين من الناس .

غير ان الحرب قد هدأت الان ، ولاح حلول السلم ، على انقراض الامبراطورية العثمانية ، واصبح اليمن مستقلاً ، وبدأ الحفر بالمخافر تطرق في الطرق في الجبال ، وبدأت البواخر تنفت دخانها في الميناء ، وبنى صفير السيارة الوحيدة في الصحارى والجبال ، بدأت الاعمال في حقل الزراعة والصناعات اليدوية الصغيرة والمواصلات ، وبدأت تتشكل شبه دولة في البحر الهائج من القبائل المتاحرة .

وها هي الآن ، وبينما تتبطن أوروبا بالهراء حول نزع السلاح والسلام الأبدي وما شابه ذلك ، تمتلئ هضاب اليمن بدوى انفجارات القنابل من جديد تشتعل القرى ، وتتهدم جدران البيوت ، ومن جديد تسيل دماء العشرات والمئات من السكان المسالمين من الشيوخ والنساء والأطفال .

والمميز انه هذه المرة لم يأت العدو من البحر ، حيث لم يرغب بعرض شناعته بشكل واضح امام العالم الخارجي ، واذا قدم من اليابسة فقوته لا تكفى ، لهذا فضل التحليق فى السماء ورمى الاف القنابل على مدن وقرى اليمن الآمنة .

اما سبب الغارات ؟ فقد اشرنا اليها ، نزاع حول بعض المناطق الحدودية ، التي يعتبرها الانجليز منطقة نفوذهم اليمنيين بالخروج منها ، وبدلا من المحادثات لجأ الانجليز الى اسلوب أكثر بساطة - الى القنابل .

هل كانت صدفة ام لا ، ان يكون النصف من القنابل المرمية لم يتفجر ، وبعضها تفجر بعد وقت بعيد اثناء التعامل غير الحذر معها ، ظل غير واضح لماذا رمت الانجليز بقنابل فاسدة ، ألم يكن هذا رمز لفشل القصف ، مثلما كانت محاولات الانجليز فاشلة ايضا في اقامة انتفاضة داخلية ضد السلطة المركزية عن طريق شراء القبائل فى نفس الوقت ، وعد الكثير من زعماء القبائل بمناصرة الانجليز ، واستلموا منهم نقودا ، لكنهم اشعروا الامام بذلك وبعثوا له بقسم من تلك النقود فى نفس الوقت ، وقد اتضح ان قذائف الذهب التي سقطت على التربة اليمنية هي اقل فعالية من القذائف المعبأة بالبارود ، لقد صمد اليمنيون

افصح العقيد جيكوب فى احد كتبه عن التكتيك الانجليز فى المستعمرات ووضحه بحكمة هندية معناها بالشكل التالى -

اضرب اولاً ثم اهرب .

وكان خطة المغامرين الانجليز هذه المرة ، كما اتضح من مجرى الاحداث بالشكل التالى :
رفعوا فى البداية عدة مطالب الى الحكومة المركزية فى اليمن ، وباغتوها ، بالمذكرات ، والتهديدات والنصائح ، ثم القاء القنابل على المدن والقرى الآمنة ، وخلق حالة من الذعر ، وايقاف التجارة والمواصلات وبشل الحياة الاقتصادية فى البلاد ، وبواسطة التحريض النشط ، المعزز بالهبات المالية ، و " التأثير المعنوى " علي المشايخ ، يثيرون انتفاضة القبائل سواء فى تهامة او فى شمال الشرق من القسم ما وراء الجبال المحاذى للصحراء ، واذا لم تؤدي هذه

الانتفاضة الى تغير حاسم ، فان هذا العمل يمكن ان يقود اليمينيين الى الاستتارة والقيام بصدام مسلح الي حد ان يقوم اليمينيون بالهجوم على عدن ، وهناك يلحق الانجليز هزيمة بهم ، وبهذا يعجلوا في اسقاط تهامة ويعزلوا القسم الجبلي من اليمن عن البحر ثم يعطوا فيما بعد تهامة للادريس حاكم امارة عسير المجاورة الضعيفة والراقصة تحت الزمار الانجليزى ، او تصيب واحد من اتباعهم على تهامة .

كانت الخطة مدروسة بتفصيل بالغ ، وقد بدأت وكأنها غير سيئة التخطيط ، لكنه يجب علينا ان نتذكر المثل القديم القائل اينما يكون الضعف يكمن الفشل وفشلوا ...

وبعد بضع الوقت بدأ كما لو أن الحكومة اليمنية تتأرجح ، كانت تسرب اشاعات عن استعدادها للاستسلام احيانا ، وبالعكس ، عن بدء الحملة اليمنية على عدن واحتلال لمحج الواقعة في منطقة الانجليز غير المتنازع عليها احيانا اخرى .

ثلاث صيغ

كل هذه او تلك كانت اشاعات فقط ، انعكست فيها وجهات النظر المختلفة ، التي تصارعت فيما بينها هذه الايام ، وكانت وجهات النظر هذه (ثلاث تؤدي الى الاتى بشكل رئيسى - واحده من وجهات النظر هذه تقف الى جانب تلبية مطالب الانجليز في كل نقاطها الرئيسية) اخلاء المناطق المتنازع عليها ، الاعتراف بعدن للانجليز الى الابد ، وليس على المبادئ المتفق عليها ، كما كانت في ايام الاتراك ... الخ ، لم تكن هذه الخطة الاستسلامية بوضوح منتشرة ، وقد دافع عنها بعض المشائخ والوجهاء المغضوب عليهم فقط ، وقد اشتربشوا بالقسم الاكثر جينا من التجار الكمبرانوريين .

اما وجهة النظر الثانية فقد اضرمت المشاعر المضادة للانجليز ، وقد اصرت على ان يعلن الامام الحرب المقدسة على انجلترا وتحريك القوات على عدن ، وقد بدأ كما لو ان هذه هي النفسية السائدة في الفترة الاولى ، ومن هنا انتشرت اشاعة عن احتلال لمحج .

وليس من الصعب ملاحظة عدم ثبات ومغامرة هذا الخط رغم كل صلابته الخارجية المنمقة ، لقد كان واضحا انه رغم كل انضباط ، وتمرن ، وقنوع المقاتلين اليمينيين ، لكنهم مع ذلك ليسوا اقوياء بما فيه الكفاية لغزو منطقة عدن المحصنة حسب كل قواعد التقنية الحديثة ،

ان الاستعداد الدائم للموت ، والقدرة على اصابة الهدف بدقة من مسافة بعيدة (يتقن القبلى استخدام البندقية منذ الطفولة) ، وعنده مقدرة على الاكتفاء بحفنة من القمح ورغيف من الذرة للغذاء - كل هذا الى جانب المستوى الرفيع من التنظيم الحربي والطبيعة الجبلية للمنطقة تجعل اليمنى بالغ الصلابة فى القتال الدفاعى .

ولهذا فان غزو اليمن اذا تجرأ الانجليز على ذلك ، سوف يكلفهم ثمنا باهظا جدا ، ولتحولت البلاد الى مرجل يفلئ ، لكنه من الواضح جدا ان القوات اليمنية الضعيفة تكنيكيا لا تستطيع فى تلك الوضعية اخذ عين بعد اصطدامهم بالانجليز على انفراد .

ظل موقف الحكومة غامضا على امتداد بضعة ايام ، وكانت تصل افواج جديدة من القبائل الى صنعاء يوميا لتعزيز وحدات الجيش النظامى ، كان التدريب العسكرى يجرى ليل نهار ، وكانت اصوات الابواق العسكرية تشق عنان السماء فى عتمة الليل اكثر من مرة ، تستنهض القوات للمناورة .

كان حساب الاعداء بسيطا ، وبدا كما لو انه صائب ، فلو اقدم الامام على التنازلات ، ستزول هيئته الى غير رجعة ، وكذلك السلطة معه ، واذا قرر الحرب ويعدت بالقوات الى عدن قاته سيسقط نتيجة للانهييار العسكرى ، وفى كلا الحالتين سيربيح العدو الخارجى الماكر وانصاره فى داخل البلاد .

استمرت جلسات الامام مع الشخصيات الاكثر نفوذا ومع ممثلى القبائل بضعة ايام ، ونتيجة لذلك تكونت صيغة فريدة للعمل تقول :

- لا تنازل لانجلترا ، ولا تنازل عن مطالبنا ، ويقدر الامكان عدم الانجرار للاستقراز فى نفس الوقت ، لا دخول فى المعركة ، ولا ذهاب الى عدن .

بدأت هذه الصيغة فى المناطق الجبلية العصية اكثر مناسبة لشاعر البلاد ، فى واقع اليمن الاقطاعى لم تهتز اعصاب اليمينيين تحت عناقيد القنابل الانجليزية ، وانتصرت اليمن فى صراع الاعصاب هذا ، فهم الانجليز ، بان تقجير الوضع الداخلى فى اليمن لن يتأتى لهم . كما فهموا بان انفجارات قنابل الطيران لن تحل القضية ، فهدأوا ، تاركين الطيور الغولانية الجارحة فى اعشاش عدن .

الباب الخامس عشر .

- * محاولة فاشلة للاستغزاز الدبلوماسي
- * الامام يستغيث
- * النذور والرشوات
- * انهيار الحسابات الانجليزية والصفحة الامريكية .

محاولة فاشلة للاستغفار الدبلوماسي

جرى حدث بارز آخر في هذه الايام، فقد وصل من امانة عسير الى صنعاء شخص اسمه جمال، ويحمل لقب باشا، وقد حصل على هذا من قبل ابن مسعود ملك نجد، وقد كان جمال هذا ضابطا تركيا سابقا، وخدم اثناء الحرب العالمية عند أنور، وقد شغل منصب " وزير حرب " ابن سعود ، وشارك في الحملة على جدة والاستيلاء عليها ، وجمال هذا هو واحد من صنف اولئك الاتراك مثل القاضي راغب ، انقطع عن اصله التركي، ورمى بنفسه في البحر الهائج للنزاعات العربية الداخلية ، لكن الفرق بين الاثنين ان القاضي راغب رابط الجأش وناضج سياسيا ، في حين ان جمال طائش، متقلب ، يشبه مغامر لا مبدأ له ، مستعد في أي لحظة للركض هناك حيث يجد القائدة أكبر، في زمن الحرب بين نجد والحجاز قام بمساعدة ملك نجد ونال لقب باشا، من هنا كانت الكنية اللادعة " الباشا ابن السعودي " التي الصقها اليمينيون به، ومع ذلك اختلف بسرعة مع ابن سعود ، وانتقل الى خدمة الادريس، وهناك عزز نفسه عن طريق زواج مريخ ، وقد اعتبر نفسه ملك او حاكم هذه الامارة تقريبا ، رجل في منتصف العمر، متبجح ، كثير الكلام ، مغرور، وصل فجأة الى صنعاء في هذه الايام المضطربة.

لماذا ؟

يرد الجواب نفسه، ففسير تقع تحت حماية نجد والحجاز ممثلة بشخص ملكها ابن سعود. وهذه الامارة تحاذي اليمن في نفس الوقت، وسكانها من القبائل اليمينية، واقتصادها يميل الى اقتصاد يميل وضمها يشكل حلما مكنونا للحكومة اليمينية، يتحدث اليمينيون عن ذلك بصراحة، ويؤكدون مع ذلك بانهم لا يريدون طرح هذه القضية للبحث الان، وذلك لان ضم عسير لا يمكن ان يتم بدون نزاع مع ابن سعود الذي يحميها الآن ، وكان من الواضح ان الحرب بين اليمن والحجاز هي لصالح العدو المشترك - انجلترا، وقد لوحظ سابقا ان انجلترا تحاول اثارة النزاع بين الامام يحيى وبين ابن سعود، ففي عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٦ عرض المبعوثون الانجليز تقديم الاسلحة لابن سعود على انفراد من اجل الحرب مع اليمن ، كما وعدوا الامام يحيى بالتسلح والمساندة ضد نجد والحجاز ، وقد اكتشفت هذه اللعبة من قبل الملكين ، واصبحت مثلا يمنعها من السماع لئلا هذه الدسائس في المستقبل ، وفهمت حكومتا البلدين بوضوح ، ان النزاعات الداخلية هي لصالح الانجليز فقط ، حيث يكون بمقتور الاخير بهذا الاسلوب احتواء الطرفين ، ومن هنا وجدت النفسية المهادنة في كلا العسكريين ، فاليمن تعترف بصمت بمصالح

نجد والحجاز في عسير وتمتنع عن القيام بأى مشاكل على الشمال ، وينفس المستوى أيضا بوجه ابن سعود كل اهتمامه ناحية الحدود الشرقية ، يطمح الى الوصول الى الخليج الفارسي، وقد اوقف التحرك نهائيا الى الجنوب نحو اليمن، وتحرك اليمنيين نحو الجنوب الى عدن، شأنه شأن انجذاب نجد نحو الشرق نحو العراق والكويت، يتوخى اهدافا مشتركة وهي شق الطريق الى شواطئ البحار المفتوحة، والخروج من مصيدة البحر الاحمر الخائفة، كان يعنى هذا توجيه ضربة لانجلترا، واختراق السلسلة المحكمة الترابط للامارات المرتبطة بالانجليز والممتدة على طول السواحل البحرية، لان امراء تلك الامارات يعزلون النواتين الداخلتين المستقلتين في شبه جزيرة العرب عن البحر المتغى والحكم عليها بالضمول في رمال وصحارى وجبال الاختناق القارى، لقد اكتشفت اللعبة الانجليزية، لكن الانجليز لم يكن بمقدورهم الصعود امام اغراء محاولة اثاره النزاع اليمنى - السعودى فى أكثر اللحظات حدة، وما هو جمال التركي قد وصل الى صنعاء، لم يخف هدفه ذلك - ان يعرض على الامام وضع يده العالية على عسير ، وكان هذه الامارة قد اصبح دورها ان تكون لعبة ، وانها تريد الدخول طوعا ضمن اليمن شرط الاحتفاظ بجزء من الاستقلالية .

كان الاغراء عظيما، فالقطعة المشتهة قد اتت بنفسها الى يد الامام، وبدا انه لم يبقى سوى قول "نعم" ، لكن اليمنيين لم يقولوا "نعم" هذه، لقد فهموا ان وضع يدهم على عسير، يعنى الدخول فى نزاع مع نجد والحجاز، وبهذا يكونوا قد حققوا حسابات الانجليز، ولذلك لم يترددوا ، لم يستقبل الامام يحيى جمال هذا ، وقد مكث بضعة ايام نون جدوى ، وغادر اليمن خالى الوفاض ، واحترقت ورقة الانجليز هذه ايضا .

ومع ذلك ، لا توجد لدينا ادلة مباشرة ، بان جمال كان يحمل بوعى لصالح الانجليز، من المحتمل انه قد قامت اعتبارات مغامرة وهمية ذاتية، غير ان عمله موضوعيا كان يتفق مع مخططات الانجليز، وقد كانت عدن هى الملهمه او الموعزة بهذا القدر او ذاك من نون شك، وقد اظهر اليمنيون مستوى رفيعا من الوعى السياسى بسلوكهم فى هذا الحالة، فشوشوا بذلك كل مآرب العدو .

الامام يستغيث

لمسة اخرى ايضا ، تشهد على تلك التطورات ، التى عاشتها اليمن تحت تأثير القنابل الانجليزية، لقد تحاشى الامام حتى الان، اصغر استغاثة مفتوحة بالرأى العام او بالدول

الاجنبية ، حيث هيء له و "لمجالسة" بان خليفة النبي لا يمكن ان تواجه الا الى الله، اما استغاثته بالشعب وخصوصا غير المؤمنين فهو امر اقل من كرامته وعزته، ولهذا فقد قرر القيام بخطوة جذرية للخروج من سكونه المهيب والاستغاثة بالشعب والخارج، حتى ولو كان ذلك بشكل مقالة منمقة.

ظهرت هذه المقالة في عدد يونيو من صحيفة " الايمان " الصناعية، وهي صحيفة متواضعة تصدر شهريا في اربع صفحات، وتحتوى عادة على مناقشات قضايا دينية ويضعة اوامر، وقرارات حكومية، تطبع هذه الصحيفة في مطبعة صغيرة موروثة من الوالى التركى، وتقع وراء جدران قصر الامام، وهكذا قرر الامام تحت تأثير القنابل الانجليزية ان يجعل من هذه النشرة الرسمية سلاحا للتحريرى السياسى، فكلف احد مستشاريه بصياغة ونشر موضوع الفارات الانجليزية، وطرح جوهر الخلاف الانجليزى - اليمنى امام اعين " العالم كله " ، وبالنتيجة ظهرت مقالة كبيرة ملأت الاربع صفحات من الحجم الصغير للصحيفة، تحدثت المقالة فى بدايتها فى بدايتها عن اثم انجلترا التاريخية ضد حق الشعوب المسلمة فى مصر وسوريا والعراق وفلسطين والحجاز، ثم شرحت بالتفصيل نور الانجليز فى تاريخ اليمن ابتداء من عام ١٨٢٩ حين احتلت المراكب الانجليزية عدن تحت مبرر " الاستتجار " واصبحت فيما بعد قلعة وواحدة من القواعد الرئيسية على الطريق الى الهند، واقدمت الحكومة العثمانية المترهلة على التنازل معترفة بحق الانجليز " باستتجار " عدن، ومقابل ذلك سلم الانجليز للاتراك باحتلال اليمن، التى كانت تحتج أكثر من مرة قولا وفعلا ضد الغزو الانجليزى لعدن، وقد تعرضت حقوق الاستتجار للتمديد فيما بعد، ومع ذلك، لم تعتبر عدن شكليا ارضا انجليزية، وكان الانجليز مستعدون " لـ التنازل " عنها للشريف حسين، الذى اطاح به ابن سعود فيما بعد، لقد اصطدمت محاولات الانجليز بالسيف والذهب لتوسيع نفوذهم خارج منطقة عدن بمقاومة اليمنيين خلال قرن كامل، واصل اليمنيين مقاومتهم، حتى بعد الحرب، عندما سيطرت انجلترا على تسع مقاطعات مجاورة، متكلفة بصرف معونات على مشايخ هذه المقاطعات، ثم تقدم المقالة وصفا للسياسة الانجليزية فى السنوات الاخيرة بالعبارات التالية :

" ... فى نهاية الحرب العالمية، قام الانجليز، باعطاء تهامة للامير الادريس، حيث استغلوا ترك الاتراك لليمن، لكى يبدأ الادريس صراما ضد الامام، بحيث يمنع قوات الامام من الهجوم على عدن، وقد قتل الانجليز آلاف كثيرة من الجنود اليمنيين فى النزاع بين الادريس والامام، ومثل هذا بالضبط يسعى الانجليز الان لزرع الفتنة بين قبائل اليمن، ويحرضونهم على

الانتفاضة ضد الامام، لكن جميع هذه القبائل ظلت وفية للامام وستبقى محاولات الانجليز دون نتيجة .

وحين رأى الانجليز ان جميع محاولاتهم لم تؤدي الى شيء، اضطروا للاتفاق مع الامام، لكنهم ارادوا عقد اتفاقية تكون مربحة لهم، حاولوا التفاوض في اليمن، مثل بقية البلدان بمساعدة سياستهم المخادعة، لكن هذا لم يأتى لهم .

حينئذ اصبحوا يبعثون ممثيهم الرسميين الى اليمن في الفترة الاخير ؟ من أجل توقيع اتفاقية مع الامام على اساس الاعتراف بالاحتلال الانجليزي لعين ومحمياتها، رحبنا نحن اليمنيين بهؤلاء المبعوثين وسعينا الى الاتفاق معهم لصالح الطرفين، لكن كانت كل محاولتنا عبثا .

انهم لا يريد من ان يفهموا اننا بشر مثلهم ايضا، فرفضوا اعطائنا او شبر واحد من أرضنا، وذلك لاننا لم نحتل هذه الأرض بالشراء ولا بالخداع، كما فعلت ذلك انجلترا بعين .

نحن اليمانيين، واليمن ملكنا، وسندع انجلترا تفكر بان اليمن وعين ولحج تحتل ضمن الامبراطورية البريطانية، لا ترغب انجلترا في ان تكون هناك دولة عربية مستقلة، وتحقيق هذا الهدف فهي على استعداد لايادة كل مسلمي اليمن .

تريد ان يعلم كل العالم المتمدن هذا، ان بريطانيا ارسلت طائراتها الى اليمن بدون مبرر او انذار في الفترة الاخيرة، وقد قصفت هذه الطائرات، البيضاء، الحجرية، الضالع، قعطية، دمروا القرى والمساکن، حيث كانت النساء والاطفال مجبرة على العيش في الصحراء بدون مأوى، ومثل ذلك قصف الطائرات المساکن حيث يعيش النساء والاطفال في تعز وبريم ودمار ودمت وجبله، كل هذا قام به الانجليز المتحضرين ! وسيفهم العالم كله وحشية الانجليز تجاهنا .

هذا هو النزاع بيننا وبين الانجليز، وليعلم كل العالم الاسلامي، بان انجلترا تريد ان تخضع لسلطتها كل شعوب الارض وان لا يرفض هذا حتى ولا شعب واحد .

سننتظر حكم القدر، وان تعطى لاحد ولو شبرا واحدا من أرضنا .

لم تبقى هذه الاشارة دون نتيجة، حقيقة ان صوت اليمن لم يصل الى اوربا، او بالاصح وصل متأخراً عندما فقدت الاحداث حداثتها، لكن حدى قنابل الطائرات دوى عاليا في البلدان العربية المجاورة فقد اعادت الصحف القاهرية طبع مقتطفات من المقالة . وربما وصلت الى

الهند ، وادت نصيبها في الموجة المتعززة المعادية للامبريالية من قبل شعوب نهر النيل ونهر الكنج ، وخفقت حدة النزاع، وبعد شهرين أو ثلاثة اشهر انتهى ظاهريا، واخلا اليمينيون قسما من المناطق المتنازع عليها، وبأت المباحثات الطويلة البطيئة، كانت المباحثات تحت وساطة الامريكيين في البداية، ثم ظهرت " كل الوجوه المعروفة " على الحلبة : كرفورد، جيكوب، وغيرها من "المتخصصين" باليمن، كانت المباحثات تتوقف، ثم تتجدد، لكنه حتى كتابة هذه السطور، فان المباحثات الانجليزية - اليمنية، وكأنها لم تكن، ان كل حيل المبعوثين الانجليز من عدن، وكل ذهبهم وتهديداتهم قد اصطدمت دائما بدرع لا يخترق من الوطنية اليمنية الناضجة ، واصبح تركيع هذا الشعب ليس بطاقة الانجليز ذلك، عفوا يأتي الى الذهن قول قديم وهو غالباً ما يجد الانجليز في الشرق خونة ، لكنهم لا يجدون اصدياء .

اتذكر ان الموظفين المتوسطين العسكريين تباهى قائلا .

النذور والرشوات

-- عرض على جيكوب ذات عشر مرة قطع ذهبية، لكي أكون عميلا له، اخذتها، امر واضح، وبعد بضعة اشهر تقابلنا، ولم اقل له شيئا، بينما كان يجلجل بالقطع الذهبية بشدة، وكأنما يذكرني بالاتفاق ... دعه يجلجل بذهبه .

لقد اشرنا الى ان المشايخ الذين قدم لهم الذهب الانجليزي لم يرفضوه، لقد استلموه كاملا، لكنهم لم يقوموا بالانتفاضة ضد الامام، بل على العكس، فقد تقاسموا الذهب معه، ان القول القديم المأثور، القائل بان الحمار المحمل كيسا من الذهب بمقدوره تخطي اي حائط، لم يبرر نفسه، فالحيطان الطينية القديمة بصنعا، ظلت عصية ليس على الحمار فقط، بل وعلى الطائرات الانجليزية ايضا .

نضيف الى ذلك ثلاث مسحات او ثلاثة منها جزءان من تلك الفترة، وجزء من الفترة اللاحقة .

مازال الدخان يتصاعد من انقاض البيوت في تعز وذمار، لكن الانجليز فهموا اخطاء تقديرهم، فبدأوا بتسوية التربة للمباحثات .

ارسل كرفورد الى القاضي راغب من عدن رسالة مع هدية، مصباح كهربائي يدوي، هذا شيء كثير الفائدة في الليالي المظلمة، حيث لا يرى احد من مسافة خطوتين من الجدار، وهذا

المصباح مفيد للبيت ايضا، ذلك البيت العربي المتعدد الطوابق، بغرفة الكثيره، واركانه، كانت الهدية مفيدة، لكن القاضى راغب فهمها بشكل مغاير .

- يريد كرفور ان يقول بهذه الهدية : انكم اليمينون، اناس جهلة، نحن الانجليز نريد تنويركم ... فكر قليلا ثم اضافة :

- او ربما، يلمح الى ان هذا المصباح سيكون ناقعا لنا، حين نختبيء فى الاقبية، نطلب النجاة من القنابل الانجليزية .

ولم يكن غريبا، ان يرفض القاضى راغب الاحتفاظ بهذه الهدية التى اثارت كل هذه المشاعر الغاضبة، وان يهديها الى احد خدامين القصر .

ولم يكن من المستبعد، فى ان كرفور قد بعث بالمصباح دون معنى خفى، غير ان ارتياح اليمينى وشكته يجملاه يكون مستعدا فى كل خطوة وفى كل اشارة من الاجنبى، وان يرى فيها ان لم تكن مكيدة مباشرة، فانها اساءة او تلميح خفى .

ونيل الثقة فى الشرق ليس سهلا، لقد تنازل جيكوب المشائب كثيرا، لكن مذاق التصنع تحدث من نفسه، فرحل حاملا كنية " الكلب الابيض " ومع ذلك لم يكتب، تظاهر وكأنه يعتبر اليصاق مطرا، وبعد ان رحل من اليمن وبعد الغارات نشر فى احدى الصحف الانجليزية مقالات تدين عمل الموظفين الانجليز بعدن ؟ الذين كانوا يتحركون متكئين على انفسهم دون معرفة لندن، ظهرت هذه المعارضة المصطنعة بموافقة كاملة من السلطات الاستعمارية وهيئة المخابرات من دون شك، انهم يسمحون لعمالهم بكل المناورات، ويستطيع الاخيريون فقط ان يكتسبوا سمعة لانفسهم بانهم " كاصدقاء " تلك الشعوب، والحكومات التى ينبغى ان يخدعوها .

ليس من باب القول الزائد الاشارة هنا الى عدم الثقة الفريدة تلك التى يقابل بها الاجانب فى بلدان الشرق عامة، فتجارب السنين الطويلة المرة قد علمت الناس فى الشرق ان يرتابوا مسبقا بكل اجنبى يفد اليهم، وانه يحمل نوايا مفرضة تجاه بلدهم، وعدم الثقة هذه لاتزول، بل تزداد وكانها كتنة تلج، وذلك اذا بدأ الاجنبى يؤكد على نزاهته على الفور تورا، تتحول عدم الثقة الى عداة حادة، ما ان يكاد هذا الشخص الذى أكد نزاهته، فى هذه او تلك من المطامح تجاه مقدرات البلاد المادية. وكما يقول المثل التركى، ان الشرق الذى احترق بالبن الحار يبدأ النفخ على الثريد، يعتبرون كل اجنبى مقدما، شبيها بالنصاب .

ومن أجل تصوير اساليب النفاق، التي تعطى نتائجاً عكسية ، يمكن ايراد هذه الحادثة،
وصل الى صنعاء (قبل عام من مجيئنا) امريكي بارز باسم من الحجم العالمي، يحترق من
الرغبة في كسب الشهرة وحيازة ثقة الامام، اقدم على الاسلوب التالي، يصرح بعد وصوله الى
صنعاء بأنه يجب ابلاغ احد الوجهاء اليمنيين بسر عظيم، يدعوه الى غرفته، ويفلق النوافذ
والابواب باحكام، كانه يؤكد من انهم لا يتصنتون، ثم يخرج القرآن من احد جيوبه الداخلية
بمهابة ويهمس خافت يتفوه قائلاً :

هذا الكتاب احملة دائماً معي، فانا مسلم في داخلي، لكن لا احد يشك في ذلك، لكم وحدكم
ابوح بهذا السر ...

لايتحتم القول، بان هذا الاسلوب قد اثار شعور التقزز والاحتكار للامريكي هذا، بل
وفاحت حوله رائحة الزيف مباشرة، ولانه لم يدرك ذلك بعد، اقدم على خطوة جديدة، صرح في
الاستقبال الرسمي امام الامام :

يا صاحب الجلالة، اننى اقدم لكل حكام الشرق نصيحة واحدة، يشكروني عليها فيما بعد،
اسمحوا لي ان اقدمها لكم ايضا ...

وبعد ان يتلقى السماح، يقول بتأثر وغموض وريانة :

يا صاحب الجلالة، لاتثقوا ابداً بالأجانب، لا تعطونهم اية التزامات وامتيازات في بلدكم
...الحيرة غير الواثقة، التي استقبلت بها هذه " النصيحة " تحولت لدى الامام والمقربين منه الى
شعور بالاحتقار البالغ وذلك عندما تقدم هذا الامريكي بنفسه بعد بضعة ايام الى الحكومة
اليمنية بطلب امتياز مريح لاستغلال مناجم الفحم الحجري، ومنذ ذلك الوقت لا يتذكرونه الا
ببسة احتقار ساخرة .

إنهاء الحسابات الانجليزية والصفحة الأمريكية

غير اننا لن نخرج عن الموضوع، سنستخلص، نتائج النزاع، الذي كنا نشهود عيان عليه،
ينبغي ان تثبت ما يلي : في هذا الجزء الصغير لكنه الهام في الجبهة الاستعمارية، منيت
انجلترا بالافلاس، ذلك ان حساباتها الرئيسية - قهر اليمن وتركيعه - قد منيت بالفشل، لقد
خرج اليمنيون من النزاع معددا سياسيا، صلبا وملتصقا بالحقد على الامبريالية، واستسلم اتباع

الانجليز أو محقوا، وبالنتيجة تعزز الوضع الداخلى للحكومة، وتعادل هذه المنجزات بضع تلك الامارات التى اخلاها اليمينيون تحت ضغط قوات العدو المسلحة، وأن يتخلى اليمينيون عن حقوقهم ولا حتى الحقوق الشكلية من عدن، التى تصادف الذكرى المئوية لاحتلالها من قبل الانجليز بضعة ايام (*) .

لم يتأتى تمزيق عقدة القضية اليمنية بواسطة السلاح من قبل الامبريالية، البريطانيين ولهذا تحتم على الاسد المتعجرف ان ينهى زئيره والتلويح بذيله من جديد على امل استرجاع الجار الصغير العصى بهذه الطريقة او تلك.

لم يتأتى ذلك حتى الان، لكن الميزة ان هذه النهاية المخزية لهذا الصراع بالنسبة لا نجلترا قد ابرزت الخلاف بين انجلترا والولايات المتحدة حتى فى هذه البقعة الثانية، اذ بعد ان وصل القنصل الامريكى لود بربرك من عدن مسرعا اخذ على عاتقه مهمة الوساطة فى تسوية النزاع، وبعد ان مكث بعض الوقت فى صنعاء، " يدرس القضية فى موقعها " كما يقال، غادرها واعد اليمينيين باتخاذ كل الاجراءات لمنع الغارات اللاحقة، وليس معروفا ما عمل فى هذه الاتجاه، لكن المعروف فقط، انه بعد وصوله الى الحديدة فى طريق العودة ارسل برقية الى حكومته فى واشنطن، ارسل هذه البرقية " برموز واضحة، وليس على نمط الشيفرة المشوشة للرسائل الدبلوماسية العادية " وقد بلغ حسب استنتاجه، بان اليمينيين سلوكوا سلوكا لا لوم فيه مطلقا من وجهة نظر القانون الدولى، وان الغارات الانجليزية لم تكن تستدعيها ضرورة موضوعية اطلاقا .
ولكى يؤكد ادانته للغارات وجه نسخة من هذه الرسائل الدبلوماسية الى حاكم عدن، المهتم المباشر لهذه الغارات .

وهكذا وجهت صفة للامبريالية الانجليزية من العم الامريكى امام امين اليمينيين، لم يتبع الجواب على هذه الصفة، والمعروف فقط، انه منذ ذلك الحين هدا الاسد البريطانى، ومن جديد يحاول بدون زمجرة او زئير استعادة المواقع المفقودة على طريق الهدير والهبات الرخيصة .

(٤) - يرجع المؤلف احتلال عدن من قبل الانجليز الى عام ١٨٢٠ ولهذا فانه يشير الى الذكرى المئوية للاحتلال بعد بضعة ايام، حيث كتب هذا الكتاب فى عام ١٩٢٠، بينما فى الواقع كان احتلال الانجليز لعن عام ١٨٢٩

لكن كان ذلك متأخراً، فالقنابل التي رُمي بها العنوش وعشرات البيوت التي دمرت، قد مزقت
آخر الأوهام التي كانت ما تزال تعشعش في أذهان الطبقات الحاكمة في اليمن، بالنسبة لخطط
التعايش السلمي مع المردة الإمبرياليين، الذين يحاولون وضع مخالبتهم على الشعب الجبلي
العصي .

الباب السادس عشر

- * الأيام الأخيرة في صنعاء
- * احجار على الطحلب ونساء حجوية
- * اليهود
- * رحلة خطيرة .

الأيام الأخيرة في صنعاء

انتهت الغارات، وانتهى انتظارها المتوتر، تنتعش البيوت التي فرغت شيئاً فشيئاً وتغلي حياة السوق، وتمتلئ الشوارع والأزقة بالضجيج المعتاد والغوغاء .

وتنتهى مدة إقامتنا في صنعاء قبل سفرنا بعدة قصيرة، ينقلونا إلى منزل أكثر ثراءً، كدليل على الاهتمام الخاص، حديقة واسعة مزهرة، حوض مع النافورة، أمام البيت مباشرة، تسمح رنات البئر الإيقاعية أمام النوافذ، خطوات الجمل الرالرتييه، وصخب الماء السائل المنتظم، الذي يتدفق بانتظام عبر القنوات، التي تملأ الحوض وزوايا الأشجار .

غير أنه لا يوجد وقت لدى الامام لا ستنشاق أريج الأزهار والتطلع إلى ظلال الشمس في مرآة الحوض والارتياح تحت أوراق الشجر الظليلة، يأتي لزيارتنا تجار عرب، ويهود، وفرس يحملون رسائل توصيات من شخصيات ذات نفوذ، موضوع الأحاديث السكر، الكروسين، الدقيق، الأقمشة، البن اليمني، حازت بضائعنا على رضى المستهلك اليمني، وذلك لأنها النقيض المباشر للبضائع الرديئة المعتادة، التي يصرها الامبرياليون في أسواق المستعمرات، وكانت الشكوى الوحيدة فقط هي قلة البضائع، وكان المفترض أن تكون البضائع أكثر بكثير، وتتدخل بواخر سوفييتية أكثر إلى موانئ اليمن، كان الامبرياليون ومايزلون يلغون عمداً، وبخسارة في الغالب الصفقات قرب الموانئ اليمنية بهدف إلحاق مصاعب اقتصادية أكبر لهذا الشعب الابي .

نعلم أنه من المستبعد تلبية كل توقعات وتقديرات اليمنيين، كما نعلم أن بواخرنا قليلة، وأن هناك نقص في البضائع، وما يزال لا نعرف إلى أي ستزيد بضاعتنا، نحن لم نتكيف بعد مع فكرة أنه بينما نحن نقوم بالمباحثات في صنعاء البعيدة فإن وراء جدران الكرملين والمكاتب المتعددة الطوابق للمجلس الاقتصادي الوطني وهيئة التخطيط الحكومية تنشأ وتصاغ قوالب الخطة الخمسية، التي تستقدم بالكامل جميع ما هو ضروري لتلبية احتياجات هذا البلد الصغير فقط، بل لم نعلم بعد، بأنه في أحواض سفن سفستوبل، نيكاريفسك والبطلينق تجهز هياكل عشرات السفن الجديدة، التي سيتمخر قريباً كل البحار والمحيطات

لم نعرف بأنه قد حددت الخطط الجبارة لجعل الزراعة تعاونية، وهذا سيغطي احتياجاتنا من القمح ونقله إلى هذا البلد، لم نعرف بعد أن الخطة الخمسية، التي يشك اليمنيون الانتهازى بضراوة بإمكانية تحقيقها، وتنفيذها في بحر خمسة أعوام، بل وفي أربعة، وفي مجموعة من

القطاعات، التي يعتمد على تمويلها هذا البلد (الكروسيين) في ثلاثة اعوام، وفي عامين ونصف، وما يزال يرن في الأذان نعيق الاعداء الخبيث ودمدمة قليلى الثقة " الى اين تزحفون، ابقوا في البيت " ، " عسى ان لا يحصل شيء " ...

اما الان ، ويعد ان انتظرت هذه السطور نورها في المطبعة لتخرج الى النور، مرت اعوام، فقد اثبتت بالكامل اكثر التقديرات جرأة وتحطمت كل الشكوك اللجوجة، فقد ارسلت البضائع الى اليمن (وايس الى اليمن فقط) وتضاعف سيلها كل عام، تقوم البواخر السوفيتية برحلات منتظمة عبر البحر الاحمر والمحيط الهندي حتى الى اقصى زوايا الخليج الفارسي، وحتى مشارف انهار الراهدين العظيمة ... لكننا حين كنا معزولين عن الارض السوفيتية، شعرنا اكثر من مرة بشعور القلق المرعب - هل نستطيع تلبية التوقعات المتواضعة لهذا البلد، الذي رأى لأول مرة في اشخاصنا قطعة صغيرة من الاتحاد السوفيتي .

وعلى كل حال، نستطيع التحدث عن هذا " البلد " نسبيا فقط، كان الاقتراب من الشعب صعبا، فمزلنا، شأنه شأن منازل كل الاجانب في اليمن، يحرس بيقظة من قبل حراس مناوبين، ويتعرض كل قادم لتحر " دقيق، وتجري النزومات في المدينة بمرافقة الخدم ايضا، الذين يدونهم يمكن ان يتهددنا سوء من قبل المتعصبين، او هكذا افهمونا على اقل تقدير، ولايسمح بدخول منزلنا، ما عدا الوجهاء الا " الخدم الامام "، والتجار الذين بأيديهم توصيات من السلطات للمباحثات في الصفقات التجارية، او لبعض التجار (من اليهود في الغالب) الذين يحملون لنا الحلى المحلية، التي تشربها من صنعاء للذكرى .

احجار على الطحلب ونساء حجوية

ومن بين سقط المتاع المتعدد، الذي يتسابق عليه الاجانب الذين يزورون اليمن لاقتنائه يأتى في المقام الاول - كل انواع الاحجار الملونة، التي من المفترض انها ترمز الى الثروات الموجودة في باطن ارض اليمن، وان كانت في حقيقة الامر ليست سوى قطع مضلعة لا معة، ذات ألوان نبية داكنة، برتقالية، وزرقاء فاتحة، كما يوجد بينها ألوان فاتحة مبهمه، واحجار شفافة يرتسم تحت سطحها اللامع شيء ما يشبه اغصان الطحلب، وكانما هذه القطعة الطحلبية تمت عضويا في سطح الحجر اللامع، الذي صقلته يد حجرية، تبدو لي هذه الاحجار رمزا لليمن، البلد الذي صقلته موجات الاعصار العالمي، والقذائف الانجليزية، محتفظا مع ذلك ببقايا واضحة من القديم المتجذر بقوة .

هناك ايضا شيء اخر، التماثيل الحجرية القديمة، هي تماثيل تصور ما يشبه تماثيل النساء الحجرية المتناثرة في جنوب الاتحاد السوفيتي، ينتصب احد تلك التماثيل حتى الان على طاوالتين، يحملق بثبات الى بعيد بعيد وحشية بائسة، هذا التمثال النسائي منحوت من قطعة حجرية واحدة بلون البشرة مبقعة بعروق مائلة للأحمرار، وهذه المرأة جالسة القرقصاء تضغط بقبضتها وازمة شفيتها، تبرز حديتان صغيرتان بدلا من الثديين في الاسفل على دعامة الملتحمة بالتمثال، وكتابة مبهمه منقوشة، شيئا ما يشبه حرفي " X " و " Q " بالروسية، بالاضافة الى الشكلين او ثلاثة اشكال هندسية غير متناسقة، ان هذه التماثيل تصور الالهة الحميرية القديمة، صنعت قبل الالف السنين، انها بقايا التاريخ القديم، التي سلعت في كهوف صحبة الوصول اليها حتى على اليمنيين من مأرب، حيث تصل من هناك الى صنعاء لاعادة بيعها على التجار الواصلين من الخارج، لا اعلم هل تمثالي هذا أصيل ام لا، اذ من المعروف ان تقليد او تصنيع الآثار القديمة المزيفة مثل التماثيل، النقود الأواني، الأدوات التي يزعم انها من بقايا الحميريين القدماء، قد شغلت مكانا قويا في عدد من المجالات المرهجة في اليمن، تؤكد الا لسنة الخبيثة ان مئات الصرفيين من يهود صنعاء يعيشون على الدخل من تصنيع مثل هذه الاشياء المزيفة

غير ان التمثال الذي املكه، حتى ولو كان مزيفاً، فانه يعطى تصورا عن الاصل بدون شك، وينبه الى انه قد كان في الأماكن الصعبة المنال في اليمن، ويختفي حتى على العلماء الاروربيين الكثير من المادة التاريخية الاصلية التي لم تكتشف بعد، والتي بإمكانها القاء الضوء الساطع على العصر الضارب في القدم .

اليهود

وبالمناسبة وما يتعلق باليهود في صنعاء فقد وجدنا أنفسنا حرقياً عند منابع معاداة السامية، نقول عند المنابع، لان العلاقات بين السكان اليهود والمسلمين قد احتفظت بالملامح القديمة العهد القديم، هذه العلاقات التي لم تمر على ضوء الفوارق القومية او الفتوحات او الاخضاع او تحطيم الانماط الاقتصادية، فيهود وعرب صنعاء هما فئتان من شعب واحد، يتحدثون لغة عربية واحدة أكثر قرب من لغة القرآن الفصحية، يتشابهون بالشكل الخارجي، يختلف اليهودي اليمنى كثيرا عن مثيله الاوربي، فهو مثل العربي بنفس الملامح، ملامحة حادة مستقيمة، جبهة واسعة مثل العربي، ولا يوجد اثر لتلك العلامات، كالأنف المقوس،

تفاحة آدم البارزة، التي من المعتاد تصوير هيئته بها في أوروبا، ولو خلعت الثياب من العربي المسلم واليهودي لشوهد اناس من عرق واحد بشكل مطلق، لا يختلف بعضهم عن بعض في شيء، وصولاً الى اقل اجزاء الجسم صفراً، خصلة من الشعر الاجعد على الصدغ فقط تعدت حتى الكفين، لو ربما نظرة الجزع العميقة، تعطى امكانية اختلاف اليهودى عن العربي وما عدا ذلك فلا وجود للقارق بينهما .

كل اليمينيين الذين تمكنا من التحدث معهم يؤكدون بان اليهود والعرب هم شعب ليس من الجنس السامى الواحد فقط، وانما يمثلون قومية واحدة متكلمة عموماً، وانه لا يوجد اى فرق بينهما، لن آخذ على عاتقى تأكيد هذا الراى كاملاً، لكنى اعرف انه اسهل بكثير، تميز الكورى عن اليابانى، من تعين اليهودى الصنعانى عن المسلم، خصلة الشعر والثياب فقط هما بالذات يوضحان هذا الفرق

لا يحمل اليهودى خنجراً، فهذا محرم عليه، ولا توجد عمامة على رأسه، وانما قبعة صغيرة مشدودة على غرار تلك التى يلبسها الازبيك عندنا، يلبس اليهودى ثياباً بيضاء وعباءة غامقة من الاعلى، ويسرن النساء بوجوه مكشوفة، وعلى الراس خمار بحواش بيضاء فضية مزركشة بالدفنقلا والمعينات، هذا اللباس بعيد الشبه عن رداء النساء المسلمات الواسع، والذي يغطى هيكل المرأة من الراس حتى القدم ويغطى الوجه باحكام، ويحجب شكلها، اما الفتحتان فى مكان العينين فتعطى المرأة العربية هيئة غول يجرى من الاساطير القديمة .

وقد يسأل المرء البسيط . لماذا تُلغظ كلمة "يهودى" من فم المسلم بذلك الاحتقار ؟ لماذا يعيش اليهود فى حى قاع اليهود الخاص الموجود على مشارف المدينة ؟ ولماذا لا يملكون الحق فى حمل السلاح ، الاشتغال فى الزراعة ، والعمل فى الوظائف الحكومية ويحرمون من كل الحقوق السياسية ؟ ، " نكرر " ان اليهود هنا فى صنعاء وكذلك فى بقية المدن لا يختلفون عن العرب لا باللغة ، ولا بالقومية، وتوضيح كل شيء بناءً على الفوراق القومية، كما يفصل المعاون السامية فى أوروبا، امر مضحك هنا، ولا يلعب هنا ايضاً دور " صلب المسيح " المزعومة، ذلك لان المسلمين لا يكتفون بهذه الحكاية اطلاقاً فى افضل الحالات، اما ما يتعلق بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فانه لا ينبغى غض النظر عن النزاعات الضارية بين المسلمين واليهود فى عهد دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد وجه الرسول جل نشاطه التحريضى ضد الوثنيين بالدرجة الاولى، ثم ضد اليهود بالدرجة الثانية، وضد المسحبيين بالدرجة الثالثة، وقد كان يقترب منهم احياناً، لكن ذلك كان تكتيكاً سياسياً، وعلى

العموم، اخذ الاسلام كاملا من يهودية العهد القديم (*) ومجموعة من الطقوس والعبادات (الختان تحريم اكل الخنزير وغير ذلك)، التي توجد تعجيلاتها جزئيا في الخصائص المناخية والمعيشية في شبه جزيرة العرب، يوجد الاختلاف حقا، بنوع المهنة ؟ فاليهود لا يمارسون الزراعة، واغلبهم حرفيون وتجار صغار، واكثرهم يسر الصيارفة، والمرابون والوسطاء بين الشركات الاجنبية والسوق الداخلية، قسم من هذه الاعمال (الصفقات المالية) يستتكفها المسلمون ولا ينصح بها اتباع الرسول (مثل الرباء والعمليات المالية عموما) وتجعل علاقات اليهود مع الشركات الاجنبية في صلات متناقضة مع زملائهم العرب الذين ابعدوا عن السوق الخارجى، وهذا يثير حسد الآخرين، كما تعتبر تجارة بعض البضائع (الخضار مثلا) عملا مهنياً، ليس لليهود فقط ، بل وحتى من يمارسها من المسلمين حيث ينتمى تجار هذه الطائفة من البضائع الى السكان المحرومين من الحقوق (مثل الجزائريين واللباغين وغيرهم)، وهنا نتذكر مصادفة غريبة، يعتبر الاشتغال بالقطاعات المرتبطة ببيع الماشية (الجزاره اللبافة، وما شابه ذلك) حتى في اليابان البعيدة من نصيب طائفة سوى خيه سيبا، التي محرمة من الحقوق الى وقت قريب ومحترمة حتى الان، تخلق تجارة الخضار تناقضا بين اصحاب الحوائث اليهود وبين الفلاحين، ويصطدم التجار الاغنياء اليهود الذين يقومون بالعمليات المالية والتجارية بالاقطاعيين المسلمين، ويصحب هذا الصدام التصادمات المميزة بصدامات القرون الوسطى الغابرة وذلك حين يقع الفريسان الفقراء (والنبلاء) تحت التبعية المالية للصيارفة ومحتكرى الخامات الزراعية اليهود، كما يمكن ان يوجد سبب التعليل المشهور للتناحر، الذى يكنه الاقطاعيون والتجار المسلمون لليهود، حين يرون قسما من الارياح يذهب الى ايدي الوسطاء اليهود، غير ان التوقف عند هذا التعليل امر غير صحيح. فمن الواضح ان السكان اليهود يتعاملون بهذه الاشغال " المحترمة " المشار اليها (والتي لا يستتكفها المسلمون في الفرصة الملائمة) وهذا يحدث بفعل الطرق التي تؤدى الى القيام بالاعمال الاخرى الزراعة، (الرعى، الخدمة العسكرية والحكومية) محجوزة ولا نصيب فيها للسكان اليهود، وبالتالي فان التناقض الاقتصادي الذى يندشأ بين الفئات المعروفة من اليهود والمسلمين، ليس سبباً، وانما هو

(*) - تكاد تكون وجهة النظر هذه سائدة في الاستشراق الاوربى، بينما الواقع بخلاف ذلك، اذ ان

الاسلام لم يؤخذ من يهودية العهد القديم وانما اتى كديانة جديدة، علي ان بعض التشابه في بعض المناسك الدينية او الروايات التاريخية التي وردت في الكتب المقدسة لا تعني الاخذ بالكامل باي ديانة سابقة . - (المترجمان) .

بالأحرى نتيجة لهضم الحقوق السياسية والمعيشية لليهود .

لا داعى للإسهاب، بأن الطبقات الحاكمة توجب التناحرات بين السكان المسلمين واليهود، وتبعب بعد سياسة اضطهاد اليهود، موجهة بذلك حقد الجماهير الشعبية باتجاه اتباع الديانة اليهودية، وهذا لا يمنع بالطبع الوجهاء العرب ، من إقامة علاقات حميمة فى الخفاء مع الأثرياء والمرايين اليهود، وأن يلجأون لهم " للمساعدة " فى اللحظة الحرجة .

وإذا تحدثنا عن وضع الفئة العليا من اليهود عموما، فإن التحسر والتأسف على نصيبها، الذى يقوله ويقعله نقافا الصهاينة لا حاجة له، حيث لا يتعرض التجار اليهود والمسلمون لا بتزانات كثيرة فى الاموال، وأن كان اليهود يضطروا لا عطاء رشوات أكثر للشرطة والموظفين، إذا قارناهم بالتجار المسلمين، لكن الفرق هذا ليس كبير الى ذلك الحد؛ لقد أعقى اليهود من العشر ومن الخدمة العسكرية، اما الحقوق السياسية فى اليمن ذات الحكم المطلق فهى عموما امر قليل الأهمية، حتى العرب، فإن المشايخ وكبار التجار فقط هم الذين يستخدمون هذه الحقوق عمليا، ولهذا فإن ثقل عدم المساواة السياسية والمعيشية على الأخص تقع بالكامل على عاتق فقراء اليهود وجموع صغار التجار والحرفيين الذى شدد الضغط عليهم كاملا بين قبضتى العسف الإدارى - البوابيس فى ظل العداء بين السكان، الذى يثار اصطفايا .

متى، وفى عصر ولماذا طردت فئة كاملة من السكان من قومية واحدة تقريبا الى جيتو "مغلق" (حى اليهود) ، وتعرضت للهضم فى الحقوق والاشتغال بمجالات العمل، التى تعتبر أكثرها مهانة ؟ تتطلب الاجابة على هذا السؤال اعواما من البحث التاريخى الدقيق .

لكنك اذا تجولت بين جدران بيوت حى اليهود البيضاء الناصعة، وتطلعت الى البيوت بأفئيتها المرصوفة، وخرجت الى الشرفات البيضاء المجددة بالياباب الشجرى، ترى وكأن عصر الانجيل قد انتعش، تأخذك الرغبة فى نسيان تلك الموجة من التناحر الوحشى، الذى بحكم منطلق الاضطهاد الطبقي يسم حياة عشرات الآلاف من الناس .

تبدأ ترتسم صورة، للماضى البعيد قبل أكثر من الف سنة، للحركة المحتشدة الجبارة، التى شملت كل البلدان العربية والمجاورة تحت راية النبى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، لقد اثارت حدة الصراع الطبقي وادت الى تطورات اقتصادية جذرية، وإلى تغير شامل للتركيب الاجتماعى لتلك الشعوب، لن نخرج عن الموضوع، نتعمق فى تحليل القوى الاجتماعية لهذه الحركة، بيد أنه من الصعب الابتعاد عن الانطباع بأنه نتيجة لانتصار فئات معينة على أخرى، اصبح المغلوبون فى اسفل السلم الاجتماعى، فلم يحصلوا على نصيب فى حقوقهم السياسية

التي هضمت، وحرموا من الوصول الى صف المجالات الاقتصادية، ونتج عن ذلك حرمانهم من نوع خاص لذلك العصر، فنبهوا في احياء خاصة وتحجروا في حياة قديمة .

ومضت الاعوام والقرون في سبيلها، زالت انماط اجتماعية، وتغيرت العلاقات، والطبقات التي لعبت دورا تقدميا بدأت تنتكس تاركة المكان لطبقات اخرى، والنين الاسلامى الذى كان راية للتجارة فى البداية وللبرجوازية البداية والاثرياء من الين، الذين اندفعوا الى البحر الى الاسواق الخارجية والفتوحات، صار سلاحا بيد طغمة من الاقطاعيين الصفا، الملوك العرب، ومن ثم السلاطين الاتراك، ونفذت قوة الاسلام التحريضية، واخرج العرب من اسبانيا وفارس وتركيا، وانحدر الاتراك فيما بعد من فينا واوروبا، وحسم مصير الطبقات التي اعلنت الاسلام واعلنت موجته ليس فى صحارى الحجاز ولا فى جبال اليمن فقط، بل وعلى نهر الدنوب وجفاد لكبير، وبقيت جزيرة العرب التي اعطت الدفعة لهذا الزلزال العظيم جانبا، وبقيت اليمن بعيدة كل البعد، اكثر المناطق عزلة فى شبه جزيرة العرب، حتى الموجات الاولى للحركة الاسلامية وصلت الى هنا على شكل رشاش متناقض متلاشى، توقف اليمن بدون حراك بعد اولى تطورات العهد الاسلامى المبكر .

وفى العاصمة الجبلية المطلقة، كما فى الكهوف الوهمية لا طنطنيدا، بقيت سلالة تلك الطبقات التي خسرت فى الماضى البعيد المعركة على السلطة، وظلت معزولة، معزولة السلاح تحت رحمة المنتصرين الجبابرة فى غابر الزمان، الذين انهكوا وافقروا الان .

لقد حكمت عزلة القرون عن العالم المحيط على المغلوبين بدائرة من المهن شديدة الضيق، واعطتهم مجموعة من الخصائص المعيشية الخاصة، فتكونت تلك الحافة، التي تستطيع انائها بالكامل شمعة الثورة الاشتراكية فقط، والتي ستحول كل التناقضات الزهيدة الى رماذ، تلك التناقضات المتراكمة، التي ستذهب بجنورها فى اعماق آلاف السنين،

وفى مثل كل صراع عظيم يترافق معه، نشئت الشعوب المغلوبة والقبائل ، والطبقات والفئات فى جميع انحاء العالم، نشئت على وجه الارض بقايا القبائل السامية المهزومة فى هذا الصراع وفى معارك قديمة اكثر، من اسبانيا وحتى الصين. وبقت فقط اعشاش صغيرة فى فلسطين واليمن لم تستطع الابتعاد عن المنتصرين، وحتى الان يجب عليهم اختراق طوق حرمان الحقوق ، يستخدمون فى ذلك العلاقات الواسعة مع يهود البلدان الاخرى، الذين احتفظوا بنمط سلوكهم الدينين والمعيشى كامتياز وحيد، كما احتفظوا بالشعور الدينى والوحدة فى ظل اكثر اغتراب فى شعوب ليست اقل عدالهم وانا كانت قد انمحت النحقات القومية والدينية (رغم

انها بعيدة عن الانتهاء) فى بوتقة الرأساليه، تاركة محلها للتناحر الضارى بين طبقات جديدة لم يعرفها الماضى، فانها هنا فى ظل نفسية العصور القديمة الثابتة المتجمدة، قد حافظت على التناحر القديم، الذى بقى بشكله البدائى، عاكسا للتناقضات الاجتماعية القديمة - المدهشة بعينيتها المرعبة تحت ضوء الشموس التاريخية الجديدة.

علينا ان نشير الى ان هذا ليس تحليلا عمليا، ربما يجد علماء التاريخ والانتوجرافيا جملة من الاعتراضات والتصحيحات لكل ما قلناه اعلاه، لن اجادل واعترف مسبقا بكل الاخطاء والهفوات، لكن هكذا كانت الحالة التى تولدت عند رؤية فئتين متشابهتين اطلاقا والتي وضعت قوة الشنود التاريخى بينهم حاجزا صارما يصعب تجاوزه.

اما استنتاجنا العلمى فقد كان بالشكل التالى : اذا اردتم تجنب مكروه خير لازم، فلا تكثروا من زيارة حى اليهود، نعرف ان سمعة جيكوب قد ساءت كثيرا فى اعين اليمينيين، نتيجة لسوء استغلاله للنزهات فى قاع اليهود، الى درجة انه اثار الارتياح فيما يتعلق باصله، وبالإضافة الى ذلك، فان اسم جيكوب، اى يعقوب، لم يكن بعيدا من تلك الكنية التى نالها هنا "كلب يهودى" . والتي اسرع المحرضون الذين لا يكون والخالون من المسؤولية ممثلة باشخاص صبية صنعاء يطلوقتها على المبعوث البريطانى .

رحلة خطيرة

لقد شعر احد رفاقنا الذى ينتمى الى النيانة اليهودية بالسوء فى نفسه، شأنه شأن خمسة آلاف من افراد ديانتته المضطهدين فى صنعاء، لا تحرر الاستثمارات فى اليمن، ولم يكن يطمح بالطبع الاعلان عن انتمائه اليهودى، لكنه بدلا من ذلك تحتم عليه الانصات بصبر (وكان اكمالا للمصيبة يفهم ويتكلم اللغة العربية)، وكان محدثوه العرب، لا يرون سببا للتحفظ امامه، ولو لم يكن العرب انفسهم ساميين لقات " عن نفسيتهم المعادية للسامية " وقد كان المشهد التالى طريفا على وجه الخصوص : بينما كان رفيقنا معتظيا بغلا الى الحديدية، وظل البغل يصرخ بدون توقف يطلق على البغل المنهك عبارة " يهودى ابن يهودى " وهى بالاضافة الى النبرات وتعابير الوجه، التى تبدو اكثر حدة بكثير، ورغم ان هذه العبارة كانت موجهة الى البغل بالكامل، الا ان رفيقنا وبعد ساعات من الطريق لم يستطع ان يصبر، فحاول الايحاء للسائق بان يقول صيغة اخرى ومن اجل ان يفرغ ما بقلبه للتفريغ عن مشاعره، سأل السائق .

لماذا تسمى البفل طوال الوقت يهوديا سمييه مسيحيا حتى ولو مرة واحدة ...

- لا استطيع، - اجاب السائق بشهامة - فاني سأسئء إليك انت المسيحي .

ويحكم هذه المعاملة اللطيفة الاقل مناسبة، وجب على رفيقنا الاستماع الى الشتم الذي لا ينتهى المعادى لليهودية، الموجه الى البفل البارذ المزاح خلال ثلاثة ايام بلياليها فى الطريق.

ولكى يكون المرء عادلا، تجب الاشارة الى ان السلطات اليمنية، لم تظهر خلال الاحاديث معنا والعلاقة بنا اى شئء معادى لليهود، وقد حظى رفيقنا الذى ينتمى لليهودية بعلاقات لطيفة وحذرة من قبل الشخصيات الرسمية، مثله مثل الآخرين، كما تجب الاشارة الى انه كان امام السلطات معروفا بانتماؤه اليهودى تجنبيا لسوء الفهم والاستفزاز لم نجعل من قضية ديانتته سرا كما كان الحال لكل واحد منا، ولم نتأسف ولو حتى مرة واحدة على مثل هذه الصراحة.

دفع الدين جميل، لقد حذرنا اصديقاتنا الرسميون (املك اساسا القول بانهم كانوا اصنقاء ليس بحكم الخدمة فقط) اكثر من مرة من تلك " الخطوات الخاطئة " من قبلنا، والتي يمكن ان تسمى لنا، وتفذى تحذير الرجعيين وعلهميهم من الاجانب .

لم ينم الاخرون، لقد تابعوا بيقظه كل خطوة من خطواتنا، يسعون لاستغلال كل صغيرة لاغراضهم، وقد بقت فى الذاكرة ...

فى ساعات ما قبل المساء، حين تنتعش الافنية الخالية جزئيا، والحدائق المجاورة للبيوت نرى فيها اشباح العائدين من العمل او الخدمة، كنا نحب التطلع ولو لوقت قصير بمساعدة عدسة المنظار بحيث كنا نلاحظ فى الحدائق البعيدة، ايماءات رؤوس المواطنين المتناثرين باهتمام، لكن احيانا ...

ذات مرة وقبيل النساء اقبل القاصى راغب قلقا، وبحق الصداقة القديمة اخبرنا عن الخطر الذى يتهدد احد رفاقنا الذى تجاوز حدود هذه الشغلة، اخبرنا بان احد الضباط القداماء غاضب لان عيون الاجنبى تتغلغل فى فناء داره، وتتنظر الى نسائه واطفاله (والزوجات على الاخص)، وان غضب الله سينزل على رؤوس الكافرين، لقد ركض الى البيت لاخذ البندقية، يقصد اصابة عدسة المنظار الغادرة برصاصة صائبة مباشرة.

ومن حسن الحظ، انه بينما كان يركض من اجل البندقية ادرك رفيقنا لان ينهى " الاستعراض المسائى " وان نزل من السقف، امكن تلافى المساة، لكننا نصحنا بان نكون حذرين فى المستقبل، وذلك ان العناصر المحافظة ترغب فى استغلال مثل هذه الحوادث لفتح معركة مع الحكومة واقتناعها بضرورة طردنا من البلاد، لقد حتم علينا هذا ايحاف " الاستعراضات المسائية " .

الباب السابع عشر

- * سيمفونية العاصمة "الابدية"
- * وتأثر العوالم الأخرى
- * طريق العودة
- * وحى صحيفة الحائط
- * " راحة الوطن " فى اسطنبول
- * الغناء الأوديسى .

سيمفونية العاصمة " الأبدية "

اعيش اخر الايام بصنعاء، تصلنا برقية من الحديد تخبرنا بان " توبولسك " فى طريق عودتها من البصرة، ينتظر ان تصل فى الايام القليلة الى عدن، والطريق من عدن الى الحديد يوم وليلة فقط ، ويجب الاسراع ، لان تاخر السفينة غير ممكن .

نزور الامام زيارة الوداع ، يستقبلنا الامام هذه المرة فى مخدعه الداخلى، المفروش على النمط العربى وليس النمط الاوربى، يحيط به عشرة - اثنا عشر من ابناءه الجالسين على الوسائد - ارتدى قميصا روسيا من الحرير الموشى، هذا ثوبى الوطنى، لى الحق فى لبسه

بديلا لبدلة الزيارات السخيفة التى لا تطاق فى حر الصيف الاستوائى .

اخلع الحذاء امام مدخل المخدع ، اسلم عليهم، يجلسوننى على الوسائد .

يتحدث الامام عن افضل مشاعره نحو البلد السوفيتى، كما يتحدث عن معرفة كل العالم الاسلامى للمهمة العظيمة للاتحاد السوفيتى، الذى اعطى الحرية عمليا للشعوب المضطهدة ايام القيصرية، كما انه يعرف كذلك المفزى الذى تقدمه الصداقة مع الاتحاد السوفيتى لتركيا، التى تناضل من اجل استقلالها، انشاء اله ستتحقق الغايات الوطنية لليمن ايضا .

لقد شعرت ان هذه الكلمات ليست كلماته فقط، لقد ادركت الشعور اثناء اقامتنا القصيرة فى صنعاء انه اذا كانت الجماهير العريضة من الشعب اليمنى الا القليل من التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى بلادنا، واذا كانت انباء الانكسار العظيم والبناء الاشتراكى قد وصلت الى الجماهير على شكل اصداء غاضمة وناثبة فى افضل الحالات، فان سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه الشرق ومساواة الشعوب السوفيتية فى الحقوق، والدعم المعنوى للنضال الوطنى التحررى لتركيا وافغانستان والصين - كل هذا قد تغلغل بقوة فى اذهان جماهير واسعة، وتمنيات الامام الوداعية فى هذه الحالة ، ولهذا فقد كان الوداع الاخير عزيز علينا - عزيزة علامات الاهتمام والعناية، التى رافقت رحلتنا تلك .

اليوم الاخير، احاول ان احفر فى ذكرياتى السوفونية الاساسية غير المعقدة لحياة العاصمة " الابدية " تكرر هذه السوفونية يوما بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت الذى انتهى فيه خطر الغارات ، لم يعكر صفو وتاثرها المنتظمسوى الاستعراضات المهيبة للقوات والمرشحات فى ايام الجمع، انى اتذكر الحائث الرئيسية .

حين يختفى الصليب الجنوبي وراء اشباح الجبال، تبدأ النجوم تنطفئ،، ويعلن صباح الديكة وراء المدينة قبل الجميع عن قنوم النهار، كما هي الحال في القرية الروسية، تندى صرخة الحارس الطويلة من مركز الحراسة على جبل نغم، ينفخ البوق العسكرى معلنا عن الفجر، ومن على الشرفة الرقيقة لمنازة المسجد * المزركشة * بكل الالوان الممكنة للخطوط المستوية والمتكسرة المختلفة الالوان، يبدو شكل المؤذن مثل نقطة مسودة، وصوته يتهدج يعلن عن عظمة الله يدعو الناس الى الصلاة.

من المكواة ومن وراء الشبايك ونوافذ البيوت تلاحظ الحركة، تفتتح الابواب، تظهر الاشباح المغيرة في الافنية، يبدأ الناعسون في ايقاد المواقد وعلى القهوة ، تسمع رغاء الجمال المموه في الحظائر، ونهيق الحمير والبغال، وتفتتح بوابات الاحواش في اطراف المدينة تفتح الابواب السبعة للمدينة بمصارعيها الضخمة .

ما يزال الظلام على الارض، غير ان الشمس لم تيزغ من وراء السائر الجبلى بعد، تضىء باشعتها قبة السماء، ومن على منحدرات الابرار تبدو ملامح الجمال البغال والاثوار المنهكة، تجر الجبال ، ويقتامى صرير حرير القرب الدواره في صوتية شديدة تملأ المدينة بصرير لا يهداء ، تفتح الحوانيت في السوق الذي يحتل نصف المدينة تقريبا، يظهر الباعة المتجولون وباعة الخضار والفواكه، وتخرج ارتال الحمير المستعجلة، والبغال الهادئة والجمال الواجمة بغياء من بوابات حظائر القوافل الكبيرة واماكن المبيت الصغير ، تتوجه الجموع الصاخبة من المسافرين من مختلف الاجناس الى بوابات المدينة، اينما توزع القوافل الى مختلف الجهات، الى البحر وإلى اعماق البلاد، يسوق الجزائريون قطع الماعز الى خارج اسوار المدينة، وعلى ساحة قريبة من باب اليمن (اكبر ابواب صنعاء) يبدأ الجزائريون بالذبح ثم يسلخون الجثة المعلقة على حامل ذي ثلاثة قوائم، ويبدأ السوق بالفليان : تمتلئ الحوانيت، المقاهى، الورش، المطاعم، الشوارع والازقة جميعها بسيل من البشر، عازفا في جوقة من الاصوات المتنافرة، في حوار وثغاء الحيوانات، تحت ضربات المطارق، وصرير الناشر والمثاقب في الورش الدساحة، يصقل الحرفيون ويصنعون من الفضة مجامر الترجيلة، ويطلون اعماد الخناجر بقشرة ذهبية يزخرفونها ويشحنون نصالها، في اقبية رطبه مظلمة تحت مباني عالية، تدور الجمال المعصوية العيون حول رحى معصرة الزيت من السمس، ويلعب الفتيان على الاوتار القليلة للمنازل البسيطة في ورشات النسيج؛ يرتفع دخان مصنع السلاح الصغير وراء عرضى الجيش المعزول عن المدينة، يصل مدرب الطيران الالماني راكبا البغل الى المطار الواقع خارج المدينة، يراقب

المحرك ويبدأ بتوبيخ تلاميذه العرب على كسلهم وعدم الاهتمام بسرقة البنزين، هؤلاء التلاميذ لا يفهمون كلمة واحدة باللغة الألمانية، ومع ذلك يستمعون باهتمام يعيدون بتأثر "أخ" "زو" في ساحة الضاحية، وتظهر الكتائب العسكرية المارة، تجر أسلحة الطائرات، يتمخطر الفرسان على طول سور المدينة.

وبجانب قصر الامام، على ابواب منزل القاضى راغب، وقرب الدوائر الاخرى تظهر جماعات الزوار المساكين والقادمون من اقصى اطراف البلاد احيانا، تصخب الحياة غير عابئة بقرص الشمس الملتهب وموجات الغبار العكر .

تقبل الظهيرة وقت الغذاء - يخفف صخب المدينة شيئاً فشيئاً، ساعة اخرى، ويأتى وقت القات وكان " اكلوك قات " (ساعات القات)، كما سماه احد الاجانب الخبثاء، تهمد التجارة فى ساعات القات، وكل السكان الرجال من الصبي الى العجوز الهرم، من الفقراء الذين لا يملكون ولو قرش الى ابناء الامام وشيخ الاسلام يمضفون القات حتى يقعون فى خدر سعيد، يبدو انه حتى ولو ظهر العدو فى هذه الساعة تحت اسوار المدينة، فلما بصق حينها الحارس المناوب على البرج بالاوراق الخضراء.

وبعد ساعتين او ثلاث من " اكلوك قات " تبدأ المدينة تعيش حياتها كما كانت فى الصباح، وان كانت بوتائر ضعيفة خافتة، تندفع فى بوابات المدينة ارتال القوافل المحملة، التى تنقل بضائع ما وراء البحار من الموانىء ورزم الخامات النباتية، الصوف والجلود، تنقطع تمرينات الجنود فى ساحة المدينة، وبعد ان يقوم الامام بنزلة خارج المدينة على عربة خيل فاخرة واسعة، يرافقه عشرون او ثلاثين فارس من حاشيته، ثم يعود الى القصر، يواصل الفلاحون فى حقول الضواحي ذرى الدخن والذره، يفلحون الارض بمحراث يجره جمل، الاشغال الزراعية المختلفة لا توزع هنا طبقاً للمواسم ، فالطقس المعتدل طول السنة تقريبا يمضى القوداق بين مواسم الفلاحة والبيزر والحصاد، تنحدر الشمس الى الغروب، ومن جديد يؤذن المؤذن من على المنارة المظلمة مشيراً الى انتهاء يوم العمل.

يتفرق الجميع الى منازلهم، يخيم الهدوء الذى لا يخرقه سوى نباح الكلاب البعيد، او الحان الفرق الموسيقية العسكرية المتنافرة، تفرغ الشوارع والأرقة، ولا يشق ظلمتها الفاغرة سوى ضوء مصباح يدوى نادر يتسرح به ماشى متأخر، تنطلق الاضواء فى البيوت، وراء جدار القصر المكى فقط تلمع مصابيح محطة كهربائية صغيرة طوال الليل، تضىء القصر، ودار سك النقود، المطبعة ومقر التجراف، ابواب المدينة السبعة كلها موصدة ولا يوجد سوى الحراس

الذين ينابون في الابراج يراقبون ملامح الطرق التي تكاد تلحظ بالكاد تلك الطرق المؤدية الى عدن المعادية، والى الحديدية الحارة، ومازب الغامضة المرتاية عاصمة مملكة سبأ البعيدة المنال حتى الان، يشعر المرء تحت ستار الليل كيف تنمو وتتمزز القوة الجديدة، التي استيقظت من نوم الف سنة، تشق الطريق الواسع لوجودها الوطني المستقل، الذي يغلى بالعمل الخلاق والجماعي (مستقبلا)، يتهيا للمرء كما لو ان الاسوار الطينية للمدينة والبيوت ذات النمط الموريتاني تنهار كانهض تاريخية لا داعي لها، وكما لو انه تنفت مداخل المعامل دكانها في السهل خارج المدينة، وتندفع خامات ثروات البلاد المجهولة الان على خط سكك الحديد من كل الجهات، وعبريلعوم بوابات المصانع التي لا تشيع، وتبقى اسماء " البوابات التي تم ازلتها في بعض الساحات .

وتأثر العوالم الأخرى

وجبل نغم الثابت الى الابد، كل هذا سيذكر بالماضي فقط ، الماضي الغابر، حين كان يهدد صنعاء النير الاستعماري، حيث ساد الاضطهاد الاقطاعي والجمود البدائي، في عام ١٣٤٧ هـ ، ١٩٢٨ ميلادية، والعام الثاني عشر من العهد الاشتراكي يصل الى صنعاء اناس من ذلك البلد المكون من أربع كلمات لا سعة هي اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

الوتائر، الوتائر... وتأثرنا البلشيفية ... ايمن الحلم بها يا ترى هنا، في هذا البلد المنتعش، لكنه مع ذلك نصف نائم، مرم، مليئ ببقايا القدم وركام الانقاض ؟ القصور، الاحواض، النافورات، التماثيل -- البشر انصاف العراة الذين يلبسون الاسمال، وسكان المنازل التي كانت فاخرة في يوم ما ، وكانها روما القديمة العهد، المشبعة بالثقافة التي قد شاخت وهرمت وذبلت، ها قد اتت شعوب جديدة وناس جدد احتلوا مملكة الحمريين القدماء، واغتصبوها، اتجبوا جنسا جديدا، لكنه ليس من جنس البرابرة والقوطيين والهنريين، ان هذا الجنس الجديد لم يدمر القلاع والقصور القديمة، وانما سكانها، واصبحت المباني الفاخرة مأوى لأناس عراة، جياح، انصاف متوحشين .

خمل هؤلاء البشر على انقاض الثقافة القديمة مئات بل وآلاف السنين ... لم يبق من ذكر الحمريين القدماء سوى نقوش تنمحي على الصخور، أو تماثيل النساء الحجرية باجفان عابسة وقبضات مضمومة باحكام .

تعرض القادمون الجدد لفتوحات جديدة، ونما شعب جديد، خليط من الاشوريين، والفرس، والساميين، والاحباش، والمصريين، بل وربما من القابيل القوقازية، ثم تبلور هذا الخليط ونضجت اليمن جامدة تم صياغتها على شكل القرون الاولى للعصر الاسلامي .

انتقل التاريخ الى الشمال، الى هناك تحت اسوار فيينا، والقسطنطينية، الى موانئ جنوى، وانفوس وامستردام، والى ورش منشستر، وبرمنجهام، وشيفلد، وتعرجات نهر الراين، والالب ، واوديرا، والى شوارع باريس، وبولتافا، وليزج، وبرودين، ووترلو، بدأ يتشكل عالم الراسمالية الجديد، وتلاشت الحواجز القديمة، واقيمت حواجز وحدود وتخوم جديدة، وشمل البخار، والكهرباء، والراديو، والاسهم، والفوائد كل العالم .

اما هنا في الزاوية المعزولة والمنسية والعصية من شبه جزيرة العرب، في البلد الذي ساد فيه الجحيم حسب تصورات الجغرافيين القدماء، والذي كانت بوابته البحر الأحمر، هنا هجع ملايين البشر كموميات محنطة، في حالة سبات عميق لعشرات القرون، يتوارون بين سلاسل الجبال، تحيط بهم صحراء شاسعة، ويحتمون بستار كثيف من اشعة الشمس العمودية، تابع سلالة الحمريين القدماء ركوبهم على البغال والحمير، يمضغون القات يرتشقون الماء بأيديهم، يشربون قهوة قشر البن، يحافظون على الصلاة ليحرس الله البلد ثابتا لا يتغير، كي ينعم الشيوخ بنومهم المطمئن على السجاجيد الفارسية، وكى يحنى العبيد والفلاحون ظهورهم من الشروق حتى غروب الشمس في مدرجات البن ومزارع الدخن والذرة .

قلبت حرب السلاطين العثمانيين العنوش العطن، ووصلت قعقعة السلاح من تاريا وفيستول والدردنيل، وموجة الشرق التحررية، بالشحنة التي دفعتها ثورة اكتوبر - كل هذا ايقظ غريزة البقاء، والارادة في الحياة والازهار .

فرخت الشجرة القديمة عسالج فتية، وطمحت الى الاستقلال والتصنيع وضمائنته، وظهر اليانكي في مملكة الملك ارتور من كونيكتكوتا على هيئة اطباء ومهندسين ايطاليين، وطياريين المان، وضباط اترك، وهم الان " التجار الحمر " السوفييت، والناس الذين لم يشاهدوا البحر قعدوا في غرفة قيادة طائرة " يونكرس " وراء قيادة السيارة، ان النزوع الى الجديد ما زال يظهر بشكل طفولي غير حازم في الغالب، يملأهم التهيب والتوجس، من الخطأ والارتباك، غير ان الرياح تهب طريقه، وتتآلف مع اصدااء العاصفة الثورية في الشمال البعيد، تزكى تلك الشعلة، التي بدأت تنطلق شرارتها من تحت رماد الانقراض القديمة ومن تحت رماسركام القرون .

لكن الوتائر، الوتائر...كم من الصعب هنا ان تشعر بنفسك في تبعية كاملة لوتائر اخرى،

ومحيط آخر، تشعر بان كل حركاتك قد اصبحت اكثر ثقلا وبطئا، وكان رجلك قد امتلأتا بالرصاص، من الصعب ان تصب وتتمعن التفكير فى كل تغير، كل اشارة وكل خطوة، كأنها قد وقعت فى كوكب اخر ، محكومة بقوانين جاذبيه اخرى .

طريق العودة

الى الطريق ؟ وليكن الانفراج حتى ولو فى الطريق، ولو بالحركة -- تحت ذريعة وصول السريع فى رفع الوتيرة التى يمكن الحلم بها حين نجلس جلوسا بطيئا مضجرا على سقف الشرفة المستوى

السيارة، البغل، الممرات المختصرة، المبيت القصير حيثما اتفق فى اقل الاماكن ملائمة، تعبر جزء من الطريق سبرا على الاقدام (لكى لا تنهك البغال)، تقطع الطريق مباشرة بدلا من المنحنيات المتعرجة، صعودا، وهبوط ، ها نحن نرى بوعن، سوق الضميس، مقحق، مخافة، مجيلة، قطعنا الطريق فى سبع ليلى سابقا، وما هى تنخفض الان الى ليلتين تحت ضغط الضرورة والارادة فى الاسراع تستقبلنا السيارة قرب نجيل وقد ارسلت لا ستقبالنا من الحديد، بضعة ساعات عبر قيظ وغبار تهامة، وفى اليوم الثالث من السفر نرى حيطان الحديد البيضاء مرة اخرى وطرطشة الامواج الفوسفورية الهادية.

نستلم برقية من صنعاء مع التهنة بمناسبة قطعنا الطريق بشكل قياسي، لكن وا أسفاه فالسرعة القياسية لم تبرر نفسها : " توولسك " غير موجودة فى الميناء انها تضطرب فى صراع غير متكافىء مع الرياح الموسمية بين امواج المحيط الهندى، على بعد مائة ميل .

عشرة ايام من التسكع والحر الخائق فى الحديد، معمل البن التجارى الذى يملكه الشيخ عمر المزجاجى حيث يقوم عشرات العمال ومئات العاملات بقشر البن من القشارة، ويفرزونه فى المناخل، ينترونه فى اكياس من القش، لتهينة نقله الى مختلف انحاء العالم البعيد، والى اوديسا السوفيتية لأول مرة فى تاريخ اليمن، تصل مجموعة من الهنود من بقاع الهند النائية، تسير فى طريقها الى الجبال، انهم اتباع المذهب الاسماعيلى، الذين يزورون اخوانهم فى المذاهب كل عام فى منطقة قرب مناخه، وصل وفد ابن سعود الى صنعاء للمباحثات مع الامام، ياتى ابناء الجالية المحلية الايطالية فى الحديد لزيارتنا، يشكون من مكائد الانجليز، الذين لم يسمحوا بوصول الكروسيين الايطالى الى جزر كمران وفرسان ، يصادرونه بغير حياء فى وضح النهار ،

ويتجاهلون مصالح الدول الأخرى، كما يشكى الإيطاليون من بعضهم بعض، ويستعد ممثلو الشركات الرأسمالية الإيطالية المختلفة " المنظمة " لاكل بعضهم بعضا ، يتفلسفون في قيظ الحديدية الشديدة، وعلى الساحل المقابل للبحر الأحمر في عكيك سواحل مصوع وحتى في جبال ارتيريا الباردة .

كل عقد التناقضات بين الامبرياليات الانجليزية والامريكية والايطالية وبين كل واحدة منها على حدة تجد ان انعكاساتها هنا ايضا، مثل شمس منعكسة في قطرة صغيرة من الماء، في هذه الزاوية الشديدة القيظ من البحر الأحمر .

وحى صحيفة الحائط

هنا في الحديدية، وعن طريق الصحف الالمانية الواصلة بالصدفة، تعلم عن النمو الكبير في الاصوات التي حصل عليها الشيوعيون في انتخابات الريخستاغ، كما تعلم ان بواخرتنا الكاسحة للجليد (بعثة نابليون) (*) تنفذ مهامها في الجليد القطبي البعيد، يتحدث عن ذلك طبيب ايطالي بصوت منخفض، ويتعبير حذر عن الامتتان، بينما نحن نغبط بحارة " كراسين " و " مالميجين " على الجليد الذي يحيط بهم، هذا الجليد المجهول في شبه جزيرة العرب.

كان كل هذا بالنسبة لنا كأنها انباء من كوكب بعيد، حيث فقدنا الامل في العودة اليه ، لقد مضى ما يقارب ثلاثة اشهر على رحيلنا من اوديسا، ولم نستلم ولا مرة واحدة اخبار من الوطن السوفيتي، اذا لم تحسب تلك البرقيات الرسمية، التي تخبرنا بان البرقيات التي ارسلناها غير مقبولة، نصمت ونطبق على الاسنان بشدة، نتظر " توبولسك " مرة اخرى يجب الصبر أيوب .

يشهد الحر، اغسطس - أكثر الشهور قيظ - يبدو قيظ البحر الأحمر في شهر يونيو باردا خفيفا اذا ما قارناه بقيظ اغسطس، انتهى احتياطي الماء المعدني ، نشرب الماء ذات الطعم المالح، نرتشفها بالأيدي، ولذلك يبدو وكأنه مشبعاً برائحة جثة (ها هي بقايا الخرافات القديمة) ! اذا كان النوم ثقيلاً في صنعاء، في جفاف الهواء الجبلي، الذي لا يطاق، واذا كانت الماء المصبوبة في الصحن مساءً تتبخر في الصباح، وتتشنج الحنجرة بالم حاد نتيجة جفاف العروق، واذا كان هناك في المرتفع الجبلي الحار، يخفق القلب بدون توقف، يبدأ الاحساس

(*) - بعثة مشهورة بقيادة نابليون النمساوي، مهمتها اكتشاف القطب المتجمد الشمالي سقط فيها المنطار الذي كان يقلهم، فانقذهم البحارة السوفييت .

بالأنهك بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من العمل وبعد نصف ساعة من السير، فأننا هنا فى الحديدة ننق تحت الرطوبة المحرقة، وأنعدام الماء، فى الغبار، تحت زحف الذباب والام الحاد لقرصات البعوض، لقد توفى احد الموظفين الايطاليين بعد ثلاث ايام من نوبات الملاريا الخبيثة، نشعر كيف يضعف ويستسلم الجسم، و "توبولسك" لا وجود لها، تزحف الايام ببطء لا يطاق، تطول الليالى، وفى كل صباح ونوجه السؤال لانفسنا، متى فى الاخير ستأتى الباخرة؟ نجيب على انفسنا بثبات: "انشاء الله بكرة"، وحين خذرت مشاعر الانتظار وخاب الامل (الم تبحر "توبولسك" دون ان تمر على الحديدة؟)، وفى صباح هادىء وخائق (ترن اجراس الجمال، يصرخ الحاملون بعصبية على الرصيف) نرى الدخان البعيد وعلى افق يرتسم شبح الباخرة العزيزة علينا بلا حدود والعلم السوفييتى الاحمر يرفرف عند مؤخرة الباخرة ...

الرياح البحرية حادة وشديدة، يقترب الصنوبق من الباخرة البعيدة بتعرضات طويلة بيدل محله عدة مرات، مرة فى نهاية شمال المدينة ومرة اخرى فى طرفها الجنوبي، وبعد ساعة ونصف وبعد ان يجوب البحر كله ويتمزق شراعه فقط، يلتحم بجانب السفينه الحديدى وعلى الباخرة اولئك الناس أنفسهم، والقوارب نفسها، ونفس الياغطات. "نطالب باطلاق سراح الرفيق بيلاكوف" (وبالنسبة قد اطلق سراحه)، لكنهم قد نحلوا، واصفرت وجوههم، وصدىء حديد الباخرة، وغطى جزؤها الاسفل تحت الماء بطبقة من الصدف، انت الباخرة واجيها، فقد نقلت اول البضائع السوفيتية الى موانئ فارس الجنوبية، وشاهدت مدن بندر، يوشير، وموخامير العلم السوفييتى، وتواجدت الباخرة فى مصب شط العرب، فى البصرة، حاملة البضائع الى العراق المضطهد من قبل الامبريالية الانجليزية، وفى طريق العودة مضت الباخرة بمكانن منهكة، لقد تقاذفها الرياح الموسمية للمحيط الهندى اكثر من عشرة ايام، انتهى احتياطى الفحم، ووصل طاقم الباخرة الى اقصى حدود الأنهك، فتقرر ترك المعركة اليائسة مع الاعصار الجبار، استسلم البحارة الكارثة الطبيعية والذهاب الى كراتشى، اقرب الموانئ الهندية والبقاء هناك، ولكن الارادة الحديدية للبحارة واصرار القبطان - المرشح للحزب اخذ الغلبة، فشقت الباخرة طريقها عبر الاعاصير، وتمكنت من الحصول على التموين من الفحم فى مسقط، وفى سواحل شبه جزيرة العرب، واخيرا الان - الى الامام! فلوديسا تجذبنا من بعيد.

بيتعد اليمن، ويختفى فى الضباب الازرق المغرب فيما بعد، ما هى الساعات والايام - تمروكنا فى باتورما، تمر الباخرة على جزر بروسنو، جزر الطيور، جدة، فانارات الصخور البحرية فى جزر يدال وجزيرة الاخوين، والبانورما المصقولة لجبال سيناء.

استلقى على سرير شراعى اكل عليه الدهر وشرب فى شبه غيبوبة وبلا حراك ، تبدو حر ورطوبة البحر الاحمر باردة معتدلة بعد ايام الانتظار العصبية المتعبة فى الحديدية الخائقة ، تقع تحت سلطة الباخرة بالكامل ، من الممكن ان لا تفكر فى شىء ، ربما لا تتمالك نفسك، يمكن ان ترمى جانبا ذلك المشد الحديدي من عدم ضبط النفس والتوتر، الذى نتخيله فى الوضع المجهول والمربع فى البلدان الغربية ، حيث يفترض ان يكن مستعداً لكل شىء وكامل الاسلحة باستمرار .

شريط الاحداث يعود الكرى ، نمر عبر فتحة قنال السويس، نشق طريقنا الى شواطئ روديوس ضد اتجاه الريح الشمالية الشرقية، وقهر الرياح مباشرة لم يكن بمقدور المكنائ المضعضه لباخورتنا، نناور ونمسك بالايدي تقريبا بكل منعطف للصخور الساحلية ، نبحث عن ملجأ من الرياح المجنونة، التى تمنعنا من الوصول الى الوطن، باتدهاش نشعر ان البحر غير موجود، يهب نسيم بارد عليل، نتسلل نتفرج فى مائة الاماكن الضحلة، والجزر الصغيرة المتناثرة، نلتصق بشواطئ الاناضول، يغير القبطان خط السير، كى نتخلص من غضب الرياح، نتفحص درجات مقياس الحرارة، وترتفع درجات العرض، وتختفى اليمن فى العمق البعيد الذى لا يرى، يقفز امامنا مدخل الدردنيل كقوه مدفع هائل .

" واتحة الوطن " فى اسطنبول

تتنفس الباخرة حياة سوفيتية كاملة ، تنتعش الخلايا الحزبية ومجلس الباخرة من جديد، بعد ضغط الشهور الاستوائية، يلتقط عامل اللاسلكى اشارات نداء اوديسا من جديد وينشر انباء اذاعة موسكو، تناقش الخلية اساليب النضال ضد التهرب فى اوساط البحارة، يقوم الداعيه (" الكاهن السوفيتى " حسبما يطلق عليه البعض ذلك بخبث) يومياً " يقرأ القداس " (تعت ساخر ايضاً) يثبت امام مجموعة من المستمعين فائدة نظام التوفير والنقد الذاتى ، ويصيغ مقولات ما ، خمسة من المجاج الاستراخانيين العائنين (فى الطريق من جدة ، كان عددهم ثمانية مات ثلاثة منهم فى رمال الحجاز) يتذكرون بكابة وخيبة امل الممرات الشائكة فى صحارى شبه جزيرة العرب، والركض حفاة فى المواعد المتصهرة بعكة وتحت نفحات الريح الباردة سكنت مكتبة عشرات القروء الصغيرة، التى اشتراها البحارة فى الموانئ العربية، هذه

الكائنات الصغيرة هي الشيء الوحيد الذي يمكن استيراده بغض النظر عن التحريم الجمركي، انصاف الاوادم القزمية هذه، التي اطلق عليها جملة من الأسماء البشرية، مثل باشكي، مارقوتكي، جيك، تلتصق ببعضها البعض في وسط غريب جديد وقعت فيه، قرد واحد من القردة فقط اسمه جيك انه قرد زنجباري متوحش، يختلف بحدة عن انصاف الاوادم اللطاف، يجلس غاضبا دائما وحذر ومكثر لا يقترب من البشر، يتطلع بحنين الى تلك السواحل القريبة جدا والبعيدة المنال، للياخرة التي تزحف ضد التيار ببطء والتي انهكها الزمن والامواج .

والجريدة الحائطية توزع المكافأة :

" الهدايا من الرحلة الفارسية "

" يمنح الاسطول التجارى رحلة مجانية الى فارس على الباخرة " توبواسك " (وهذا كما هو واضح هو أسوأ عقاب تمكن البحارة المحتشمون غيظا التفكير به) .

يمنح بيكوف (الداعية) خمس سنوات من العزلة الشديدة في مدينة كيسلوفودسك وينسين لانه حمل الفحم (لقد انهك هذا الشاب الذي قام بدور " الكاهن السوفيتي " وقدم مثلا يحتذى به ليس بالكلام فقط ، بل وبالفعل ايضا ، لقد قام بحمل الفحم شخصيا في اللحظات الصعبة) . يمنح وقاد والآلات البخارية عشرة طن من فحم مسقط ، وثمانين صندوقا من المكرونة من موسيليني مكافأة على الاضرار عن الفحم الايطالي (حيث لم يكن الفحم الذي تم شراؤه من السفن الحربية الانجليزية صالحا لآلات باخرتنا التي كانت تعمل بالكاد) .

" يمنح طاقم الآلات سميدا من الحنطة السوداء لمقاومة الاغماء " (لقد كانت حالات الاغماء كثيرة، وتلافيا امر غير ممكن في ظل تفاهة التجهيزات) .

رصيف اسطنبول، ها هي رائحة الوطن -- على هيئة المكاتب السوفيتية -- ليست لذيدة وطيبة دائما ! يفتن فرع الاسطول التجارى السوفيتي هادنا تحت ضجيج شوارع اسطنبول ، على الرغم من انه اشعر بقنوم " توبواسك " ولكن موظفي الفرع لم يتفرغوا لتحضير الفحم والمؤنة مسبقا وبذلك يقللون من فترة وقوف الباخرة .

يقدر قبطان الباخرة كادييتسكي مهتاجا عدم انتظار المؤنة لسبب تأخرها ، ليكن في هذه المجاعة الاستعراضية تعبيراً عن الاحتجاج ضد البيروقراطيين السوفيت المتهاونين في الخارج ، يامر برفع المرساة تحت تدمير الطاقم المنهك من الجراية الشحيحة (صحن من الشوربه وقطعة صغيرة من اللحم المعطب في اليوم) الى الامام، الى اخر مرحلة من السفن ينتبه

البيروقراطيون بعد أن يروا الباخرة تبتعد، يقومون بحمل المؤنة المطلوبة على سيارة الى بيوك دير، حيث يفترض ان تتوقف باخرتنا قبل خروجها من اليسفور، وفترة التوقف عشر أو خمس عشرة دقيقة وما نحن في البحر الاسود المفتوح .

الاصوات الاولى لصرير تروس الآلة التي لم تدهن تخرق اذمغتنا يتنافر، وان كانت لا تستطيع ان تحجب عظمة ومغزى تلك العمليات، التي جرت امام اعيننا وبمشاركتنا في سير تلك الرحلة المؤله عبر الرياح الضبابية، والشعاب ، والقيظ، وانعدام الماء، والاعاصير، والجوع، والامراض عبر تعنت الشركة ووخزات الاعداء عبر غباء وتمقول اصحابنا .

" بعد استخلاص نتائج رحلتنا، يجب الاشارة الى الكثير جدا .

- بصرف النظر عن عدم ملائمة باخرتنا لهذه الرحلة ، وسوء نوعية الفحم ، ودرجة الحرارة العالية ومختلف انواع الحرمان الأخرى، التي عانى منها طاقم الرحلة، بصرف النظر عن كل ذلك، فقد اظهر الطاقم نفسه كما يليق ببروليتارى سوفيتى واع ، اظهر الطاقم رياطة جأش كبيرة، مدافعا عن هذه القطعة الصغيرة من الدولة السوفيتية، غير آبه باية صعوبات، فتحنا نافذة على الاسواق العربية والفارسية، ونشرنا علمنا الاحمر بكل اتساعه امام عمال فارس والنول العربية، واجبرنا البرجوازية على الارتجاف، والتي لم تكن تنتظر قنومنا، والان وعند أنتهاء هذه الرحلة العسيرة، يجب ان نعبر عن تمنياتنا وامالنا بان تكون الرحلة الثانية اكثر سهولة وريح لنولتنا، لقد وضعنا الاساس، الذى سيبنى عليه صرح العلاقات التجارية والسياسية المتبادلة والصحيحة مع اليمن وفارس بغض النظر عن مكائد البرجوازية الاجنبية " هذه السطور المتواضعة، التي كتبتها يد بروليتارية بسرعة، والمليئة بالاطخاء الاملائية والانشائية، هي اقرب الى الحقيقة بما لا يقاس من كل اللغو المتفلسف من قبل بيروقراطيين التجارين، وتعيق اصحاب الاعمال في الاسطول التجارى السوفيتى، اتذكر كل التصريحات الساخرة، التحسرات التنبؤات المتأله مثل " ان نفلج في شئ " او عسى الا يحصل شئ " وحتى " عسى ان لا يصيبكم مكروه " ، " لكن اى معنى لذلك " ... " اليمن - قبائل متوحشة " ، اتذكر الصوت المتفاخر قليلا للقاضى راغب قائلًا ...

- لا ندرك بعد المغزى العظيم لهذه الايام بالكامل، التي وضع فيها بداية التقارب السوفيتى - اليمنى، نعلم ان الاتحاد السوفيتى عظيم جبار وعادل، وان المستقبل ليس لاعدائه، بينما اليمن صغيرة ويبدو انها ضعيفه، لكن اليمن هي الاخرى ستضع لبيتها في صرح النضال العظيم للشعوب المضطهدة ضد مستعبدتها، اليمن معروفة وتنتظر اليها شعوب مصر والنول

العربية، وأها مؤيدون في العراق، وفارس، والهند ... لا تغفلوا عن اليمن، فهي لم تلعب دورها بعد ، أنا عجوز وهيهات أن أعيش حتى ذلك اليوم، حين يعطي التقارب الذي بدأت ثماره اليانعة، لكنني فخور بأن الأبناء والأحفاد سيرون، وسيفهمون ويثمنون أعمالى.. انشاء الله " -
أقول في دخيلتى، معطيا هذه الصيغة، المتعددة الجوانب معنى : " ليكن كذلك " .

" انشاء الله " سنتنصر على الامبرياليين، والاعاصير، والتقصير وحشرات الاجهزة الحكومية الضارة الحفيرة، وجبن قنيلى الايمان المصدنين المنتقمين .

الغبار الأوديسس

وقتها، فإن هذه الضيوط الدقيقة ، غير المرئية، التي امتدت آلاف الاميال من قمم جبال اليمن ذروة ابراج الكرمليين ومداخن مصانع موسكو ستتحول نتيجة لرحلتنا الى حبال فولاذية جبارة توحد كل العالم لتحرير العمل والابداع الجماعى، ان الفولاذ المسكوك لا يحمل آثار الصهر وسخام جدران المصانع وإن تصل شكوانا الى اناس المستقبل من العراقيل والحرمان والاضفاق (لهذا فلنقلل من الشكاوى) ، بل ستصل تلك المشاهد القصيرة، المنفردة، التي مثل اغصان الطحلب تحت السطح الشفاف للاخبار الكريمة اليمينية، تصور نجاحات ومنجزات عصرنا، حيث يصاغ من مخلفات الماضى المتراكمة آلاف السنين مستقبل القرون القادمة سواء تحت اشعة شمس الجليد القطبى التي لا تغيب او تحت الاشعة العمودية لشمس تهامة .

وفى الافق يظهر فنار اوديسا ...

رقم الإيداع: ١٥٠٧ / ١٩٩٣

I. S. B. N. 977 - 208 - 102 - 4

لبنة الخراف الأمازيغية والتسميم اللذان محمود الهندي ، اللبنة الأمازيغية بوشة بور بنغازي



To: www.al-mostafa.com